فصول
من تاريخ الحضارة الإسلامية

الدكتور طه ندا

١٩٩٣

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - اسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣



فصول
من تاريخ الحضارة الإسلامية

فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية

الدكتور طه ندا

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير - اسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد ، فهذه فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية يجمع بينها الحديث عن الشعوب الإسلامية التي شاركت في بناء صرح هذه الحضارة .

وقد وجهت الحديث في هذه الفصول إلى تلك الشعوب التي ارتبط تاريخها وحضارتها بتاريخ العرب أوثق ارتباط ، وتعاونت جميعها بالتأثير والتأثر ، والأخذ والعطاء في تكوين هذه الحضارة الإسلامية .

وقد تحدثت عن الفرس ومشاركتهم في هذه الحضارة بشيء من التفصيل . وهذا أمر طبيعي يفرضه على الباحث دورهم التاريخي .

ثم تحدثت عن الأتراك ، وناقشت ما وجه اليهم فيما يتصل بموقفهم من هذه الحضارة . وأضفت فصلاً عن الحضارة الاسلامية في بلاد الهند .

وعرضت لانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا عرضاً تاريخياً موجزاً ، ورفعت من هذه الطبعة تلك الدراسات الأدبية المتعلقة بتأثير الآداب الإسلامية في الآداب الأوربية وألحقتها بكتابي « الأدب المقارن » فمكانها هناك أنسب .

والله أسأل أن يعين ، وأن يهدي إلى الطريق القويم .

طه ندا

بيروت — نيسان ١٩٧٥

فـرس وعـرب

١ من هم الفرس

اشترك في تكوين الحضارة الإسلامية مجموعة من الشعوب تختلف في الأصول والمواطن واللغات كالعرب والفرس والترك والهنود وإن كان الإسلام قد جمع بينها في الدين [١] . هذه المجموعة من الشعوب التي كونت المجتمع الإسلامي إلى أي حد تأثرت في حضارتها بالفرس ، أو بعبارة أخرى ماذا كان دور الفرس في الحضارة الإسلامية بوجه عـــام .

والحضارة لفظة نطلقها على التقدم والرقي الإنساني في مختلف الميادين كاللغة ، والأدب ، والفنون الجميلة ، والصناعة ، والتجارة . وغير ذلك من مظاهر النشاط الإنساني الذي يؤدي إلى التقدم والرقي وييسر السبيل إلى حياة إنسانية كريمة .

وقبل أن نشرع في الحديث عن دور الفرس في الحضـــارة الإسلامية ينبغي أن نوجز في هذا القسم التاريخي من البحث القول عن الفرس، وعن صلاتهم خلال التاريخ بالشعوب التي كونت هذه

(١) واضح أن المسلمين في بلاد الهند جزء من أهلها ولكن لهم مع ذلك حضارتهم الإسلامية الخاصة بهم .

الحضارة وهم العرب ، الترك ، الهنود .

أما الفرس فكانوا أحد شعوب المنطقة التي تتوسط آسيا ثم هاجروا منها إلى اقليمهم المعروف باسم إيران . ولهذا فإنهم ينسبون إلى موطنهم فيسمون الإيرانيين . وهي لفظة منقلبة عن آريان ومفردها أرية وهي بالسنسكريتية والأفستية بمعنى طاهر ونجيب . وعلى هذا فالآريون بمعنى النجباء . ويرى بعض العلماء أن آري معناها فلاح وأنها مشتقة من أصل سنسكريتي آخر بمعنى يحرث . وهناك الرأي الذي يرى أن إيران أخذت اسمها من «اير» . وكان اير هذا — أو ايرج — أحد أبناء أفريدون وهم سلم ، تور ، اير أو ايرج [1] . وقبل أن يموت أفريدون قسم مملكته بين أولاده فخص سلم بالقسم الغربي ، وخص تور بالقسم الشرقي من المملكة وهو بلاد توران . وينسب أهل هذه البلاد إليه فيسمون التورانيين . أما أصل المملكة وقاعدتها فقد خص بها أفريدون ولده ايرفنسبت إليه ؛ وقيل إيران كما نسبت بلاد التوران إلى تور ؛ وأما لفظ الفرس فقد جاءهم من الانتساب إلى مقاطعة فارس. ولم تكن فارس في التاريخ القديم سوى جزء يسير من بلاد إيران إلا أنها كانت ذات شأن بعيد في حوادث التاريخ القديم مع اليونان مما جعلهم يطلقون اسمها باليونانية Persis على بلاد إيران كلها . ولا يزال الاسم اللاتيني Persia يدل على نفس المدلول الذي يدل عليه الاسم اليوناني Persis .

وتجري في عروق الإيرانيين دماء كثير من الشعوب التي غزت بلادهم واتصلت بهم كاليونان والأتراك والعرب . ومع هذا الاختلاط في الدماء فإن الشعب الإيراني استطاع أن يحتفظ دائما بشخصية متميزة مستقلة . ومع أن إيران تعرضت لكثير من الغزوات

---

(١) تلفيق الأخبار — م . الرمزي ص ٦٨ ط أورنبورغ .

التي هدت قواها ومزقت أوصالها وحولتها إلى ولايات استقل بالحكم في كل واحدة منها حاكم . إلا أنها كانت تستطيع بعد كل محنة من هذه المحن أن تعود إلى سابق وحدتها وترابطها .

وفي الكتابات التي كتبها المؤرخون عن إيران منذ أقدم العصور إلى وقتنا الحاضر تتفق الكلمة على أن الشعب الفارسي شعب مقاتل شجاع ، وأنه شعب موهوب،ولديه من الاستعدادات الفطرية ما يجعله مستعدا للاستفادة من الأفكار الجديدة تواقا إلى المعرفة .والإيرانيون بصفة عامة يعشقون الجمال ويتذوقون الشعر بصفة خاصة . وهم يفخرون بلغتهم الفارسية العذبة .

وكان الإيرانيون في أول أمرهم قوما من الرعاة البدائيين تقوم حياتهم على ما يملكون من خيل وماشية وضان وماعز . وكان موطنهم الأصلي أواسط آسيا ثم نزحوا إلى موطنهم الحالي حوالي سنة ٢٠٠٠ق.م. وانقسموا بعد نزوحهم من أواسط آسيا إلى فرعين رئيسيين وهما الميديون الذين استقروا في غرب إيران ، والفرس الذين استقروا في فارس.وكون الميديون أمبراطورية ميديا العظيمة التي بلغت ذروة قوتها في القرن السابع قبل الميلاد . وكانت عاصمة هذه الدولة Hagmatana أو Ecbatana التي تسمى اليوم همدان . وظل هذا الانفصال بين الإيرانيين قائما حتى ظهر قورش الأكبر في فارس وشق عصا الطاعة على ملك ميديا واستولى على مملكته . وقضى بذلك على الدولة الميدية لينشىء دولته الجديدة الدولة الاكمينية . وكان لهذه الدولة من الأهمية والمكانة ما جعل أنظار اليونان تتركز في مقاطعة فارس وحدها (التي نشأت فيها هذه الدولة) دون سائر بلاد إيران حتى أطلقوا اسم المقاطعة على البلاد كلها وسموها « Persis » .

وقد حكم قوروش الأكبر هذا من ٥٥٨ — ٥٣٠ ق. م. وترجع أهمية قورش بصفة خاصة إلى أنه قضى على هذا الانقسام بين الإيرانيين ووحد صفوفهم وجعل منهم شعبا متحدا مستقلا في ظل دولته الجديدة الموحدة . ولما تمت له هذه الوحدة الداخلية اتجه إلى الغزو الخارجي فاستولى على مملكة ليديا في آسيا الصغرى في ٥٤٦ . وبابل في ٥٣٨ق.م ومد فتوحه شرقا حتى وصل إلى بلخ .

ثم خلفه ابنه قمبيز الذي زاد في سعة الأمبراطورية التي خلفها له أبوه . وضم إليها مصر في الغرب . وبينما كان في مصر بلغته أنباء عن بعض الثورات التي قامت في بلاده فأسرع عائدا إليها لكنه توفي في الطريق سنة ٥٢١ ق. م. .

ويعتبر دارا الأكبر (٥٢١ — ٤٨٥ ق. م) أعظم ملوك هذه الدولة . وقد استطاع دارا في سنة واحدة سنة ٥١٢ ق. م. أن يمد دولته شرقا إلى البنجاب وغربا إلى الدانوب فشملت بذلك كثيرا من بلاد العالم المتحضرة في ذلك الوقت مثل أشوريا ، بابل ، مصر . واستطاعت قواته أن تكتشف الطريق البحري من دلتا نهر السند إلى السويس .

ومنذ ارتقى دارا العرش في سنة ٥٢١ ق. م حتى وفاته سنة ٤٨٥ ق. م. وهو مشغول على الدوام بالحروب والفتوح سواء أكانت حروبا خارجية أو محلية لقمع الفتن والثورات . ومن أهم حروبه الخارجية غزوته لبلاد اليونان في ٤٩٠ ق. م. ولكنه مني بالهزيمة على يد اليونان في موقعة مراتون . ولعهد دارا أهمية أخرى في الميدان الأدبي إذ يمكن أن يقال إن الأدب الفارسي بدأ في عهده ، فقد ترك كثيرا من النقوش التي سجل فيها حروبه وانتصاراته . ومن أهم نقوشه

تلك التي سجلها على صخرة بهستون أو بيستون وتقع على بعد ثلاثين ميلا شرقي كرمانشاه . وفي هذا النقش يسجل دارا حروبه وانتصاراته منذ تولى العرش . ويصرح فيه بأن الفضل فيما أحرزه من نصر يرجع إلى الإله العظيم أهورا مزدا . ويدعو دارا بالرحمة والمغفرة لكل من يرعى هذا النقش ويذيع ما فيه من حقائق كما يدعو باللعنة على كل من يحاول أن يخفي هذه الحقائق المنقوشة أو يطمسها .

وكما غزا دارا بلاد اليونان غزاها ابنه من بعده أكزركسس Xerx واستولى على أثينا إلا أنه هزم نهائيا في موقعتي سلاميس وبلاتيا .

وإذا تركنا المصادر اليونانية إلى المصادر الفارسية وجدنا أن هذه الدولة تسمى الكيانية وملوكها هم الكيانيون . وإنما سموا بذلك لأن أسماءهم تبدأ بلفظ كي وهي عندهم لقب بمعنى ملك . وملوك هذه الدولة في الشاهنامه تسعة نذكرهم فيما يأتي . —

١ — كيقباد	حكم	مائة سنة
٢ — كيكاوس	»	مائة وخمسين سنة
٣ — كيخسرو	»	ستين سنة
٤ — لهراسب	»	مائة وعشرين سنة
٥ — گشتاسب	»	مائة وعشرين سنة
٦ — بهمن اسفنديار	»	تسعا وتسعين سنة
٧ — هماي	»	اثنتين وثلاثين سنة
٨ — داراب بن بهمن بن أسفنديار	»	اثنتي عشرة سنة
٩ — داراب بن داراب	»	أربع عشرة سنة

ومجموع سني حكمهم — في الشاهنامه — سبعمائة وسبع سنوات .

ويلاحظ أن الأساطير تسود تاريخ هذه الدولة في المصادر الفارسية كما يتبين من مدة حكم ملوكهم، وكلما اقتربنا من نهاية هذه الدولة غلبت الحقائق التاريخية وبدأت تتلاقى مع ما هو وارد في المصادر اليونانية.

ومن أشهر ملوك هذه الدولة في المصادر الفارسية كيكاوس الذي قهر بلاد مازندران وهاماوران (حمير) بفضل قائده البطل الأسطوري رستم، وكيخسرو الذي كان له حروب طويلة مع التورانيين واستطاع في النهاية أن يقتل بطلهم أفراسياب ويستريح من شرهم، وگشتاسب الذي ظهر في عهده زرداشت ودعاه إلى دينه الجديد فآمن به واعتنقه وأصبحت الزردشتية بذلك الديانة الرسمية للدولة.

وداراب بن بهمن هو دارا الأكبر الذي تحدثنا عنه فيما سبق. وفي عهد ابنه داراب بن داراب أو دارا بن دارا الذي كان يلقب نفسه في كتبه بالمضيء لأهل مملكته كالشمس [1] وقعت الواقعة بينه وبين الاسكندر. وكان دارا كفوا للاسكندر في الحرب والقتال. ولما عجز الاسكندر عن أن يهزمه بعد أن واقعه كثيرا من الوقائع لجأ أخيرا إلى سلاح الغدر فأغوى رجلين من خاصة دارا ففتكا به وهو يستعد لملاقاة الاسكندر في بعض وقائعه معه. وبهذا استطاع الاسكندر أن يقضي على جموع الفرس وأن يستولي على بلادهم.

وعلى العموم كانت الدولة الأكمينية دولة عظيمة، وكان ملوكها من الغزاة العظام والحكام الأكفاء. وعمرت أمبراطوريتهم هذه ٢٢٠ سنة حتى قوض الإسكندر دعائمها بغزوه لبلاد الفرس.

ولم يكن عهد الإسكندر من العهود الزاهرة في تاريخ إيران لأنه قوض دعائم ملكهم، وهز كيان دينهم، وطغى بلغته وثقافته على

(١) الأخبار الطوال ص ٣٣ ط السعادة بمصر ١٣٣٠.

لغتهم . وكان عهد الإسكندر من هذه النواحي الثقافية ذا أثر بعيد على الإيرانيين . وكان الإسكندر يشجع جنده على الزواج من الفارسيات . وتزوج هو نفسه روكسانا Roxana ابنة أحد أمراء الصغد [1] . وأنشأ في إيران مدنا عديدة كانت أشبه بمستعمرات يونانية . وسرعان ما أصبحت هذه المدن أو المستعمرات مراكز تنتشر منها الثقافة اليونانية إلى كل مكان .

وقد تابع خلفاء الأسكندر . السلوقيون . سياسته في صبغ البلاد بالصبغة اليونانية ، وراجت في إيران اللغة والعلوم اليونانية ، وازدهرت فيها مدارس الفلسفة والحكمة والطب اليوناني .

وقضى على السلوقيين البارث Parthians نسبة إلى موطنهم الأصلي مقاطعة Parthia التي عرفت فيما بعد باسم خراسان . ويعتقد أن هؤلاء البارث [2] من أصل توراني . وقد سيطروا على إيران مدة خمسة قرون (٢٥٠ ق. م — ٢٢٦ م) . ولم يكن لهذه الحقبة التي سيطر فيها البارث على إيران أثر مهم في حياة الإيرانيين . وكل ما يذكر لهم أنهم قاوموا النفوذ الروماني ثلاثمائة سنة ، وبددوا أحلام كبار القواد الرومان أمثال بومبي ، أنتوني ، يوليوس قيصر ، تراجان الذين كانوا يحلمون بغزو الفرس كما فعل الإسكندر .

وكان ملوك البارث من المعجبين بثقافة اليونان وكان معظم ملوكهم يجيد اللغة اليونانية . ومن الأمور التي تستوجب العناية في هذا العهد ظهور اللغة الفارسية الوسطى أو اللغة البهلوية [3] .

---

(١) في الأخبار الطوال ص ٣٤ أنه تزوج روشنك ابنة دارا .

(٢) يسمون أيضاً الأشكانيين

(٣) يرى البعض أن اللغة الرسمية في الدولة الاشكانية (البرثية) كانت اليونانية .

وكان سقوط الدولة البارثية مشجعا على ظهور حركة فارسية وطنية ضد النفوذ الغربي . واتخذ هذا الاتجاه الوطني الجديد مظهره العملي في سنة ٢٢٦ م عندما قامت الدولة الساسانية . وللمرة الثانية نجد أن مقاطعة پارس أو فارس « Persis » تحتضن دولة فارسية عظيمة هي الدولة الساسانية نسبة إلى ساسان جد أردشير الذي يعتبر مؤسس هذه الدولة بعد هزيمة البارث في ٢٢٦ . ويمتد عهد الدولة الساسانية الجديدة من هذا التاريخ حتى سنة ٦٤٠ م . وفيما يأتي بيان ملوك الدولة ومدة حكم كل منهم . —

١ — أردشير بن بابك	(أردشير الأول)	٢٢٦ م
٢ — شابور بن أردشير	(الأول)	٢٤١ م
٣ — هرمزد بن شابور	(الأول)	٢٧٢ م
٤ — بهرام بن هرمزد	(الاول)	٢٧٣ م
٥ — بهرام بن بهرام بن هرمز	(الثاني)	٢٧٦ م
٦ — بهرام بهراميان (بن بهرام بن بهرام)	(الثالث)	٢٩٣ م
٧ — نرسي بن بهرام		٢٩٣ م
٨ — هرمز بن نرسي	(الثاني)	٣٠٢ م
٩ — سابور بن هرمز بن نرسي	(الثاني)	٣٠٩ م
١٠ — سابور بن هرمز بن نرسي المعروف بسابور ذي الأكتاف	(الثاني)	٣٠٩ م
١٠ — أردشير الملقب بالمحسن (نيكوكار) أخو سابور	(الثاني)	٣٧٩ م

ويرى بعضهم أنها كانت مزيجاً من اليونانية والايرانية . وأرجح الآراء أنها كانت البهلوية . ومن بين ما يستند اليه أصحاب هذا الرأي الأخير كلمة بهلوى نفسها فهم يرون أن أصلها پرتوي نسبة إلى البارث ثم حرفت فصارت پلهوى ثم أصابها تبديل فأصبحت بهلوي .

١١ - سابور بن سابور ذي الأكتاف	(الثالث)	٣٨٣ م
١٢ — بهرام بن سابور بن سابور	(الرابع)	٣٨٨ م
١٣ — يزدجرد بن سابور بن سابور ذي الأكتاف	(الأول)	٣٩٩ م
١٤ — بهرام جور بن يزدجرد	(الخامس)	٤٢٠ م
١٥ — يزدجرد بن بهرام جور	(الثاني)	٤٣٨ م
١٦ — هرمز بن يزدجرد	(الثالث)	٤٥٧ م
١٧ — فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور		٤٥٩ م
١٨ — بلاش بن فيروز		٤٨٣ م
١٩ — قباد بن فيروز	(الأول)	٤٨٨ م
٢٠ — كسرى أنو شروان بن قباد بن فيروز	(الأول)	٥٣١ م
٢١ — هرمزد بن كسرى أنو شروان	(الرابع)	٥٧٨ م
٢٢ — كسرى پرويز بن هرمز بن كسرى أنوشروان	(الثاني)	٥٩٠ م
٢٣ — قباد بن پرويز بن هرمز بن كسرى أنوشروان	(الثاني)	٦٢٨ م
٢٤ — أردشير بن شيرويه بن پرويز	حكم ستة أشهر	
٢٥ — فرائين جراز	« خمسين يوما	
٢٦ — بوران دخت بنت كسرى پرويز	حكمت ستة أشهر	
٢٧ — آزرم دخت بنت كسرى پرويز	حكمت أربعة أشهر	
٢٨ — فرخزاد	حكم شهراً واحداً	
٢٩ — يزدجرد بن شهريار بن كسرى پرويز	(الثالث)	٦٣٢ م[1]

وإذا كانت الدولة الساسانية لم تبلغ من مساحة الرقعة ما بلغته الأمبراطورية الأكمينية إلا أن عهدها أزهر العهود التي مرت بالإيرانيين.

(١) راجع الشاهنامه ، ودراسات في الشاهنامة للمؤلف ، Legucy of Persia ص ٢٩١ وما بعدها وقارن التواريخ ومدة حكم كل ملك من هؤلاء الملوك .

فصول — ٢

وأشهر ملوك هذه الدولة أردشير الذي تغلب على أردوان آخر ملوك الطوائف وأسس الدولة، وسابور ذو الأكتاف، ووقائعه مع العرب كثيرة، وقسوته في معاملة أسراهم مشهورة، وفي عهد قباد ظهر مزدك بديانته الجديدة، وأغرى الملك باعتناقها، وشاع أمر هذه الديانة الجديدة بين الناس مما أثر على ديانة الدولة الرسمية الزردشتية. واستطاع الموابذة أن يصرفوا قباد عن تأييد هذا الدين الجديد، ونجحوا في إثارته ضده حتى وكل لابنه مهمة القضاء على مزدك وأتباعه. وعاد الناس بذلك إلى دينهم. وفي عهد كسرى أنو شروان ارتفع شأن الدولة ارتفاعا عظيما في كافة النواحي. ويمثل بلاط پرويز ذروة ما وصل إليه الترف والحضارة في عهد ملوك الفرس.

وعلى العموم كان للساسانيين في ميدان الحروب مواهب عظيمة ولكن الذي خلد ذكرهم علو شأنهم في نواحي الحضارة المختلفة.

ويعد كسرى پرويز أو كسرى الثاني ٥٩٠ – ٦٢٨ م آخر الملوك العظام في هذه الدولة إذ قام بأعباء الملك بعده من لا يقوون على حملها. ولما اختفت الكفايات بين الملوك تولى العرش النساء فكان هذا دليلا على قرب انهيار الدولة. وإلى جانب عجز هؤلاء المتأخرين من الملوك ساعدت كثرة الحروب مع الروم وغيرهم على هذا الانهيار الذي حدث في سنة ٦٥١ م على يد الغزاة العرب.

وكان للغزو العربي في بلاد إيران آثار مهمة. فقد حمل الغزاة العرب معهم نظاما اجتماعيا جديدا، ودينا جديدا، وثقافة جديدة. وقد قبل الشعب الإيراني عن طيب خاطر النظام الاجتماعي الجديد. واعتنق الدين الإسلامي. وأقبل على الثقافة العربية. وهكذا بدأ الفرس يمتزجون بالعرب في ظل الإسلام.

٢ ــ صلات قبل الاسلام

ولكن لا ينبغي أن نفهم من هذا أن كلا من الفرس والعرب كان في عزلة عن الآخر قبل الإسلام .

وربما كانت أقدم الإشارات التي بقيت لنا في النصوص عن الصلة بين الفرس والعرب ما زعمه العرب وجاراهم فيه الفرس عن انتساب الضحاك إليهم . أما العرب فقد أعجبهم ما كان عليه الضحاك من القوة والبطش والجبروت، ففخروا به، ونسبوه إليهم، وزعموا أنه الضحاك بن علوان بن عمليق بن عاد، وأنه حارب الملك جمشيد في أرض بابل حتى ظفر به واستولى على ملكه ثم قتله [1] . أما الفرس فقد ساءهم ما كان عليه الضحاك من الظلم والاستبداد وقتل الأبرياء ؛ فأرادوا أن يطهروا تاريخهم منه، فجعلوه عربيا، واعتبروه دخيلا على بلادهم وتاريخهم . وهكذا تنظر إليه الشاهنامه حتى إنها لا تفيض في تاريخه وحوادثه بما يتناسب مع مدة حكمه التي زعمت أنها ألف سنة . وفي الفخر بالضحاك ونسبته إلى العرب يقول أبو نواس في القصيدة التي هجا فيها عدنان وافتخر بقحطان .

ليست بــدار عفت وغيرها ضربان من قطرها وحاصبها
ولا لأي الطلول أندبهــا للريح والرقش من قرانبها
ولا نطيل البكاء إذا شطت النيــــة .واستعبرت لذاهبها
بل نحن أرباب ناعط ولنا صنعــاء والمسك من محاربها

(١) الأخبار الطوال – ص د ط السعادة بمصر .

وكـــان منا الضحاك يعبده السخائـــل والوحش في مساربها [1]
الخ ...

وفي هذه القصيدة يوازن بين العدنانيين في شظف عيشهم ، وضعة مساكنهم ، وسذاجة عاداتهم ، وبين القحطانيين في حضارتهم وقصورهم ومدنهم ، ويفخر بأن الضحاك كان منهم . ويتحدث عن الضحاك معتدا بقوته وبطشه حتى عبدته الوحش في مساربها . وهكذا ترى أن العرب أكبروا في الضحاك القوة والبطش فنسبوه إليهم بينما كره منه الفرس الظلم والجور فنفوه عنهم ،وحاولوا أن يحرروا تاريخهم منه . والضحاك هذا أحد الملوك في الدولة البيشدادية أولى دول الفرس . وتاريخ هذه الدولة أسطوري ولذا نجد أن معظـــم المصادر الإفرنجية والعربية تحاول أن تغفل تاريخ هذه الدولة إذ لا تمت أساطيرها بصلة إلى التاريخ الصحيح . ولهذا ترى مثلا أن ابن الأثير في حديثه عن أخبار الملك جمشيد أحد ملوك هذه الدولة يقول « قد أتينا به تاما بعد أن كنا عازمين على تركه لما فيه من الأشياء التي تمجهـــا الأسماع ، وتأباها العقول والطباع فإنها من خرافات الفرس مع أشياء أخرى قد تقدمت قبلها ، وإنما ذكرناها ليعلم جهل الفرس فإنهم كثيرا ما يشنعون على العرب بجهلهم [2] ». وينظر البيروني إلى أخبار هذه الدولة وأساطيرها بنظرة ابن الأثير ويعتبرها مما تمجه الآذان ولا تقبله العقول [3] . وكان موسى الخوريني Moise de Khorene ينظر إلى أقاصيص الفرس في هذا العهد نظرة احتقار منعته من الإسهاب في

---

(١) ديوان ابي نواس
(٢) تاريخ ابن الأثير : ١ / ٢٩
(٣) الآثار الباقية : ص ١٠٠

الحديث عنها [1] . ولكن المصادر الفارسية ومن بينها الشاهنامه تهتم بالحديث المفصل عن هذا العهد . وهي لا تنظر إليه النظرة العلمية السابقة لأنه عندها عهد قومي وطني يصور بأساطيره وخرافاته الروح الفارسية ويعبر في حوادثه الخارقة عن نفسية الشعب الفارسي الذي يتطلع إلى السيادة والمجد . فهذا العهد في خرافاته وأساطيره يعبر عن روح الشعب الفارسي ونزعاته القومية . وليست المسألة إذن عند بعض المؤلفين الفرس حقائق علمية، ولكنها تراث قومي يجب أن يخلد .

وكان ترتيب الضحاك بين ملوك هذه الدولة الخامس وقد ارتقى العرش بعد أن تغلب على الملك جمشيد . ودامت مدة حكمه ألف سنة . وتذكره المصادر الفارسية بالسوء لطغيانه وقسوته وإفراطه في تقتيل الناس .

ويلاحظ أن هذا الاضطراب في أمر الضحاك وتردده في الانتساب بين العرب والفرس راجع إلى خلط الأساطير السامية بالفارسية .ويذكر الدكتور عزام في مقدمته للشاهنامه عن هذا الخلط أن الكتب العربية والفارسية فيها كثير من لبس تاريخ الإيرانيين وأساطيرهم بأساطير الساميين وتاريخهم كالذي يروي في نسب آدم وأبنائه . ونسب جيومرث أبي البشر عند الفرس وأبنائه ، وكما يرى من الشبه بين نوح وأولاده وأفريدون وأبنائه ، وكما يروى أن ابراهيم هو زردشت وأن الأبستاق هي صحف ابراهيم ، وان صخرا الجنى الذي سرق خاتم سليمان هو الضحاك المحبوس في نهاوند . وأمثال هذا كثير في الكتب العربية كالطبري . وكتاب البلدان للهمداني ، ومروج الذهب . وفي الكتب الفارسية

---

(١) J. Mohl : Livre des Rois, preface, p. V, Paris 1838.

كفارس نامه . ويظن الدكتور عزام أن هذه الروايات نشأت بعد الإسلام [1] .

ثم تتجدد العلاقة بين العرب والفرس أيام أفريدون الذي خلف الضحاك في الملك . وتروي الشاهنامه وغيرها من كتب التاريخ أن أفريدون أراد أن يزوج أولاده فظل يبحث لهم عمن يلقن بهم من النساء حتى اهتدى في النهاية إلى ملك اليمن، وكان له ثلاث بنات، فخطبهن لأولاده [2] . وأصبح العرب والفرس أصهارا بهذا الزواج .

وتقوى الصلات بين العرب والفرس في عهد الدولة الساسانية . ومن حوادث العرب مع الفرس في هذا العهد أن الضيزن أغار على الفرس، ونكل بهم، وأصاب في إغارته أختا لسابور بن أردشير (٢٤١ — ٢٧٢ م) ولما توجه سابور للانتقام منهم عجز عن اقتحام الحضر مقر الضيزن ومن معه ، ووقف يحاصره زمنا حتى رأته النضيرة بنت الضيزن فعشقته ودلته على الطريقة التي يدخل بها الحضر . وبهذا استطاع سابور أن يقضي على الضيزن ومن كان معه من أهله وأتباعه ، ثم تزوج النضيرة وبات معها ليلة واحدة قتلها بعدها لأنه لم يأمن جانب امرأة باعت أباها وأهلها .

وعندما تولى أمر الفرس في عهد الدولة الساسانية سابور الثاني أو سابور بن هرمز المعروف بسابور ذي الأكتاف (٣٠٩—٣٧٩م) كان صبيا صغيرا ، فطمع العرب في مملكته ، وتدفقت جموعهم إلى بلاده يغيرون ويسلبون . ولم يلق العرب أمامهم مقاومة تذكر لصغر سن الملك وقتذاك ، ولكنه لما كبر عزم على أن ينتقم منهم أشد انتقام . ونفذ ما

---

(١) مقدمة الدكتور عزام : ص ٨٧

(٢) الشاهنامه : ص ٦٥ ج ١ ط بروخيم . تهران .

عزم عليه حتى أنه كان يخلع أكتاف من يقع في قبضته من أسرى العرب . ومن هنا سموه ذا الأكتاف . ومع ما كان يمتلىء به قلب سابور من كراهة العرب، فإنه كان كعادة ملوك الفرس يستخدم منهم في بلاطه كتابا ومترجمين ومستشارين له في الشئون العربية . ومن بين كتابه العرب لقيط بن يعمر الإيادي ، وهو شاعر جاهلي من أهل الحيرة تعلم الفارسية وأجادها .

ومن الصلات المعروفة في التاريخ بين الفرس والعرب تلك التي كانت بين ملوك الفرس وأمراء الحيرة . وتاريخ إمارة الحيرة في الحقيقة قديم يرجع إلى عهد ملوك الطوائف (البارت) وقد مر ذكرهم . ويذكر اليعقوبي في تاريخه عن مبدأ ملك الحيرة أن أهل اليمن لما تفرقوا قدم مالك بن فهم بن غنم بن دوس أرض العراق في أيام ملــوك الطوائف ، فأصاب قوما من العرب من معد وغيرهم بالجزيرة فملكوه عشرين سنة [1] . ويروي الدينوري أن اللخميين نزلوا إقليم الحيرة وكونوا إمارتهم بها على عهد سابور ذي الأكتاف (٣٠٩ — ٣٧٩ م) أو عهد ابنه يزدجرد بن سابور (٣٩٩ — ٤٢٠ م) إذ كان ربيعة بن نصر اللخمي بعد أن ملك اليمن واستتب له أمرها قد رأى رؤيـــا أفزعته . فبعث إلى كهنته لتفسيرها . فأخبروه بما سيكون من غلبة السودان على أرض اليمن ، وغلبة الفرس عليها من بعدهم . فلما سمع ذلك أخرج ولده وأهله من أرض اليمن ووجه ابنه عمرا اللخمي إلى ملك الفرس الذي أنزله وأخوته وأهله الحيرة . وكان ذلك مبدأ استقرار اللخميين في الحيرة ، واتصالهم بملوك الفرس ، وتكوين إمارتهم [2] .

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ص ١ / ٢٣٦ .

(٢) الأخبار الطوال : ص ٥٥

ويمكن التوفيق بين هذين القولين بأن العرب وإن كونوا إمارتهم في الحيرة منذ عهد ملوك الطوائف كما يقول اليعقوبي إلا أن هذه الإمارة لم تكسب تأييد الفرس الرسمي لها إلا فيما بعد كما يذكر الدينوري .

وعهد يزدجرد الأول بن سابور ذي الأكتاف (٣٩٩ — ٤٢٠ م) بابنه بهرام جور إلى عامله على الحيرة النعمان بن امرىء القيس [١] ليقوم على تربيته في جو الجزيرة الصحي وليعلمه الفروسية . وقد أجاد بهرام بحكم إقامته في هذه البيئة اللغة العربية حتى كان ينظم الشعر العربي . ويروى أنه لما ارتقى العرش وكان في ميعة الصبا عرض عليه جماعة من أقربائه أن يتزوج فأنشد في هذا المعنى بالعربية . —

يرومون تزويجي من الكفو طلبا ... وما لي من جنس الملوك عديل
أرى أن مثلي كالمحـــال وجوده ... وليس إلى نيل المحال سبيل [٢]

ومن أشعاره العربية كذلك ما قاله يوم ظفره بخاقان وقتله له . —

فقلت له لمـــا نظرت جنـــوده ... كأنك لم تسمع بصولات بهرام
فإني لحامي ملك فارس كلها ... وما خير ملك لا يكون له حامي [٣]

ومن أجل بهرام جور بني النعمان الأكبر قصره المعروف بالخورنق ليقيم فيه الأمير الفارسي .

ولما توفي يزدجرد كان ابنه بهرام جور مقيما بالحيرة ، وانتهز

(١) ليس صحيحاً ما تذكره بعض المصادر من أنه النعمان بن المنذر ، والصواب أنه النعمان بن امرىء القيس بن عمرو بن عدى . ويقال له النعمان الأول أو الأكبر ، وقد حكم ثمانيا وعشرين سنة عاصر فيها من ملوك الفرس يزد جرد الأول (٣٩٩ — ٤٢٠ م) ، وابنه بهرام جور أو بهرام الخامس (٤٢٠ — ٤٣٨ م) .

(٢) لباب الالباب : ص ١ / ٢٠

(٣) نفس المصدر السابق ومروج الذهب ص ١٦٢ ج ١ ط البهية المصرية .

أعيان المملكة وكبار رجالها هذه الفرصة وأرادوا أن يتخلصوا من ذرية يزدجرد لما نال الناس على يديه من الأذى والظلم حتى سموه يزدجرد الأثيم ، فملكوا عليهم رجلا من سلالة أردشير بن بابك يقال له خسرو . ولما بلغ بهرام هذا الخبر خرج يطالب بملكه بمعونة النعمان وتأييده حتى استرده . ولم ينس بهرام ، وقد أصبح الملك ، فضل النعمان في تربيته وصنيعه معه وتأييده له فأكرمه غاية الأكرام ورده إلى الحيرة بعد أن فوض إليه أمر العرب .

ومن الشخصيات التي لمعت في بلاط الفرس لقيط الإيادي . وهو شاعر جاهلي من أهل الحيرة تعلم الفارسية وأجادها ، واشتغل بالترجمة والكتابة لكسرى سابور ذي الأكتاف . وكان بحكم عمله من المطلعين على أسرار الدولة . وهو من إياد . ويذكر اليعقوبي عن إياد أنها كانت تقيم في الحيرة ومنازلهم الخورنق والسدير وبارق ، ثم أجلاهم كسرى عن ديارهم حتى نزلوا تكريت على شط دجلة ، ثم عاد فأخرجهم من تكريت إلى بلاد الروم . وكان رئيسهم وقنذاك كعب ابن مامة [1] . ولما بلغ لقيطا ما عزم عليه كسرى من نفي إياد عن تكريت كتب إليهم منبها : —

سلام في الصحيفة من لقيط ... إلى من بالجزيرة من إياد
بأن الليث كسرى قد أتاكم ... فلا يشغلكم سوق النقاد
أتاكم منهم سبعون ألفا ... يزجون الكتائب كالجراد

ولكن قومه لم يلتفوا إلى قوله ، فبعث إليهم قصيدة مطولة تعد من عيون الشعر العربي مطلعها « يا دار عمرة من محتلها الجرعا» [2]

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢٥٨/١

(٢) راجع شرح القصيدة في رغبة الآمل للمرصفي : ٩٩/٥

يحذرهم من الخطر الذي يهددهم ، ويصف لهم عدوهم ، وينصحهم بإعداد العدة للقائه ، ويثير فيهم الحمية والحماسة ، ويدعوهم أن يتخذوا لهم زعيما وقائدا يقودهم إلى بر النجاة . ويصف لهم ما ينبغي أن يكون عليه هذا الزعيم من الخصال فيقول : —

وقلدوا أمركم لله دركـــم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به خشعا
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه هم يكاد شباه يقصم الضلعـــا
مسهد النوم تعنيـــه أموركـــم يروم منها إلى الأعداء مطلعا
ما انفك يحلب هذا الدهر أشطره يكون متبعا طورا ومتبعـــــا
حتى استمرت على شزر مريرته مستحكم الرأي لاقحما ولا ضرعا
وليس يشغلـــه مـــال يثمره عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

وقيمة هذا الوصف فوق جمال معناه ، وجزالة عبارته أنه يبقى على الزمان لأنه يضع المعيار والمقياس لمن يتولى قيادة الشعوب في كل زمان ومكان . ويختم الشاعر قصيدته بهذه الأبيات الحاسمة : —

لقد بذلت لكم نصحي بلا دخل فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا
هذا كتابي إليكم والنذير لكـــم لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا

ومن سوء حظ لقيط أن قصيدته وقعت في يد كسرى فكان عقابه عنده أن قطع لسانه ثم قتله . ويذكر ابن عبد ربه [1] أن قصيدة لقيط قيلت يوم ذي قار مخالفا بذلك المصادر التاريخية . وكانت وقعة ذي قار حوالي ٦٠٤ — ٦١٠ م أي في عهد كسرى الثاني أو كسرى برويز

---

(١) العقد الفريد : ٢٦٨/٥ ط . لجنة التأليف

بينما عاش لقيط معاصرا لسابور الثالث أو سابور ذي الأكتاف حوالي ٣٨٣ م . وهو فرق زمني بعيد لا يسوغ هذا الخلط .

ومنهم أيضا عدي بن زيد . وكان عدي فصيحا من شعراء الجاهلية يقيم أهله بالحيرة ويدينون بالنصرانية . ولا يعده صاحب الأغاني من فحول الشعراء [1] . وقضى أبوه ، زيد ، فترة طفولته مع أولاد أحد المرازبة (فرخ ماهان) فتعلم الفارسية وزكاه المرزبان عند كسرى بعد أن شب ، فجعله على بريده ثم عاملا له على الحيرة . وأما ابنه عدي فإنه إلى إجادته العربية أجاد كأبيه الفارسية ، وجمع إلى فصاحته في اللغتين المهارة في الرمي بالنشاب واللعب بالصوالجه. وكان إلى جانب هذا كله حسن الوجه ، مديد القامة ، حلو العينين ، حسن المبسم ، نقي الثغر [2] ، مما مهد له السبيل إلى ديوان كسرى حتى كان أول من كتب في ديوانه بالعربية . وأحب عدي هند بنت النعمان بن المنذر وتزوجها ولكن الوشاة أوغروا صدر النعمان عليه . وكان من عادة عدي أن يتردد بين حين وآخر على أهله في الحيرة فدعاه النعمان إلى زيارته وحبسه . وحاول عدي ، دون جدوى ، أن يستميل إليه قلب النعمان بكثير من القصائد التي بعثها إليه من محبسه . واستطاع أخيرا أن ينفذ إلى كسرى من يخبره بحاله عند النعمان فأرسل كسرى رسولا يأمره فيه أن يخلي سبيله ، ولكن النعمان تواطأ مع الرسول وقتل عديا وادعى أنه مات قبل وصول الرسول إليه . وترهبت هند بعد مقتل زوجها. ويقال إنها حبست نفسها في الدير المعروف بدير هند[3] في

---

(١) الأغاني : ٩٧/٢ ط . دار الكتب

(٢) نفس المصدر السابق : ١٣٠

(٣) دير هند الصغرى بالحيرة وهو دير هند صغرى بنت النعمان بن المنذر . وفي

ظاهر الحيرة . وعاشت بعد الإسلام حتّى توفيت على عهد معاوية .

ويبدو أن النعمان قد راجع نفسه فيما فعل ، وندم على ما فرط منه ، وأراد أن يكفر عن فعلته فرشح زيد بن عدي بن زيد للعمل بديوان كسرى مكان أبيه . ولم يلبث حتّى ارتفع شأنه في البلاط واستطاع في قصة طويلة ترويها كتب التاريخ والأدب أن يوغر صدر كسرى عليه حتّى استدعاه إليه وقتله . وكسرى هذا هو كسرى پرويز أو أبرويز كما يرد ذكره أحيانا في المصادر العربية . ولما قتل النعمان استعمل كسرى بعده على الحيرة إياس بن قبيصه الطائي وكلفه أن يجمع ما خلفه النعمان ويرسله إليه ، ولكن هانيء بن مسعود سيد بني شيبان رفض أن يرد ودائع النعمان، فأرسل إليه كسرى جيشا كثيفا لقيه العرب عند ذي قار . ودارت بين الفريقين المعركة التي انتهت بانتصار العرب وتعرف في تواريخهم بيوم ذي قار . وقد ذكر أن النبي ﷺ لما بلغه هذا النصر قال « هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي نصروا [1] ». وكسرى پرويز هذا هو الذي دعاه النبي إلى

معجم البلدان رواية أخرى تذكر أن كسرى قد غضب على النعمان بن المنذر فحبسه فاعطت بنته هند عهداً لله ان رده الله إلى ملكه أن تبني ديراً تسكنه حتى تموت . ولما فتح خالد بن الوليد الحيرة عرض عليها أن تسلم ويزوجها أحد الأشراف المسلمين فرفضت كليهما . وقد حاول المغيرة بن شعبة أن يستميلها اليه فأعرضت عنه. وقد أكثر الشعراء من ذكر هذا الدير . فمن ذلك قول معن بن زائدة الشيباني وكان منزله قريباً منه . —

ألا ليت شعري هـل أبيتن ليلـة … لدى دير هند والحبيب قريب
فنقضي لبانـات ونلقي أحبـة … ويورق غصن السرور رطيـب

وهناك دير هند الكبرى وهو أيضاً بالحيرة بنته هند أم عمرو بن هند وهي هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي .

(١) ابن الأثير : ١ / ١٩٥

الإسلام في السنة السابعة والثلاثين من ملكه [1] ، وقابل هذه الدعوة المحمدية بمنتهى الغطرسة إذ عجب من جرأة محمد قائلا : كيف يقدم اسمه على اسمي في كتابه [2] ، ومزق الكتاب فدعا عليه النبي : مزق الله ملكه كما مزق كتابي . ويقول حمد الله المستوفي إنه بسبب هذا الدعاء عليه اضطرب ملكه بعد ذلك وخرج عليه ابنه شيرويه وقتله [3]

* * *

وإذا تركنا الحيرة وجدنا أن نفوذ الفرس كان يمتد إلى أنحـاء أخرى من شبه الجزيرة العربية كبلاد اليمن . وفي عهد ذي نواس وهو زرعة بن زيد بن كعب قامت فتنة دينية كبيرة في بلاد اليمن إذ أغراه اليهود فتهود ، وفرض على أهل اليمن اليهودية . ومن أبى كان نصيبه القتل . وقد لقي النصارى منه اضطهادا عظيما لرفضهم التهود . فقتل زعيمهم في نجران عبدالله بن الثامر وخد للباقين أخاديد فأحرقهم فيها وهم أصحاب الأخدود الذين يعنيهم القرآن . ولما علم ملك الروم بما يلقى أهل دينه من القتل، وهدم البيع ، وإحراق الأناجيل كتب إلى النجاشي ملك الحبشة يدعوه إلى التدخل لحماية النصارى ، فجاء الجنود الأحباش بقيادة أرياط وقتلوا ذا نواس واستولوا على عاصمة ملكه ذمار (صنعاء) . ولم يعدل أرياط بين جنوده فثاروا عليه وقتلوه ، وولوا مكانه أبرهة . وأقام أبرهة بصنعاء يحكم اليمن أربعين عاما . وانتهى أمره إلى التجبر والجور فبنى بصنعاء بيعة وطلب من العرب جميعا أن يحجوا إليها ، فضجرت العرب منه، وعم التذمر مما أثاره وحفزه للمسير إلى مكة ليهدم الكعبة ويؤدب العرب . ولكن الله دحره ومن معه من

(١) مدة ملكه ثمان وثلاثون سنة .

(٢) فارس نامه : ص ١٠٦ ط ليسترانج ونيكلسون .

(٣) تاريخ كزيده : ص ١٢١ ط براون

الأحباش وأهلكهم . وجاء بعد أبرهة في حكم اليمن ابنه يكسوم ، ولم تكن سيرته أحسن من سيرة أبيه . وظل يحكم تسع عشرة سنة إلى أن مات فخلفه أخوه مسروق وكان شرا منه .

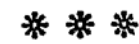
ولما طال الأمر على أهل اليمن خرج من بينهم سيف بن ذي يزن الحميري ، وكان من ولد ذي نواس ، وقصد إلى قيصر الروم يستعين به على رد الأحباش عن بلاده . ولكن ملك الروم رفض مساعدته ضد الأحباش الذين كانوا على دين الروم بينما كان أهل اليمن عبدة أوثان ، فاتجه سيف إلى كسرى الذي أيده بجيش كثيف من عنده بقيادة وهرز . وفي الحرب التي دارت بين وهرز وبين مسروق انتهى الأمر بقتل هذا الأخير ودخول الجيش الفارسي ظافرا . وأعمل وهرز السيف في رقاب الأحباش ، وعاد بعد أن ملك على البلاد سيف بن ذي يزن . ويروي ابن عبد ربه أن سيف بن ذي يزن لما ظفر بالحبشة أتته وفود العرب وكبراؤها وشعراؤها تهنئه وتمدحه . ومن بين الوفود التي قدمت عليه وهو في قصره بغمدان وفد قريش الذي ضم عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس ، وأسد بن عبد العزى وعبدالله بن جدعان . وكان ظفر سيف ، وقدوم هذا الوفد بعد مولد النبي ﷺ (١) .

ولكن سيفا أخطأ حين استبقى في خدمته عددا من هؤلاء الأحباش الموتورين فقتلوه . وأعاد كسرى وهرز مرة أخرى إلى اليمن فقضى على من بقي بها من الأحباش وظل يحكم البلاد حتى مات ودفن هناك . وحل محله باذان . وبسبب هذه الحروب انتشر في اليمن العنصر الفارسي من سلالة هؤلاء الجند الفاتحين . واستمر باذان في حكم اليمن باسم الفرس حتى جاء الإسلام .

* * *

(١) العقد الفريد : ٢/٢٣

وكان أهل الحجاز كذلك على اتصال مستمر بالفرس إذ كانوا يتبادلون معهم التجارات كما كانوا يترددون على أسواق الحيرة ليبيعوا ما لديهم ويعودوا ببضائع الفرس . ويذكر بعض المفسرين في تفسير سورة قريش أن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة أخوة من بني عبد مناف هم هاشم وتجارته مع الشام ، وعبد شمس وتجارته مع الحبشة ، والمطلب وتجارته مع اليمن ، ونوفل وتجارته مع فارس .



٣ – المجتمع الايراني قبل الاسلام

كان الفرس قديما يؤمنون بالنظام الطبقي فقسموا أفراد الشعب إلى طبقات . وكان على كل فرد أن يلازم الطبقة التي ينتمي إليها ولا يتعداها . وأقدم من عرف هذا النظام الطبقي في عهده الملك جمشيد . وكانت الطبقات في عهده أربعا . ويذكر ابن البلخي أن جمشيد قسم الناس إلى أربع طبقات ؛ فالطبقة الأولى هي طبقة الناس الذين أوتوا العلم والمعرفة ووهبوا الفطنة ورجاحة العقل . وقد وزع التخصص فيما بينهم ؛ فأمر فريقاً منهم أن يتخصصوا في الدراسة الدينية ورعاية شئون الدين ، وكلف فريقاً أن يتعلم الحكمة ليرجع إليهم في أمور الدنيا ويستأنس برأيهم ؛ وأمر البعض أن يتعلم الكتابة والحساب حتى يعهد إليهم في ترتيب الملك وضبط الأموال وتنظيم المعاملات . وكانت الطبقة الثانية طبقة الشجعان وأصحاب القوة . ومهمة أفراد هذه الطبقة التفرغ لشئون الحرب وإجادة فنونها . وعليهم المعول في حماية

البلاد من كل اعتداء . والطبقة الثالثة كانت طبقة أصحاب الحرف كالبقال والجزار والقصاب والبناء والزراع . والطبقة الرابعة تؤلف من أولئك الأفراد الذين يقومون بأنواع الخدمة كالمكاري والبواب ..[1]

ولم يكن عدد الطبقات ثابتا على الدوام فقد تكون أربعا . وقد تنضم إحدى الطبقات التي غيرها فتصبح ثلاثا .

وكانت مراتب الناس تقاس بمقاييس مختلفة في العهود المختلفة . ويذكر الثعالبي نقلا عن الآيين أن مراتب الناس كانت في أيام جم على الأسنان . وكان أعلاهم سنا أعلاهم مجلسا ، ثم كانت في أيام الضحاك على الغنى والثروة ، ثم كانت في ملك أفريدون على الغناء والسابقة ، ثم كانت في أيام منوچهر على الأصول والقدم ، ثم كانت في أيام كيكاوس على العقل والحكمة ، ثم كانت في أيام كيخسرو على البأس والنجدة ، ثم كانت في أيام لهراسف على الدين والفقه ، ثم كانت في ملك الملوك بعده على الأحساب ، ثم كانت في أيام أنوشيروان على اجتماع هذه الخصال المذكورة إلا الغنى والثروة فإنه لا يعتد بهما [2] .

وفي العهد الساساني كان المجتمع ينقسم إلى طبقات أربع : طبقة الدينيين ، وطبقة المحاربين ، وطبقة الكتاب ، وطبقة الفلاحين والصناع . وكانت كل طبقة من هذه الطبقات تشتمل على عدة أقسام . وكان لكل طبقة من هذه الطبقات رئيس . فرئيس الروحيين أو «الموبذان» هو «الموبذ موبذان» ورئيس رجال الحرب «سپاه بذ» أو

---

(١) فارس نامه : ص ٣٠ ط ليسترانج ونيكلسون
(٢) الغرر للثعالبي : ص ١٥

أصبهبد كما ترد في المصادر العربية . ورئيس الكتاب «دبيران مهيست» ورئيس الطبقة الرابعة «واستريوشان سالار»[1] .

ولم يكن يجوز الانتقال من طبقة إلى طبقة بصفة عامة ، إلا أنه كان يستثنى من هذه القاعدة نادرا حين يبدو من أحد أفراد الشعب امتياز خاص في ناحية من النواحي . وعند ذاك يعرض أمره على الملك فإذا كان امتياز هذا الشخص في ناحية الزهد والصلاح أمر بإلحاقه بطبقة الروحيين ، وإذا كان امتيازه في الشجاعة والقوة أمر فألحقوه بطبقة المحاربين ، وإذا كان امتيازه في العقل والفطنة وقوة الحافظة أمر فضموه إلى طبقة الكتاب .

وكانت طبقة الأشراف تمتاز على طبقة العوام بلباسها، وما لديها من المراكب، والقصور، والبساتين، وتعدد النساء، والخدم، وغير ذلك من وسائل الترف ومظاهر النعمة .

وتحقيقا لما كان يفرضه نظامهم الاجتماعي من الفصل بين الطبقات ، وخوفا على الأسر الكبيرة من أن يتسلل إلى صفوفها بعض أفراد العامة كانت أسماؤها تقيد في الدفاتر والدواوين .

* * *

ولم يكن العلم شيئا مباحا لجميع الفرس على السواء بل كان متعة أرستقراطية تنعم بها طبقة خاصة وتحرم منها بقية الطبقات . وقد فرض نظامهم الطبقي على الوضيع أن يظل وضيعا مهما يكن استعداده لتلقي العلم والإفادة منه . وفرض على ابن الوضيع أن يدور في دائرة

---

(١) كريستنس : « ايران در زمان ساسانيان » ص ٦٠ ترجمة رشيد ياسمي ١٣١٧ . تهران .

أبيه مهما بدا من نبوغه وذكائه . وكان نظامهم صريحا في ألا يتعدى الفرد طبقته وألا يتجاوزها إلى ما فوقها من طبقات اللهم إلا في بعض الأحوال الإستثنائية النادرة . ولهذا كان العلم قاصرا على الملك وأفراد أسرته والطبقة العليا من طبقات الشعب . وكتب بذلك على أبناء الطبقات الدنيا ألا يذوقوا لذة العلم . ومن الأمثلة الدالة على هذا تلك القصة التي ترويها الشاهنامه عن كسرى أنو شيروان وموقفه من الإسكاف . ففي إحدى حروبه ضد الروم طال أمد القتال ونفد ما معه من القوت والمال . ولم يكن في وسعه أن ينتظر حتى تأتيه الأموال من العاصمة فأوفد بزرجمهر إلى البلاد المجاورة ليجمع من أهلها ما يفي بحاجة الجيش السريعة من الأموال على أن يردها إليهم كسرى بعد الحرب . وكان في إحدى النواحي اسكاف عرض خدمته على رسول الملك، وقدم له أربعة آلاف درهم . ولم يكن الإسكاف يطمع في شيء نظير هذه الخدمة سوى أن يأذن له الملك بتعليم ابنه . فلما علم كسرى بما يطمح إليه الإسكاف رفض أن يحقق له أمنيته وأمرهم أن يردوا إليه أمواله . وكانت حجته في هذا أن ابن الإسكاف لا يرجى منه لو تعلم أي خير [٢] ، وتعلمه قد يتيح له الفرصة للتقدم والرقي فيتجاوز بذلك طبقته . وهو أمر لا يسمح به النظام القائم وقتذاك .

وكان ملوك الساسانيين يقدرون العلم حق قدره . وقد عرف عن أردشير أنه لم يستخدم في ديوانه جاهلا ولا قليل المعرفة . وكان يهتم ببلاغة الكاتب وحسن خطه . وكلما كان الكاتب على درجة أكبر من العلم والثقافة كان حظه من الرعاية والمكافأة أوفر . وقد إصطفى أنوشيروان سبعين عالما كان كلما فرغ من شئون الملك جالسهم وناقشهم

(٢) شاهنامه : ص ٢٥٤٨ ج ٨ ط بروخيم . تهران

في شتى الموضوعات . وكان له في بلاطه مجلس للعلماء ينعقد كل أسبوع [1] .

* * *

وكان للمرأة دورها في المجتمع الإيراني قبل الإسلام . واستطاعت المرأة أن ترقى إلى العرش وتتولى الحكم . ومن أمثلة ذلك في العهد الساساني : بوران دخت بنت كسرى پرويز وقد حكمت ستة أشهر ، وآزرم دخت التي حكمت أربعة أشهر .

وكانت تعاليم زردشت تقضي على الإيرانيين ألا يزوجوا اولادهم أو بناتهم قبل الخامسة عشرة . وكان تزويج البنت من شأن الأب فإذا لم يكن الأب حيا عهدوا بذلك إلى الأم ، فإن لم تكن هي الأخرى حية وكلوا ذلك إلى واحد من أعمامها أو أخوالها . ولم يكن للبنت حق اختيار زوجها مستقلة . وكان على الوالد أو ولي الأمر أن يسعى في تزويجها متى بلغت الخامسة عشرة حتى لا تقع في الخطيئة . وكان الوالد يتفق مع الزوج على المهر . ومن حق الزوج أن يسترد هذا المهر إذا اتضح له فيما بعد أن الزوجة لم تكن تستحقه كأن تكون عاقرا مثلا [1] .

وكان تعدد الزوجات معروفا في المجتمع الإيراني في جميع العهود. ونتج عن تعدد الزوجات كثرة الأبناء .

وكان الرجل يملك من النساء ما يشتهي ما دام على ذلك قادرا . أما الفقراء فلم يكن للرجل منهم سوى امرأة واحدة . وكان الملك على كثرة ما لديه من النساء يتخذ إحداهن الملكة وهي الحبيبة والزوجة

---

(١) شاهنامه : ٨ / ٢٣٧٣

(٢) كريستنس : ٢٣١

وصاحبة الحقوق الكاملة . وتسمى زوجة الملك أو الزوجة الرئيسية . وكان يقوم بخدمتها عدد آخر من زوجات الملك . ولذا يقال للواحدة من هؤلاء « الزوجة الخادمة » أو ما يرادف في تعبيرنا العصري وصيفة . والحقوق القانونية لكل واحدة من هاتين الزوجتين مختلفة . وواضح أن الجواري اللائي يشترين والنساء اللاتي يؤسرن في الحروب يكون جزءا من طبقة الزوجات الخادمات . وللزوجة الرئيسية على زوجها حق الرعاية والملاحظة . ولكل واحد من أبنائها حتى سن البلوغ أو من بناتها حتى سن الزواج نفس الحق . أما الزوجات الأخريات اللائي يطلق عليهن زوجات الخدمة فلا ينسب من أولادهن إلى أبيهم سوى الذكور [1] .

وتعتبر المرأة بعد الولادة نجسة لمدة أربعين يوما . ولا يحل لها خلال هذه المدة أن تمس شيئا أو تلمس أحدا من أفراد العائلة حتى زوجها نفسه . ولا يجوز لها أن تسير فوق البسط . ويجب أن تكون أرض غرفتها عارية . وبعد اليوم الأربعين تستحم المرأة ويحل لها عند ذاك أن تختلط بسائر أفراد الأسرة . وكل ما استعملته المرأة من أدوات أو لبسته من ثياب أو مسته خلال هذه الأيام الأربعين ألقي أو أهمل لنجسه . وقد بدأ الزردشتيون اليوم يتنبهون إلى ما في نبذ المرأة خلال هذه المدة وإفرادها في حجرة خاصة بها لا تقرب أحدا ولا يقربها أحد من ضرر وأذى لها ، ولكنهم لم يجرءوا على مخالفة هذه العادة إلا في الحالات القاسية التي يشتد فيها ضعف المرأة أو يصيبها مرض يعرض حياتها للخطر . عند ذاك فقط يعطف عليها أهل الأسرة ويزداد اتصالهم بها ورعايتهم لها . ويعتقدون أن خروجهم على العادة في مثل

---

(١) كريستنسن : ٢٢٧

هذه الحالة لا يعد إنما أوخروجا على تعاليم الدين . وإذا مست المرأة أحدا خلال الأيام الأربعين فعليه أن يتطهر وأن يغير ملابسه . وفي الوقت الحاضر إذا اضطر أحد زردشتي الهند أن يدعو طبيبا أوربيا لعيادة امرأته وفحص المولود تحاشى أن يصافح الطبيب عند خروجه ووقف بعيدا عنه يشير له إلى طريق الخروج لأن الطبيب بفحصه للأم ومولودها قد أصبح نجسا . أما إذا كان الطبيب زردشتيا فإنه في بعض الأحوال إذا فرغ من مهمته اغتسل واستحم وغير ملابسه قبل أن يغادر المنزل . ويقابل فعل هذا الطبيب بالاستحسان والتقدير من أهل المنزل وخاصة العجائز [٢] .

* * *

يبقى علينا الآن قبل أن ننتقل إلى موضوع آخر أن نشير إلى طرف من أحوال الملوك ومظاهر حياتهم باعتبارهم قمة هذا المجتمع الإيراني ، ومصدر التوجيه فيه ، ومحور كل نشاط وحركة .

كان الفرس يعتبرون الملك حقا محصورا في دائرة الأسرة الملكية وحدها ، ولا يحق لأحد غيرهم من أفراد الشعب أن يرتقي العرش مهما يكن شأنه . وفكرتهم في هذا أن الملك منحة إلهية خصت بها الآلهة فئة معينة من الناس هم الملوك ومن ينتمون إليهم . فمن كان من أصل ملكي حق له أن يملك ومن لم يكن كذلك فلا حق له في الملك مهما تكن مزاياه ومقدرته . وإذا ملك بحكم القوة فهو مغتصب . وهذا ما يعرف بالحق الإلهي المقدس للملوك . وقد نتج عن هذه الفكرة أنهم نظروا إلى الملوك نظرة تقديس ما دامت الآلهة قد خصتهم دون سواهم بالملك ،

(٢) Karaka : History of the Parsis, p. 134, vol. I London 1884.

واعتبروا ما يأمر به الملك وما يصدر عنه قوانين واجبة التنفيذ ، كما اعتبروا أن مخالفة هذه القوانين إثم في حق الآلهة [1] . وكانت الديانة الزردشتية لهذا السبب توجب على معتنقيها أن يدينوا للملوك بالطاعة والولاء . وقد نقلت الشاهنامة عن زردشت أنه يقول في الأفستا والزند : من عصى الله وخرج على طاعة الملوك وجب نصحه ووعظه سنة فإن لم يعد بعدها إلى الطريق السوي وجب قتله بأمر الملك [2] . ولهذا السبب كانت طاعة الملوك والتسليم لهم بحقهم في الملك عقيدة راسخة في قلوب الفرس تستمد قوتها من تعاليم الزردشتية نفسها .

وكان ملوك الفرس لشعورهم بامتيازهم على سائر الناس ولشعورهم بأنهم خصوا دون سواهم من البشر بحق الملك المستمد من الآلهة يحبون أن ينفردوا بجملة أشياء لا يشركهم فيها ندماؤهم وجلساؤهم ليكون هذا دليلا على ارتفاع منزلتهم ، فإذا تطيب الملك مثلا وجب على خاصته ألا يقربوا الطيب لينفرد الملك بالتطيب .

ومن ألمع صور الترف بين الملوك صورة الحياة التي كان يحياها خسرو پرويز أو كسرى أبرويز كما تسميه المصادر العربية . وكان لكسرى هذا عرش عجيب الشأن . وقد صنع بحيث لا يستقبل الجالس عليه الشمس ، ورسموا على هذا التخت صورة السماء بما فيها من بروج ونجوم ومنازل القمر ، وجعلوا فيه مقياسا لقياس ساعات الليل والنهار . ويبدو من كتابات المؤرخين عنه أنه كان يتركب من أربعة أقسام يعلو بعضها بعضا كأنها طوابق يفضي كل منها إلى ما فوقه . فالقسم الأول منه كان يسمى « ميش سر » أي رأس الضأن ، والذي

---

(١) قصة الحضارة الفارسية : ول دورانت ترجمة الدكتور ابراهيم أمين الشواربي

(٢) شاهنامه : ٩ / ٢٧٢٣

يعلوه يسمى اللازوردي ، وأما التخت الثالث فاسمه الفيروزجي وكان يصل كل تخت بالذي يعلوه أربع درجات من الذهب . وقد خصص كل تخت منها لطائفة . فالأول وهو رأس الضأن كان يجلس عليه الدهاقنة ، وكان الثاني وهو اللازوردي مجلس الأمراء والقواد ، أما الثالث وهو الفيروزجي فهو مجلس الوزير . ومن هذا التخت الثالث يرتقي الإنسان إلى مجلس پرويز وهو رابعها وأعلاها . ومن بين الذين وصفوا هذا العرش الثعالبي الذي يقول عنه إنه سرير من العاج والساج ،وصفائحه ودرابيزيناته من الفضة والذهب، وطوله مائة وثمانون ذراعا،وعرضه مائة وثلاثون ذراعا،وارتفاعه خمسة عشر ذراعا . وفي مراقيه سرر من الشيز والأبنوس مضببة بالذهب ، وعليه طاق من الذهب واللازورد فيه صور الفلك والكواكب والبروج والأقاليم السبعة وقصور الملوك وهيئاتهم في المجالس والحروب والمتصيدات . وفيه ما يدل على معرفة ساعات النهار . وله أربعة بسط على مقداره من الديباج النسيج المرصع باللآلىء واليواقيت يختص كل منها بما يشاكله ويوافقه من فصول السنة [1] .

وكسرى أبرويز هو الذي ينسب إليه أغلب المؤرخين أنه بنى إيوان المدائن المعروف . ولما فرغ من بنائه عقد عليه طاقا [2] . وكان في الطاق حلقة كبيرة من الذهب تتدلى منها سلسلة من الذهب الأحمر مرصعة باللؤلؤ والجواهر . فإذا جلس الملك في الإيوان علق تاجه من هذه السلسلة فيجلس تحت التاج على تخت العاج .

وكان عند كسرى عدد كبير من الكهان والسحرة والمنجمين

---

(١) الغرر : ٦٩٩

(٢) الطاق ما عطف من الأبنية معرب « تا » وهي الطية أو الثنية

يجمعهم كلما أحزنه أمر لينظروا في سببه وليجدوا له مخرجا منه . ولما بعث الله محمدا ﷺ تداعى هذا الطاق ، فجزع كسرى، ودعا كهانه وسحاره ومنجميه ليبحثوا الأمر . وكانوا قد نصحوه أن يعيد بناء الطاق ففعل . ولم يكد كسرى يدخل البناء ويجلس مع أساورته حتى انتقض من جديد وكاد يهلك . وعاود البناء مرة ثالثة فعاد البناء إلى الانتقاض . وكان هذا نذيرا بتداعي ملكه [1] . وقد وصف البحتري هذا الإيوان في سينيته المشهورة .

وكسرى هذا هو الذي جاءه كتاب رسول الله ﷺ في السنة السابعة والثلاثين من ملكه [2] يدعوه إلى الإسلام فعجب من جرأة محمد « كيف يقدم اسمه على اسمي في كتابه » [3] ، ومزق الكتاب فدعا عليه النبي: مزق الله ملكه كما مزق كتابي . ويقول حمدالله المستوفي إنه بسبب هذا الدعاء عليه اضطرب ملكه بعد ذلك ، وخرج عليه ابنه شيرويه وقتله [4] .

ومن مظاهر البذخ في حياة پرويز التي تردد ذكرها في كتب الأدب العربي فرسه شبديز ومغنيه بربد وحبيبته شيرين . وفي هؤلاء يقول الشاعر العربي : —

والملك كسرى شهنشاه تقنصه
سهم بريش جناح الموت مقطوب

---

(١) ابن الأثير : ١/١٩٥
(٢) مدة حكمه ثمان وثلاثون سنة
(٣) فارس نامه : ١٠٦ ط . ليسترانج ونيكلسون
(٤) تاريخ گزيده : ١٢١ ط . براون

إذا كـــان لذته شبديز يركبــــــه
وغنج شيرين والديبـــاج والطيب
بالنار آلى يميــــا شد مــا غلظت
ان من بدا فنعي الشبديز مصلوب
حتى إذا أصبح الشبديــز منجدلا
وكـــان ما مثله في الخيل مركوب
ناحت عليه مـــن الأوتـــار أربعة
بالفارسية نوحا فيــــه تطريب
ورنـــم البهلبذ الأوتـــار فالتهبت
من سحر راحته اليسرى شآبيب
فقال مات فقالوا أنت فهت بــــه
فأصبح الحنث عنه وهــو مجذوب
لولا البهلبذ والأوتـــــار تندبـــه
لم يستطع نعي شبديز المرازيب [1]

وشبديز الذي يتحدث عنه الشاعر هنا هو فرس پرويز . وكان فرسا تام الخلقة بديع التكوين كامل التدريب والإعداد ؛ فكان لما اجتمع فيه من الصفات النادرة أحب دواب كسرى إلى نفسه . وحدث أن اعتل شبديز ، وألحت عليه العلة ، وعرف پرويز ما يعانيه فرسه المحبوب من اشتداد المرض، ودنو الأجل فأقسم ليقتلن من ينعاه إليه . ولما نفق شبديز خاف صاحب خيله أن يبلغه الخبر فلجأ إلي بربد مغنى الملك

(١) معجم البلدان : ٢٥٢/٣ ط . ليبزج

وأغراه بالطائل من الأموال حتى يحتال له حيلة تنقذه من موقفه وتحفظ عليه حياته . ولم يجد المغني — وكان كذلك شاعرا — خيرا من أن ينظم الخبر ويدسه في بعض أغانيه التي يغنيها أمام الملك . وأمر پرويز أن يخلد ذكرى فرسه فأمر قطوس بن سنمار [1] الذي نحت له تمثالا في الصخر [2] بلغ من دقة الصناعة وروعة التصوير مبلغا عظيما بحيث لم يكن يفرقه عن الأصل سوى الروح ، وصور بجانبه شيرين محبوبة الملك ، كما صور الملك وهو يركب فرسه . وحين شاهد الملك التمثال أذهلته دقة صناعته . وفي پرويز وشبديز يقول أبو عمران الكسروي :

وهم نقروا شبديز في الصخر عبـــرة
وراكبــه برويز كالبدر طـــالع
عليـــه بهاء الملك والـــوفد عكف
يخال به فجر من الأفق ساطع
تلاحظـــه شيرين واللحظ فاتن
وتعطو بكف حسنتهـــا الأشـــاجع
يدوم على كر الجديدين شخصـــه
ويلقى قويم الجسم واللون ناصع [3]

وكان كسرى قد أمر فأعدوا له حديقة عظيمة قضوا في إعدادها سبع سنين وجمعوا فيها من كل أصناف الطير . ولما فرغوا من إعدادها احتفل پرويز بافتتاحها ، وشرب وسكر ، وقال لمحبوبته شيرين في

---

(١) سنمار هذا هو الذي بنى الخورنق .
(٢) في جبل بيستون بين حلوان وقرميسين
(٣) معجم البلدان : ٣/٢٥٣

نشوة سكره : سلبني حاجتك . فطلبت منه أن يكون لها في هــذا البستان العظيم نهران من حجارة يجري فيهما الخمر واللبن ، فوعدها بذلك . ولكنه لما أفاق نسي وعده ، وخجلت شيرين ان تذكره به، فلجأت إلى مغنيه بربد الذي هيأ أغنية ذكر الملك فيها بما نسيه . وقد وفى الملك بوعده وبنى النهرين [1] .

أما مغنيه بربد فتذكره المصادر العربية بهلبذ . وكان بربد هذا آية زمانه في الموسيقى والغناء . وكان يقول الشعر أيضا ولكن الغناء كان أغلب عليه . ولم يعتبر «عوفي» أغانيه من الشعر لأنها في نظره يعوزها الوزن والقافية [2] . ويذكر صاحب تاريخ گزيده أن أساتذة الموسيقى كانوا يتخذون آراءه في هذا الفن حجة ، ويغترفون من فيض علمه ، كما يذكر أنه قد ألف ثلاثمائة وستين أغنية يغني واحدة منها كل ليلة في مجلس الملك .

وكان عند كسرى هذا سجادة معروفة باسم «بهار كسرى» أي ربيع كسرى ويسميها العرب القطيف . وكان طول هذا القطيف سبعين ذراعا، وعرضه ستين ذراعا . وكان هذا القطيف منسوجا من نسيج الذهب . وقد نقشت عليه أنواع الورود والرياحين والأشجار والثمار والورود والرياحين كلها من الماس والياقوت البراق ؛ فكانوا إذا ما أقبل الشتاء وذبلت الورود ويبست الرياحين وعريت الأشجار من الأوراق والثمار فرشوا هذا القطيف وجعلوا عليه مجلس شرابهم فكان يخيل إليهم كأنهم يشربون في روضة معشبة وينعمون بالربيع وجماله فيما يحيط بهم من الورود والرياحين [3] .

---

(١) شاهنامه : ٢٨٦٨/٩ ط بروخيم . تهران

(٢) لباب الألباب : ١٣/١ ط براون

(٣) ابن الأثير : ٢١٩/٢

ولا أريد هنا أن أناقش مبلغ هذه الروايات التي تضمنتها كتب التاريخ والأدب من الدقة ولكنها على أي حال تدل على حياة عجيبة من الترف والبذخ كان يحياها هذا الملك .

* * *

الحياة الدينية :

كان الإيرانيون قبل أن يتخذوا الزردشتية دينا لهم يتجهون كغيرهم من الآريين إلى عبادة القوى الطبيعية . ويذكر الثعالبي أن الملوك قبل بشتاسف (گشتاسب) كانوا على دين الصابئين فكانــوا يعبدون الكواكب [1] .

وظلوا كذلك حتى ظهرت الزردشتية ، وآمن بها الملك گشتاسب الذي لم يكتف باعتناقه هذا الدين بل اتخذ القوة سبيله إلى نشره بين الناس . واختلف العلماء في أمر زردشت اختلافا كبيرا . ونتجاوز هذه الاختلافات إلى الحديث عن العقيدة الزردشتية .

دعا زردشت أتباعه إلى عبادة إله واحد هو « اهورامزدا» . والذي يمعن النظر في تاريخ التطور الديني يشعر أن زردشت لم يبتدع عبادة الإله الواحد ابتداعا فقد كان لهذا الاتجاه بذور موجودة من قبل إذ وجد بين الأقدمين من كان يؤمن بوجود إله عظيم يسيطر على هذا الكون ويوجهه ، وليس هذا الإله واحدا من تلك الظواهر الطبيعية التي يعبدها الآريون كالشمس والسماء والرعد وغير ذلك . ولكنه يكمن

---

(١) الغرر : ٢٥٨

وراء كل هذه الظواهر يتصرف فيها دون أن يرى . ومن هذا نرى أن زردشت وجد بذرة مهيأة فأخذها ونماها وأضاف إليها . وأكـد زردشت أن الإله «أهورا مزدا» هو خالق الكون كله .

وفكرة الثنوية هي أبرز الأفكار المتصلة بهذه العقيدة حتى ذهب كثيرون في تفسير هذه الفكرة إلى أن هناك قوتين تسيطران على هذا العالم ؛ إحداهما قوة الخير والثانية قوة الشر . وذكروا أن كل ما في العالم من خير يرجع إلى قوة الخير أو إله الخير وأن كل ما في العالم من شر يرجع إلى قوة الشر أو إله الشر ، وأن هاتين القوتين تتصارعان وتتنافسان في جذب الناس وإغرائهم بالانضمام إلى واحدة منهما . وستكون الغلبة في النهاية للخير ، وسيحيق البوار بقوة الشر ومـن انضم إليها . وتصوير الفكرة على هذا النحو غير دقيق . ومن ثم وجب أن نقف عندها قليلا .

إذا تركنا معظم المصادر الفارسية أو الزردشتية ورجعنا إلى أغلب المؤلفات الإسلامية أو الأوربية وجدنا أنها تنص بصراحة على أن الدين الزردشتي دين توحيد ؛ فالقلقشندي مثلا عند كلامه على زردشت يذكر انه ادعى النبوة وقال بوحدانية الله تعالى، وأنه واحد لا شريك له، ولا ضد ولاند، وأنه خالق النور والظلمة ومبدعهما [1] . ويذكر الثعالبي أن الكتاب الذي جاء به زردشت كان في التسبيح لله وتمجيده وفي الأخبار الماضية والكائنة . . . الخ . [2]

كانت ديانة زردشت قائمة على الأله الواحد « اهورا مزدا »

---

(١) صبح الأعشى : ص ٢٩٣/١٣ ط . الأميريه ١٩١٨
(٢) الغرر : ٢٥٧

الخالق الحاكم المسيطر على الكون ، الخفي ، الذي يرفع كل ثناء ورجاء اليه . ولا يصور الزردشتيون الإله في أي صورة يعبدونها ولا يتخذون له هيئة أو منظراً أو لوناً ؛ فهو عندهم ضياء لانهائي يفيض عنه كل جـلال ، سخاء ، حسن . ويعتبرونه أعدل وأكرم من في الوجود ، وأفضاله لاحد لها ، وأي ثناء أو عبادة لأي كائن غيره كفر وبهتان . ويصف زردشت الإله بأنه خالق الأرض والحياة ، وسيد الكون . في يده جميع المخلوقات ، وهو الضياء ومصدر الضياء ، وهو الحكمة والعقل ، وبيده كل خير في هذا العالم . وكل ما في هذا الكون من حسن أو قبح ، سعادة أو سعاء فإليه مرجعه . وقد خلق الله روحين أو ملكين يعملان بأمره أحدهما يسمى « سپنتومنيوش » Spento Mainyush وهو الملك أو الروح المكلف بشئون النمو والزيادة والتكاثر . والآخر يسمى « انكرومنيوش » Angro Mainyush أو أكامينو وهو الملك المختص بشئون النقص والهلاك. وهذان الروحان يعملان على الدوام تحت سيطرة الإله الواحد . وهذا الإله هو الذي يخلق، وهو الذي يهلك عن طريق هذين الملكين . والذين ادعوا أن دين زردشت يدعو إلى الثنائية أساءوا الفهم . وكان سبب هذا أنهم خلطوا بين عقيدة زردشت التي تؤمن بالاله الواحد ، وبين فلسفته التي اتخذها لتفسير هاتين القوتين اللتين تتصارعان في مجالين متضادين . وقد دعاه إلى ابتداع هذه الفلسفة ما لاحظه من أن المسألة التي لفتت أنظار الناس من قديم الزمان هي وجود النقائص والشر إلى جانب الفضائل والخير . وهداه فكره لتوضيح هذه المسألة إلى تصويرها بهذه الصورة الثنائية . وكل ما في الكون من خير يصدر بطبيعة الحال عن الإله الروح أو الملاك المختص، وكل ما في الكون من نقص وهلاك يصدر كذلك عن الآله بواسطة

الروح المختص . ويجب أن نذكرهنا أن كلا الملكين لا يمكن أن يعمل ضد إرادة الإله لأنه مأمور بأمره . وال « سپنتو منيوش » هو الذي يصدر عنه كل ما هو مشرق في هذا الكون، وكل ما هو خير ونافع ، بينما يصدر عن ال « انگرو منيوش »كل ما هو مظلم وضار. والأول يدفع الناس إلى العمل، والثاني يدعوهم إلى النوم والكسل، والحياة تخلق بأمر الله على يد الأول سپنتو، وتنطفيء بأمر الله على يد الثاني « انگرو » . وهكذا نرى أن وجود ملكين يعملان في اتجاهين مختلفين تحت سيطرة إله واحد ليس معناه الثنائية .

وتعني ديانة زردشت كذلك بنوعين من الحياة : الحياة الأولى ، والحياة الآخرة أو حياة الجسد وحياة الروح . والزردشتيون يعتقدون في الحياة الآخرة . ويؤمن الزردشتيون بالثواب والعقاب في الحياة الأخرى أو بالسماء (الفردوس) والجحيم . والسماء عندهم هي مقر الإله والأتقياء من الناس . ومن أسماء السماء الشائعة عندهم « آهو ڤهشتا » أي الحياة المثلى التي اختصرت فيما بعد إلى ڤهشتا وصارت بالفارسية بهشت بمعنى الفردوس . وتسمى الجحيم عندهم « دروژو دمانا » أي بيت الهلاك والإبادة . وللجحيم اسم آخر دوزنها . وفي الفارسية الحديثة « دوزخ » . وبين الفردوس والجحيم جسر تستطيع أن تمر عليه أرواح الأخيار فقط بينما يسقط الأشرار في الجحيم .

وتعني الزردشتية بالنواحي الخلقية . وتتلخص فلسفتها في الدعوة إلى الخير في الفكرة، وفي اللفظة، وفي الفعلة . ومن الواجبات التي تفرضها هذه الفلسفة على الزردشتي أن يفكر في الخير ؛ وأن يقول الخير ، وأن يفعل الخير . وعلى الزردشتي أن يتجنب عكس هذا

الثالوث فلا يسمح لنفسه بالتفكير في الشر ، ولا في قول الشر ، ولا في فعل الشر .

ومن المسائل المهمة في العقيدة الزردشتية مسألة النار. فما هي قصة النار وما هي الدوافع التي دفعت الزردشتيين إلى توقير النار .

يعتبر الزردشتيون الله مصدر الجلال ، والإشراق ، والضياء . ولذا ترى الزردشتي حينما يشرع في الصلاة يقف أمام النار أو يولي وجهه نحو الشمس لأن النار والشمس يبدوان في نظره أقوى الرموز الدالة على الإله . وقد لاحظوا في النار ملاحظات جعلتهم يعتبرونها رمزاً للإله ، فالنار أولا رمز للإشراق والضياء . وهي بهذا أصدق رمز يرمز به إلى الله مصدر ما في الكون من ضياء وإشراق . وفضلا عما تتميز به النار من الضياء فهي طاهرة ، نشيطة في استعارها وتوقدها ، غير قابلة للفساد . والنار ثانياً من أعظم المخلوقات وأنفعها ، فهي نافعة للإنسان، ولكل الكائنات والموجودات بما تشعه من حرارة وضياء . وبسبب هذه الأهمية العظمى جاء توقير الزردشتين لها . والنار ثالثاً وعلى الأخص النيران التي تشتعل في بيوت النار تمثل في نظر الزردشتي النقاء والطهارة . ولهم في معالجة النيران المشتعلة في المعابد طرائق خاصة فهم يعرضون النار لعمليات مختلفة حتى تصل في النهاية بعد تلك العمليات إلى درجة النقاء والصفاء والطهارة . وعندما ينشئون بيتاً من بيوت النار يأتون له بالنيران من جميع الأنحاء ، ويضعون كل نار منها في إناء . ولهم طريقة بعد ذلك يستخرجون بواسطتها ناراً أخرى من كل واحدة من هذا النيران . ومن هذه النار الثانية يستخرجون ناراً ثالثة ، ومن الثالثة يستخرجون ناراً رابعة إلى أن يصلوا إلى النار التاسعة . وهذه النار التاسعة التي استخرجت بعد العمليات التسع

السابقة تصبح نقية تمام النقاء ، طاهرة كل الطهارة بعد هذه المراحل التي مرت بها . ولكن ماذا تعني هذه النار عند الزردشتي ؟ إنه ليسأل نفسه إذا كانت النار على عظيم قدرها ، وجليل خطرها ، وهي التي تتخذ رمزا لله محتاجة إلى أن تمر بكل هذه العمليات الطويلة كي تصل تصل إلى درجة النقاء والطهارة فما بالك بي أنا ، وما أحوجني وأنا العبد الضعيف الفاني إلى أن أمر أنا الآخر بفكري ولساني ويدي في كثير من عمليات التطهير والتنقيه حتى أصل في النهاية إلى أن أكون ذا فكر طيب ، ولسان طيب ، وعمل طيب . وبهذا أستطيع أن أتبوأ مكاناً طيباً في العالم الآخر .

وكانوا ينقشون معابد النيران على السكة ، كما كانوا يلقون في النيران العيدان الذكية وسائر المواد العطرية لتنتشر الرائحة الطيبة في المكان . وفي أثناء اشتعال النيران يرددون الأدعية المختلفة . ومن الملوك من كان ينثر الجواهر على النار المتقدة في معابد النار .

ونظراً لأهمية النار عند الزردشتيين سمى الإيرانيون في العهد الإسلامي بيوت النار كعبة زردشت ، وسموا النار قبلته . ونظراً لتوقير الزردشتيين النار سماهم الإيرانيون المسلمون عبدة النار (آتش پرستان و آذر پرستان) . وباعتناق الإيرانيين الإسلام ضعفت بالتدريج مكانة بيوت النار وانصرف الناس عنها ، ولكن حين سنحت الفرصة السياسية للشعوبيين أن يفخروا بأجدادهم في شعرهم العربية ، الذين كانوا من أصل أعجمي بالنار وفضلوها على الطين كما فعل بشار بن برد :

الأرض مظلمة والنار مشرقة   والنار معبوده مد كانت النار

وقد تأثرت الحياة الاجتماعية للإيرانيين القدماء بالدين تأثراً

كبيراً ، وكانت السمة الدينية ظاهرة في جميع نواحي حياتهم الاجتماعية .

ومن الآداب الدينية التي تعلمها الزردشتيون من دينهم السكون والزمزمة . والزمزمة هي الكلمات التي يتفوه بها المجوس في مدح الله عند الشروع في الأكل أو الاستحمام . والسكون هو ما يكون منهم أثناء الاغتسال أو الأكل .

وإذا كانت الاتجاهات الدينية قد غلبت على الحياة العامة للإيرانيين فمن الطبيعي إذاً أن يسيطر رجال الدين الزردشتيون على الحياة في مختلف نواحيها . ولقد كان زردشت نفسه يشارك في توجيه الحياة السياسية للدولة على عهد الملك گشتاسب كما يتضح من نصوص الطبري . ويذكر ابن الأثير أن زردشت كان يشير على بشتاسب (كشتاسب) في الشئون السياسية .[1]

وكان الموابذة ، وهم طبقة رجال الدين ، يتدخلون في أكثر الميادين فاشتغلوا إلى جانب اشتغالهم بالدين بالطب والتربية والتعليم والقضاء .

* * *

وليس من المنطق الطبيعي أن يقضي الفتح العربي على ديانة كالديانة الزردشتية بمجرد الانتصار على الفرس في معركة من المعارك . والواقع أن الدين الزردشتي كان قد بدأ يضمحل قبل الفتح العربي بزمن حتى إذا جاء هذا الفتح ، كان الضربة القاضية .

---

(١) الآثار الباقية : ص ٢٠٧ وما بعدها

ويرجع ضعف الدين الزردشتي إلى عوامل كثيرة لا تعنينا كلها في هذا العرض الموجز . ولكن الذي يعنينا لاتصاله بحياة المجتمع الإسلامي بعد ذلك ظهور أديان مختلفة ، فبعد تلغلغل نفوذ المسيحية في المجتمع الإيراني ظهر الدين الماني . وكان ماني من نجباء إيران . وكان أبوه من أهالي همدان ثم هاجر إلى بابل. وهناك ولد ماني في سنة ٢١٥ م أو ٢١٦م . وقد استمد ماني أصول ديانته من الزردشتية والمسيحية والبوذية . وقد نسجت الأساطير حوله كثيراً من القصص التي تدل على البراعة الفائقة والمهارة النادرة في فنون الخط والنقش .

وكانت شريعة ماني تحض على قمع الشهوة ، وترك أكل اللحم وشرب الخمر والتناكح . وقد فرض على أتباعه الصيام سبعة أيام كل شهر وصلوات أربعا أو سبعا تؤدي كل يوم؛ الأولى عند الزوال والثانية بين الزوال وغروب الشمس ، والثالثة هي صلاة المغرب بعد غروب الشمس ، والرابعة صلاة العتمة بعد المغرب بثلاث ساعات .(١) والخلاصة في أمر هذا الدين أنه دين زهد وتقشف . وقد كثر معتنقوه حتى زاحم الزردشتية وضيق عليها المجال . وألف ماني كتباً كثيرة في الدعوة إلى دينه ، واستمر أمره في ارتفاع إلى أن ملك بهرام بن هرمز فقتله (٢) .



ثم جاءت المزدكية التي تنسب إلى مزدك ، والذي كان موبد موبدان في أيام قبادبن فيروز فدعا إلى الاثنينية وحرف دين زردشت

---

(١) الفهرست : ص ٣٢٧ وما بعدها

(٢) الآثار الباقية : ص ٢٠٧ وما بعدها .

وخالفه في كثير من المسائل . وكان مزدك يرى أن التحاسد والتباغض بين الناس يحصل بسبب المال والنساء . ولكي يسوي بين الناس وينزع من قلوبهم الحسد والبغضاء أمرهم بالاشتراك فيهما . وكان طبيعياً أن تستهوي دعوته العوام والرعاع فتبعه منهم خلق لا يحصى . وكان أتباعه يتشاركون في النساء والأموال فلا تختص أمرأة برجل واحد . وارتفع شأن مزدك، ودخل الملك قباد في دينه ، وبلغت بمزدك الجرأة أن يطلب مشاركة قباد في امرأته ، وهي أم كسرى أنو شيروان . ولما علم كسرى بذلك تضرع إلى مزدك وألح في الضراعة حتى يترك أمه فتركها [1] . ولم ينس كسرى أنو شيروان لمزدك هذا الموقف فإنه بعد أن انصرف قباد عن الدين المزدكي ، وكل إليه أمر المزادكة فسارع بقتله وصلبه وتتبع أصحابه وأتباعه في كل مكان حتى قتل منهم مقتلة عظيمة [2] . وعمت المجتمع الإيراني الفوضى الخلقية نتيجة هذه الفتنة المزدكية إذ كان الرجل لا يطمئن على امرأته وكان الوالد لا يعرف ولده ولا الولد أباه . وفي كتاب تنسر وصف لما بلغت إليه الحال « فإذا حجاب الحفاظ والأدب قد ارتفع ، وظهر قوم لا يتحلون بشرف الفن أو العمل ، لا ضياع لهم موروثة ، ولا حسب ولا نسب ، ولا حرفة ولا صناعة . عاطلون ، مستعدون للغمز والشر وبث الكذب والافتراء ، بل هم من ذلك يحيون في رغد من العيش وسعة المال » . [3]

---

(١) ابن الأثير : ص ١/١٦٥

(٢) راجع أيضاً سياست نامه

(٣) تنسر : الترجمة العربية للدكتور يحيى الخشاب ص ٣٥

٤ – بعد الاسلام :

لما جاء الاسلام استمرت صلة الفرس بالعرب حتى اذا جاء عهد الفتوح العربية زمن عمر زادت الصلات بينهما،وتوحد الدين واشتبكت المصالح .

ومنذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان للفرس شأن في المجتمع الاسلامي الجديد ، فكان سلمان الفارسي واحدا ممن اعتمد عليهم الرسول في حروبه ، وكانت له حظوة عنده حتى كان يدخل على النبي ،ويحييه بالفارسية،فيكرمه الرسول،ويقربه . وكان النضر ابن الحارث ، وهو ابن خالة النبي ، حكيما عالما . وقد بقي على شركه وايذاء النبي . وكان يتخذ من علمه بأخبار الفرس وملوكهم وأساطيرهم سلاحا يجتذب به العرب اليه ليصرفهم عن الاستماع إلى محمد صلوات الله عليه . وكان يقول للعرب كلما فرغ النبي من التحدث إليهم : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه فهلم إلي فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار ... الخ .

وفي عهد عمر رضي الله عنه كانت الفتوحات العربية لبلاد الفرس حاسمة . وكان العرب في حروبهم ببلاد الفرس يواجهون عدوا عرفوه من قبل ووطئت أقدامهم أرضه أكثر من مرة ،

فضلا عن علمهم بأحواله السياسية والاجتماعية . ويمكن أن نعتبر واقعة ذي قار من الوقائع ذات الأثر البعيد في نفسية العرب اذ أحسوا بعد انتصارهم فيها أن الدولة الفارسية العظيمة ليست معصومة من الوقوع في الهزيمة ، وشجعهم ذلك على التمادي في هجماتهم على أراضيها . وفي عهد بوران دخت بنت كسرى پرويز التي حكمت حوالي ٦٢٨ م انتهز العرب فرصة ضعف الفرس وخضوعهم لحكم امرأة وأخذوا يتسللون إلى أراضي الفرس بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني ، وسويد بن قحطبة العجلي . وكان المثنى يغير على الاراضي الفارسية من ناحية الحيرة ، وسويد بن قحطبة من ناحية الأبلة . ولم يكن هذان البطلان يلقيان مقاومة تذكر ، فدعاهما ذلك إلى التوغل في أراضي السواد . وكان ذلك أيام الخليفة أبي بكر ، فلما جاء عهد عمر لم يعد الامر مجرد إغارات كتلك التي يقوم بها المثنى ، بل وجهت الجيوش المنظمة الكبيرة لحرب الفرس . وقد أدت هذه الجيوش مهمتها على خير وجه وحققت نتائج حاسمة .

وكان العرب في حروبهم مع الفرس أو غيرهم يعرضون عليهم شروطهم قبل المناجزة . ولم تكن هذه الشروط تتجاوز واحدا من ثلاثة : الاسلام ، أو الجزية ، أو القتال . وكان على عدوهم أن يختار واحدا من هذه الثلاثة فان أسلم تركوه ورجعوا وخلفوا فيه كتاب الله ، وإن لم يقبل الاسلام دينا فعليه أن يفتدي نفسه بالجزية ، فإن أبى واستكبر لم يبق الا القتال . ويذكر الطبري ان العرب لما بلغوا المدائن « انتهوا إلى القصر الابيض وفيه قوم قد تحصنوا فأشرف بعضهم فكلمنا فدعوناهم وعرضنا عليهم فقلنا ثلاث تختارون منهن أيتهن شئتم قالوا وما هن قلنا الاسلام فإن أسلمتم فلكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فالجزية ، وإن أبيتم

فمناجزتكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم فأجابنا مجيبهم لا حاجة لنا في الأولى ولا في الآخرة ولكن الوسطى [١] » . وكان من أسباب نصر العرب على الفرس إقبالهم على القتال بنفس راضية مطمئنة فإما الاستشهاد ودخول الجنة ، وإما النصر والظفر بأرض الاعداء وأبنائهم وأموالهم . وكانت الرغبة في الدنيا والآخرة معا تدفعان العرب إلى هذه الحروب ، وكما قال المغيرة بن شعبة لرستم قائد جيوش الفرس . « يدخل من قتل منا الجنة ، ويدخل من قتلنا منكم النار ، ويظفر من بقي منا بمن بقي منكم [٢] » . وعلى العموم كان إسلام الاعداء أحب إلى العرب من غنائمهم ، ومقاتلتهم أحب اليهم من مصالحتهم [٣] .

وتقابل العرب مع الفرس في غزوات صغيرة أول الأمر[٤] إلى أن كانت حرب القادسية ، وفيها هزم الفرس ، وولوا هاربين إلى المدائن ، ففتحها العرب هي الاخرى . وظلوا يطاردونهم حتى كانت واقعة نهاوند سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م . وبعدها كان أمر ما بقي من البلاد هينا فطفق العرب يفتحون البلدة تلو البلدة ، وظل يزدجرد آخر ملوك الساسانيين يفر أمامهم من مكان إلى مكان حتى قتل سنة ٣١هـ / ٦٥١م لعهد عثمان بن عفان بعد أن ملك عشرين سنة قضى منها ست عشرة في محاربة العرب [٥] .

---

(١) تاريخ الطبري : ص ١٢١ ج ٣

(٢) نفس المصدر : ص ٣٩

(٣) نفس المصدر : ص ٤١

(٤) كغزوة النمارق ، السقاطية ، الجسر ، اليس ، البويب . . . . الخ .

(٥) في الطبري أنه ملك عشرين سنة قضى منها اربع سنين في دعة وست عشرة سنة في تعب من محاربة العرب اياه وغلظتهم عليه . ص ٣٤٨ ج ٣ ، هذا بينما تعتبر [illegible] مدة حكمه ست عشرة سنة فقط .

وعلى الرغم من موقف الدولة الاسلامية على عهد عمر من الفرس فإنها لم تستغن عن خدماتهم . وعندما تحير عمر في إحصاء الغنائم التي كانت ترد عليه وكيفية توزيعها أشار عليه واحد من الفرس بتدوين الدواوين . وكان هذا مبدأ اتخاذ الديوان . ولم تستطع الدولة الاسلامية الناشئة أن تستغني عن خبرة الفرس الذين أسلموا فبقي الدهاقين في وظائفهم يؤدون خدماتهم للدولة الجديدة فكانوا يقومون بجمع الضرائب ، وامساك الدفاتر الخاصة بها ، وتحديد الضريبة المفروضة على كل ممول كما كانوا على العموم ينفذون كل ما يطلب اليهم ويمثلون الدولة في أقاليمهم . وظل العرب يعتمدون إلى فترة طويلة من الزمن على ما وضعه لهم هؤلاء من النظم الخاصة بالشئون الادارية والمالية ، ونتج عن هذا أن دخل اللغة العربية كثير من الألفاظ والاصطلاحات الفارسية الخاصة بهذه الشئون ، بل إنهم أمدوا الأوربيين أنفسهم ببعض الاصطلاحات المصرفية . ومن الأمثلة على ذلك كلمة چك « cheque » .

واعتمد العرب في هذا العصر الاسلامي المتقدم على الفرس في أمور كثيرة أخرى غير الأمور المالية والإدارية .

وكان من نتائج الفتوح العربية أن أصبح المجتمع يتكون من ثلاث طبقات . طبقة العرب الفاتحين ، طبقة المسلمين الجدد وهم الموالى الذين اعتنقوا الاسلام ، وطبقة غير المسلمين ممن فضلوا أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية .

وكان للطبقة الثانية ، وهي طبقة الموالى ، أثر كبير في الحياة السياسية والاجتماعية للدولة العربية الاسلامية في العصور التالية . وقد دام الصراع بينها وبين الطبقة الاولى ، طبقة العرب ، زمنا

طويلا وكان له مظاهره ونتائجه في أكثر من ناحية .

ففي العهد الاموي انتظر الموالى أن ينعموا بالمساواة التي دعا إليها الاسلام بين كافة المسلمين لا فرق فيها بين عربي وعجمي . ولكن الأمويين ، وهم العنصر العربي الحاكم ، لم يكونوا يؤمنون بمبدأ المساواة التامة . ومن الواضح دائما أن الطبقات الحاكمة لا يسهل عليها تقبل فكرة المساواة لما فيها من تنازل عن الانفراد بالحكم وما يتصل به من الامتيازات وإتاحة الفرصة للطبقات الأخرى لتشارك في هذا الحكم وهذه الامتيازات . وكان تعصب الامويين الشديد للعرب مانعا للموالي ، وأخصهم الفرس ، من التعبير عن ذات أنفسهم والمطالبة بحقهم في المساواة خوف البطش والأذى . وحينما أفلت لسان أحد شعرائهم وهو اسماعيل بن يسار لقى جزاءه على الفور ، فقد دخل اسماعيل على هشام بن عبد الملك في خلافته بالرصافة وهو جالس على بركة له في قصره فاستنشده وهو يرى أنه ينشده مديحا له فأنشده قصيدته التي يفخر فيها بالعجم . —

يا ربع رامة بالعلياء من ريم هل ترجعن إذا حييت تسليمي

وفيها يقول . —

اني وجدك ما عودى بذي خور
عند الحفاظ ولا حوض بمهدوم
أصلي كريم ومجدي لا يقاس به
ولي لسان كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقوام ذوى حسب
من كل قرم بتاج الملك معموم

من مثل كسرى وسابور الجنود معا

والهرمزان لفخر أو لتعظيم

فغضب هشام وشتمه وقال أعليّ تفخر ؟ وإياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ غطوه في الماء ، فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر باخراجه وهو يشر ، ونفاه من وقته ، فأخرجه عن الرصافة منفيا إلى الحجاز . وكان مبتلى بالعصبية للعجم والفخر بهم فكان لا يزال مضروبا محروما مطرودا [1] ، ولا جدال في أن اسماعيل قد أخطأ مرتين ، الأولى حين قدم على خليفة فمدح نفسه دون الخليفة . وهذا من سوء التصرف ، الثانية حين فخر بقومه وأصله في حضرة خليفة أموي متعصب كهشام وهذا من الغفلة أو الجرأة .

وعلى العموم فقد كان العنصر العربي الخالص الذي يتولى شئون الدولة في العهد الاموي في العاصمة أو الاقاليم ينظر إلى الموالي على أنهم أقل شأناً منه . وقد عانى الموالي المسلمون معاناة شديدة من جراء هذه النظرة إليهم وحز في نفوسهم وضعهم الاجتماعي الشاذ الذي وضعتهم فيه الدولة الاموية المتعصبة للعرب أشد التعصب . ومع ما بلغه قدر الموالي من العلو في مضمار الدين والعلم والادب إلا أن هذا كله لم يكن يشفع لهم ليحظوا من الدولة العربية بالمساواة الاجتماعية .

واذا كانت الدولة الأموية استطاعت كبت هؤلاء الموالي

---

(١) الاغاني : ٤/٤٢٢

وحرمانهم من التعبير عن آلامهم النفسية بالطرق المشروعة السلمية فترة من الزمان إلا أن الكبت لا بد أن ينفجر في يوم من الايام متخذا مظاهر شاذة غير مشروعة . وهذا ما حدث . واذا تتبع الباحث أكثر الحركات الثورية التي قامت ضد الدولة الأموية لمس وراءها هذا العامل النفسي الاجتماعي المكبوت . ويمكن أن نتخذ من حركة المختار مثلا للحركات الثورية التي قام بها الموالي . ولكي يضمن المختار نجاح ثورته منح الموالي كثيرا من الامتيازات التي لم ينالوها من العرب . وكان أشد ما يغيظ العرب انه سوى الموالي بالمسلمين في الفيء وأشركهم فيه حتى قال شبث بن ربعي في حديثه مع المختار يعبر عن هذا الغيظ « عمدت إلى موالينا وهم فيء افاءه الله علينا وهذه البلاد جميعا فأعتقنا رقابهم نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا [١] ... » وكان هذا من أهم الأسباب التي حفزت أشراف أهل الكوفة إلى قتال المختار اذ معناه في نظرهم أن يتساوى بهم الموالي وأن يصيبوا من الفيء ما يرفع مستواهم المادي والأدبي وفي هذا ما فيه من الخطر على نفوذ العنصر العربي ومكانته . وهذا نص صريح يؤكد هذا المعنى ، فقد خطب عبد الله بن مطيع والي الكوفة يحث أتباعه على ملاقاة المختار فقال . « أيها الناس. إن من أعجب العجب عجزكم عن عصبة منكم قليل عددها خبيث دينها مضلة . اخرجوا اليهم فامنعوا منهم حريمكم وقاتلوهم عن مصركم وامنعوا منهم فيئكم والا والله ليشاركنكم في فيئكم من لا حق له فيه . والله لقد بلغني أن فيهم خمسمائة رجل من محرريكم عليهم أمير منهم، وانما ذهاب عزكم

---

(١) الطبري : ٥١٨/٤

وسلطانكم وتغير دينكم حين يكثرون [1] » . ورغم هذا فقد انتصر المختار بمن معه من الموالي على جيوش عبد الله بن مطيع والي الكوفة من قبل عبد الله بن الزبير في ذلك الوقت .

ولم تكن الحروب التي دارت بين العرب والمختار سوى صورة من صور النزاع بين العرب والموالي . ولذا نرى أن العرب عندما استعانوا بالمهلب بن أبي صفرة كانوا يثيرون نخوته العربية ضد الموالي لما رأوه من إبطائه عليهم وتثاقله في الخروج لنصرتهم فكانوا يقولون له « إن نساءنا وأبناءنا وحرمنا غلبنا عليهم عبداننا وموالينا [2] » وكان لهذا القول أثره فخرج المهلب ، وأقبل بجموع كثيرة إلى البصرة وانضم إلى المصعب بن الزبير ، واستطاعت هذه الجيوش العربية في نهاية الامر أن تقضي على المختار وأتباعه .

وكان هدف الموالي من وراء هذه الحركة واضحا . كانوا قوما مضطهدين، فأرادوا أن يرفعوا عن أنفسهم هذا الاضطهاد . وكانوا يرون أن الدولة لا تجيز لهم مجرد التعبير عن آلامهم ، فجنحوا إلى الثورة ، ولكن الذي نشك فيه أن يكون زعماء هذه الحركات الثورية كالمختار وغيره يرمون إلى نفس الهدف الواضح الصريح الذي كان يرمي اليه الموالي . ولا يبعد أن يكون هؤلاء الزعماء من ذوي الطموح والمطامع . وكان لا بد لهم لكي يحققوا مطامعهم من الاعتماد على العناصر التي تهيأت نفوسها للثورة بعد أن يعدوها ويمنوها . ومما يقوي هذا الشك أن المختار نفسه يقول .

---

(1) الطبري : ٥٠٤/٤

(2) نفس المصدر : ص ٥٥٩

« أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز ، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة ، ومروان على الشام فلم اكن دون أحد من رجال العرب فأخذت هذه البلاد فكنت كأحدهم إلا أني قد طلبت بثأر أهل بيت النبي صلعم اذ نامت عنه العرب فقتلت من شرك في دمائهم وبالغت في ذلك إلى يومي هذا [1] » . ويلاحظ في هذا النص ان المختار كشف عن رغبته، فقد أغراه استيلاء ابن الزبير على الحجاز ، ونجدة على اليمامة ، ومروان على الشام ، أن يكون كواحد منهم . ولم لا ؟ على أنه يجب أن يقرن هذه الرغبة الشخصية الطموح بدعوى عامة يقبلها الناس ، وبقضية مثيرة تجذب اليه الأتباع وهي دعوى الثأر لأهل البيت . وكانت هذه الدعوى المثيرة عاملا مشتركا في كثير من الحركات والثورات لاجتذاب الأتباع .

ولما ولى الحجاج أمر العراق كانت أكثر متاعبه من ناحية الموالى فأسقط ديوانهم، وفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا ولا يتعاقدوا . وكان يقول لهم أنتم علوج وعجم وقراكم أولى بكم [2] .

ومع كل هذه العصبية لم يستغن الامويون عن الانتفاع بحضارة الفرس واقتفاء آثارهم . وسيأتي بيان ذلك في مواضعه من هذا الكتاب .

ثم انقضت الدولة الاموية وجاءت الدولة العباسية فجاء معها خلاص الفرس مما كانوا يعانونه .

---

(١) الطبري : ٥٧٠/٣

(٢) العقد الفريد : ٤١٦/٣

وكان فضل الفرس على الدولة العباسية عظيما . وكان العباسيون أشد وثوقا بأهل خراسان وأكثر اعتمادا عليهم لأن أهل الحجاز قليلون ، وأهل الكوفة والبصرة لا يطمأن اليهم بعد ما عاناه منهم أمير المؤمنين علي وولداه الحسن والحسين عليهما السلام . أما أهل الشام ومصر فكان هواهم مع بني أمية، وقد تمكن حبهم من قلوبهم، فلم يبق أمام العباسيين من يطمئنون اليه ويثقون فيه الا أهل خراسان [1]

ومن الشخصيات الفارسية التي قامت على أكتافها الدولة العباسية أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال من كبار الشيعة بالكوفة . ومن فضله على العباسيين انه أوى السفاح والمنصور عندما هربا إلى الكوفة بعد مقتل أخيهما ابراهيم الامام علي يد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، كما كان ابو سلمة يقوم بأمر الدعوة الى العباسيين . وبذل في ذلك مجهودا عظيما، إلا أنه رأى بعد ذلك أن يعدل في دعوته عنهم إلى بني علي . وكاتب ثلاثة من أعيانهم رشحهم للخلافة وهم : جعفر ابن محمد الصادق ، وعبد الله المحض بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، وعمر الاشرف بن زين العابدين . لكن الثلاثة تلقوا هذا الترشيح بفتور تام،ولم يبد منهم أي اهتمام بالامر . ولما نجحت الدعوة وبويع السفاح بلغه ما كان من اتجاه ابي سلمة فقتله . وكان قتله إساءة من غير شك إلى العنصر الفارسي ، ولكن السفاح استطاع ان يعالج الامر بحكمة متفقا مع أبي مسلم [2] .

وكان ابو مسلم الخراساني أعظم الشخصيات الفارسية التي اعتمدت عليها الدولة الجديدة . وظل أبو مسلم يعمل للدعوة سرا حتى

(١) الفخري : ١٢٧ ط المعارف
(٢) الفخري : ص ١٣٧

اضطرب أمر بني أمية في عهد مروان آخر ملوكهم فأظهرها وأعلنها . وجمع إليه من أهل خراسان جيشا كثيفا هزم به نصر بن سيار والي خراسان من قبل مروان ، ثم اتجه بعد ذلك الى العراق حيث كان السفاح يقيم فبايعه بالخلافة سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م .

وظل شأن العنصر العربي يضعف في عهد الدولة العباسية، وأخذ شأن العنصر الفارسي يقوى حتى بلغ الذروة . وتمثل أسرة البرامكة في العهد العباسي ذروة ما وصل اليه نفوذ الفرس . وكان البرامكة قديما على دين المجوس . وبلغ من ميل العباسيين إليهم وعطفهم عليهم أن الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك أرضعته أم هارون الرشيد وأرضعت أمه الرشيد . وإلى هذا يشير مروان بن أبي حفصة مخاطبا الفضل . —

كفى لك فخرا أن أكرم حـــرة
غذتك بثدي والخليفة واحـــد
لقد زنت يحيى في المشاهد كلهـــا
كما زان يحيى خالدا في المشاهد [1]

وسيطر هؤلاء البرامكة على كل أمر من أمور الدولة حتى امتدت سيطرتهم إلى الشئون الخاصة بالخليفة . وبلغ الامر بجعفر ابن يحيى أن يزوج ابنة الخليفة قبل أن يستشيره في ذلك فقد « أتى عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس وهو من أقارب الخليفة الرشيد إلى جعفر بن يحيى وقال له : جئت — أصلحك الله —

---

(١) الفخري : ص ١٨٢

في ثلاث حوائج أريد أن تخاطب الخليفة فيها . أولا إن علي دينا مبلغه الف الف درهم أريد قضاءه ، وثانيها أريد ولاية لابني يشرف بها قدره ، وثالثها أن تزوج ولدي بابنة الخليفة فإنها بنت عمه وهو كفء لها . فقال له جعفر بن يحيى : قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث ، أما المال ففي هذه الساعة يحمل إلى منزلك ، وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر ، وأما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا ، فانصرف في أمان الله . فراح عبد الملك إلى منزله فرأى المال قد سبقه . ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد وعرفه ما جرى ، وأنه قد ولى ابنه مصر وزوجه ابنته فعجب الرشيد من ذلك وأمضى العقد والولاية [1] »
وهذا غاية ما يمكن أن يبلغه نفوذ .

ولم يكن العنصر العربي ليرى كل هذا ويسكت . وما زال أعداء البرامكة من العرب أمثال الفضل بن الربيع يسعون بهم الى الرشيد ، ويقبحون عنده استبدادهم بالملك ، واكتنازهم الأموال ؛ ويتهمونهم بالتشيع حتى اوغروا صدره فأوقع بهم ، ونكبهم تلك النكبة المشهورة في التاريخ . والحق أن نكبة البرامكة هذه كانت نصرا كبيرا للعنصر العربي الذى بدأ يجني ثمرته فاستوزر الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع ، وبدا العنصر العربي يتقدم بعد أن تخلف فترة من الزمان .

وعندما مات الرشيد وزر الفضل كذلك لابنه الأمين . ولما

---

(١) نفس المصدر : ص ١٨٦

كان الفضل يعلم صلة المأمون بالفرس، وميله اليهم زين للأمين خلع أخيه المأمون، والبيعة لابنه موسى ليظل العنصر العربي هو المسيطر. وصادف هذا الاقتراح هوى في نفس الامين فأرسل إلى أخيه يخبره بعزمه على البيعة لابنه موسى ، وجرت بين الأخوين مكاتبات في هذا الموضوع . ولما هم المأمون أن يجيب أخاه الى رغبته قفز العنصر الفارسي إلى الميدان وتدخل في الأمر . ويتمثل العنصر الفارسي هنا في الفضل بن سهل وزير المأمون الذي شجعه على الامتناع . وأدى هذا الموقف الى قيام العداوة بين الأخوين ثم الحرب بينهما بعد ذلك. وفي هذه الحرب انتصر المأمون وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ / ٨١٣ م . وكان انتصار المأمون في الواقع انتصارا للعنصر الفارسي وانهزاما للعنصر العربي من جديد .

وقد كافأ المأمون قائد جيشه طاهر بن الحسين مكافأة سخية على هذا الانتصار فولاه أمر المشرق . وكانت هذه الولاية بداية أمر الدولة الطاهرية . وهي أولى دول الفرس الاسلامية . وبقيام هذه الدولة بدأ العنصر الفارسي ينفصل عن المحيط الاسلامي الواسع ليستقر في بيئته الجديدة بالمشرق مستقلا عن الدولة العباسية [1] .



وكما قامت هذه الدول الفارسية بالمشرق مستقلة عن الخلافة ،

---

(١) كانت الدول الفارسية بالمشرق التي عاصرت الخلافة العباسية مستقلة عنها استقلالا فعلياً الا انها مع ذلك كانت تبدأ عهدها بالحصول على موافقة الخليفة . وكان هذا الاجراء شكلياً بحتا . وهذا بيان الدول التي حكمت ايران بعد الاسلام : الطاهرية ، الصفارية ، السامانية ، الغزنية ، السلجوقية ، المغولية ، التيمورية ، الصفوية ، الافغانية ، الافشارية ، الزندية ، القاجارية ، البهلوية .

قامت دول أخرى في الشمال والجنوب كذلك نازعت الدولة العباسية وقضت على البقية المتخلفة من سلطانها .

ففي الشمال ، في جرجان وطبرستان جنوب بحر قزوين ، قامت الدولة الزيارية ٣١٦ – ٤٣٤ هـ / ٩٢٨ – ١٠٤٢ م . وقد شجع على قيام هذه الدولة أن تلك الاقاليم لم تكن قد خضعت للدولة العباسية خضوعا تاما ، وكذلك لم يكن سلطان الدولة السامانية يسيطر سيطرة كافية على تلك الأنحاء ، فانتهز مرداويج بن زيار هذه الفرصة واستقل بأمر جرجان وطبرستان كما احتل فيما بعد أصفهان وهمدان واندفع حتى حلوان .

وكان مرداويج ذا مشروعات واسعة وآمال عريضة في إحياء مجد الفرس القديم . وكانت سبيله إلى هذا أن يقضي أولا على ملك العرب ثم يحيي بعد ذلك ملك الفرس . ومع أنه كان صاحب الفضل على أولاد بويه إلا أنهم نازعوه الملك في هذه الفترة فرأى أن يفرغ منهم أولا ثم يوجه جهوده بعد ذلك إلى فتح بغداد . لكنه قتل في أصفهان سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٤ م وهو يستعد لملاقاة آل بويه . وكان قتله من حسن حظ العرب ، لأنه لو انتصر على آل بويه وعاش لاتجه بعد ذلك إلى تحطيم الخلافة العربية .

وكان مرداويج قد رتب خطته وأوصى رؤساء جيشه أن يعيدوا بناء ايوان المدائن بالصورة التي كان عليها قبل الاسلام بمجرد فراغه من فتح بغداد . وبلغ به الأمر أنه أعد لتلك المناسبة تاجا على شكل تاج ملوك ايران ليتوج به نفسه في الإيوان . وهكذا قضى مقتله على كل تلك الآمال والخطط .

وفي الجنوب ، في فارس ، ظهر البويهيون وهم من أصل فارسي . ولكن ليس من المؤكد أنهم من سلالة ملوك الفرس . ويشك أبو ريحان البيروني في صحة انتسابهم إلى ملوك فارس القدماء. ويذكر أن هذا النسب إنما جاءهم لما ارتفع شأنهم . وكان، جدهم أبو شجاع بويه ،من فقراء بلاد الديلم يشتغل بصيد السمك . ونشأ أولاده مثله فقراء محتاجين حتى كان معز الدولة بعد تملكه البلاد يعترف بنعمة الله تعالى ويقول :

« كنت أحتطب الحطب على رأسي [1] » . وكان آل بويه في خدمة مرداويج وهو الذي ولى على بن بويه (عماد الدولة) على الكرج. ولكن عليا لم يكتف بهذا وظل يواصل فتوحاته حتى استولى على اقليم فارس . وعند ذلك أرسل إلى خليفة بغداد الراضي بالله يعلن له طاعته ، ويطلب اقراره على ما بيده من البلاد ، فأجيب الى طلبه وكان من حظ علي بن بويه أن قتل مرادويج وهو يستعد لملاقاته فخلا الجو بذلك له ولاخوته . ولما رأى علي ضعف خليفة بغداد سير أخاه الأصغر أحمد إلى العراق، ودخل بغداد سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥م على عهد المستكفي بالله . وأعلن أحمد للخليفة الطاعة والولاء ، فشرفه وإخوته بالالقاب التي عرفوا بها ، فلقب عليا صاحب بلاد فارس عماد الدولة وهو أكبرهم ، ولقب الحسن صاحب الري والجبل ركن الدولة ، ولقب أحمد صاحب العراق معز الدولة . ومنذ ذلك اليوم صار الخليفة مجرد رمز ديني للدولة وخرج من يده كل سلطان .

---

(١) الفخري — ص ٢٤٩

وتقسمت بلاد ايران بذلك ثلاث قوى في وقت واحد : السامانيون في الشرق (خراسان وما وراء النهر) ، الزياريون في الشمال (جرجان وطبرستان) ، والبويهيون في الجنوب والغرب . أما الخليفة العباسي فلم يكن له مكان بين هؤلاء .



تأثيرات فارسية

الشعوبية :

قلنا إن الأعاجم في عصر الدولة الأموية لم يمكنوا من التعبير عن آرائهم بحرية كاملة ، وكان العنصر العربي مفضلا عليهم حتى أصبحت الدولة عربية خالصة . وكان هذا فيما يبدو مخالفا لروح الإسلام الذي قضى بالمساواة التامة بين المسلمين وعدم التفرقة بينهم . ولكننا نرى فيما ذهبت إليه الدولة الأموية حرصا شديدا على عروبة الدولة . وهذه لا تتحقق إلا بسيادة العنصر العربي وسيطرته على أجهزة الدولة ، ونرى فيه أيضا خوفا من هؤلاء الأعاجم الذين كانوا يتربصون بالدولة وبالعرب . وقد ظهر أن بعض فرقهم التي ثارت فيما بعد كانت تتربص بالاسلام أيضا . وعلى هذا نفهم لماذا سلك الأمويون هذا المسلك . كانوا حريصين على الدولة والعنصر العربي الذي يحميها . وكان من الممكن إذا زالت الدولة أو ضعف شأنها ، واضطرب أمرها أن يضطرب كذلك أمر الإسلام . وموقف الشاعر بشار دليل على هذا فإنه في ظل الدولة الأموية لم يجرؤ على أن يقول ما قاله في ظل الدولة العباسية من تفضيل عبادة النار وتمجيد عبادة الفرس القدماء .

وعندما تولى العباسيون الأمر — وكان للفرس في هذا دور وفضل — أخذ الفرس يعوضون ما فاتهم بسرعة ، وينطلقون إلى

المناصب الرئيسية في الدولة حتى سيطروا على أجهزتها ، ووجهوا دفتها ، وحجبوا سلطة الخليفة في بعض الأحيان . وأصبحت الدولة العباسية فارسية الطابع والاتجاه . وبعد أن كان الفرس في أول الأمر يطالبون بمجرد المساواة مع العرب أصبحوا الآن يستعلون عليهم ، ويسدون في وجوههم الأبواب .

ويذكر المرحوم الأستاذ أحمد أمين [1] أن النزعات التي كانت سائدة في هذا العصر ثلاث :

(١) الأولى : وهي النزعة العربية التي تفضل العرب وتعتبرهم خير أمة أخرجت للناس . وأصحاب هذه النزعة يعجبون بالعرب ويكبرونهم لما يتحلون به من صفات خلقية ونفسية كالشجاعة والكرم والفصاحة . ومنهم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبفضلهم انتشر الاسلام في أرجاء الأرض .

ويمثل هذه النزعة العرب ، وبعض الأعاجم الذين حسن إسلامهم فطغى على عصبيتهم ، فهم يعرفون للعرب دورهم وحسن بلائهم من أجل الاسلام وإقامة دولته .

(٢) الثانية : هي نزعة التسوية بين الجميع . وأصحاب هذه النزعة يرون أن لا فضل لأمة على أمة ولا لشعب على شعب . وفي كل أمة طيب وخبيث ، وحسن وقبيح . فلا العرب أفضل من الفرس ولا الفرس أفضل من العرب . ويتخذون من قوله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ومن قول رسول الله : « ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » شعارا لهم . فهم على هذا

---

(١) ضحى الاسلام : ١/٥٠ لجنة التأليف ١٩٣٨

النحو يسوون بين الجميع ولذا أطلق عليهم أهل التسوية .

ويمثل هذا الاتجاه المتزنون من الأعاجم ، والمتدينون ، والعلماء ، والمسلمون ، والذين يفهمون روح الاسلام حق الفهم .

(٣) الاتجاه الثالث : ويمثله المتعصبون من الأعاجم الذين هاجموا العرب ، وحطوا من شأنهم ، وحاولوا أن يجردوهم من كل فضل . وهؤلاء يكرهون العرب ويتمنون زوال حكمهم مدفوعين إلى ذلك بنزعات وطنية استقلالية .

وهذا الاتجاه الثالث تطور متطرف للاتجاه الثاني . ويمكن أن نعتبرهما اتجاها واحدا مر في طورين متعاقبين ؛ فبدأ بالطور المعتدل الأول ، وانتهى بالطور المتعصب الثاني .

وهؤلاء هم الشعوبيون .

ويفسر الأستاذ أحمد أمين معنى الشعوبيين بأنهم الذين يرون أنه لا فرق بين الشعوب من عرب وغيرهم فكان أمامهم أن يتسموا باسم مشتق من المساواة أو باسم مأخوذ من الشعوب [1] . وهذا في الحقيقة تفسير غير مفهوم إذ كيف نسمي الذين يلغون الفروق بين الشعوب شعوبيين ؟ والأمر ، في رأيي ، على غير ما ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين ؛ فالشعوبي هو الذي يؤمن بالفروق بين الشعوب ويفضل شعبا على غيره، ويريد أن يخرج من دائرة الإسلام الذي قضى بالتسوية بين الجميع لينال شعبه فضلا وامتيازا . وهؤلاء الشعوبيون يريدون أن يتحللوا من الكيان الاسلامي الشامل بإثارة

---

(١) ضحى الاسلام : ص ٥٦

النزعات الشعوبية والعصبيات الجنسية التي قد تمتد لتنال من الإسلام نفسه باحياء النزعات الدينية القديمة التي قضى عليها الاسلام .

وفي الجزء الثالث من العقد الفريد مناقشة مفصلة بين أنصار الشعوبية وخصومها . (١)

فمن حجج الشعوبية على العرب : أنهم – أي الشعوبية – يرون وجوب العدل والتسوية بين الناس ، وأن الناس كلهم من طينة رجل واحد وسلالة رجل واحد . ويحتجون بقول النبي عليه الصلاة والسلام : « المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » وقوله في حجة الوداع : « أيها الناس ، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم، وآدم من تراب . ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ». وهذا القول من النبي عليه الصلاة والسلام يوافق قول الله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . ومع ذلك أبى العرب إلا فخرا ورفضوا المساواة مع العجم وإن تقدموا معهم إلى الإسلام . ثم يوجه الشعوبيون إلى العرب هذا السؤال : إذا كنتم تأبون إلا الفخر فبماذا تفخرون ؟ أتفخرون بملك أو بنبوة ؟ أما الملك فلم يكن لكم ، أيها العرب ، ملك كملك الأكاسرة أو الفراعنة أو القياصرة أو الاسكندر الذي ملك الأرض كلها . فإذا كان الفخر بنبوة فللأعاجم الأنبياء والرسل من لدن آدم ما خلا أربعة : هودا وصالحا واسماعيل ومحمدا . ثم إن الأمم من الأعاجم لها ملوك تجمعها ، ومدائن تضمها ، وأحكام تدين بها ، وفلسفة تنتجها ، وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات .... بينما لم يكن للعرب ملك يجمع سوادها .

(١) العقد الفريد : ٤٠٣/٣ ط لجنة التأليف ١٩٤٢

ويضم قواصيها ، ويقمع ظالمها ، وينهي سفيهها ، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ، ولا أثر في فلسفة ، إلا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم . فما الذي تفخر به العرب على العجم ؟

ويرد ابن قتيبة على هذا الكلام مدافعا عن العرب فيقول : وأما أهل التسوية فان منهم قوما أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث فقضوا به، ولم يفتشوا عن معناه . ولو كان الناس جميعا سواسية في أمور الدنيا لما كان هناك في الدنيا شريف ولا مشروف، ولا فاضل ولا مفضول . فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » ، وقوله ﷺ « أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم » وقوله عليه السلام في قيس بن عاصم : « هذا سيد الوبر » . وكانت العرب تقول : « لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا ». وكيف يستوي الناس في فضائلهم والرجل الواحد لا تستوي في نفسه أعضاؤه، ولا تتكافأ مفاصله . ولكن لبعضها الفضل على بعض، وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس الخمس .

ولا تسكت الشعوبية على هذا القول فترد على ابن قتيبة : إننا لا ننكر تباين الناس وتفاضلهم . والسيد منهم والمسود ، والشريف منهم والمشروف ولكنا نزعم أن تفاضل الناس فيما بينهم ليس بآبائهم ولا بأحسابهم ، ولكنه بأفعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبعد هممهم . ألا ترى أنه من كان دنيء الهمة . ساقط المروءة لم يشرف وإن كان من بني هاشم في ذؤابتها ، ومن أمية في أرومتها ، ومن قيس في أشرف بطن منها . إنما الكريم من كرمت أفعاله ، والشريف من شرفت همته . وهو معنى حديث النبي عليه الصلاة والسلام : « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » . وقوله في قيس بن عاصم : « هذا سيد الوبر » إنما قال فيه هذا لسؤدده في قومه بالذب

عن حريمهم ، وبذله رفده لهم . ألا ترى أن عامر بن الطفيل وكان في أشرف بطن في قيس يقول :

وإني وإن كنت ابن سيد عامر
وفارسها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثة
أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي
أذاها وأرمي من رماها بمنكب

وقال آخر :

إنا وإن كرمت أوائلنا لسنا على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

.... الخ .

ومن لطيف أمر ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب أنه عاد في آخره إلى الاعتدال ، وترك العصبية ، فرأى أن الناس كلهم لأب وأم ، خلقوا من تراب ، وأعيدوا إلى التراب .... ثم إلى الله مرجعهم فتنقطع الأنساب ، وتبطل الأحساب إلا من كان حسبه التقوى .

صور النزاع بين العرب والأعاجم :

هذا النزاع بين العرب والأعاجم — وأخصهم الفرس — اتخذ صورا مختلفة وأساليب عديدة نذكر بعضها فيما يأتي :

الثورات :

من هذه الأساليب أسلوب الثورة والخروج على الدولة كتلك الثورات المختلفة التي قام بها الأعاجم . ولكن هذا الأسلوب لم يقدر له النجاح .

من هذه الثورات مثلا ثورة المختار التي أشرنا اليها فيما سبق . وقد لاحظنا أن ثورة المختار لم تكن خالصة لمصلحة الموالي الذين أيدوه وانضموا اليه ، ولكنها كانت مشوبة بطموح المختار الشخصي الذي استغل هذا الغضب في نفوس الموالي ليبلغ ما يريد .

ومن هذه الثورات ثورة سنباذ الذي ثار على الدولة لمقتل أبي مسلم الخراساني . واعتبر العنصر الفارسي مقتل هذا الزعيم إساءة له ، واستطاع سنباذ أن يجمع حوله عددا كبيرا من الأتباع استولى بهم على كثير من بلاد خراسان ، وأفسد في الارض إفسادا شديدا حتى إنه عزم على المضي إلى الحجاز ، وهدم الكعبة إلا أن المنصور استطاع أن يقضي عليه .

ومن هذه الثورات أيضا ثورة الراوندية التي قاومها المنصور مقاومة فعالة . وكان هؤلاء الراوندية أعداء سياسيين للدولة يبغون تحويل الملك عن العرب إلى الفرس ، كما كانوا أيضا أعداء دينيين لأنهم كانوا يؤمنون بالمبادىء الدينية القديمة كالزردشتية أو المانية أو المزدكية . وكان انتصار هؤلاء سياسيا معناه إحياء هذه الديانات وفرضها على المجتمع .

ومن هذه الثورات ثورة المقنع في أيام المهدي سنة ١٦١ هـ / ٧٧٨ م . وكان المقنع من إحدى قرى مرو بخراسان . ولما قوى

أمره وكثر أتباعه ادعى الألوهية واتجه إلى ما وراء النهر فسيطر على الإقليم كله . وكان المقنع قصيرا أعور فاتخذ القناع ليخفي قبحه على الناس وكان يعلل اتخاذ القناع بأنه يخفي بهاء الذات الإلهية عن العيون الدنسة الشريرة التي لا تستحق أن تسعد بالنظر إليه . وكان يؤمن بتناسخ الأرواح ، ويدعي أمام أتباعه أن روح أبي مسلم حلت في جسده يضلهم بذلك ويضمن تأييدهم . وبهذه الادعاءات استطاع أن يجمع حوله خلقا كثيرا من السذج والعوام . وقد أتعب المقنع الدولة العباسية ، وتغلب على أكثر من جيش من جيوشها إلى أن تم لها في نهاية الأمر القضاء عليه .

وهناك أيضا ثورة صاحب الزنج وهو علي بن محمد ادعى أنه من سلالة علي ، وورد البحرين سنة ٢٤٩ هـ ، ودعا الناس لطاعته فتبعه منهم خلق كثير . ولما عظم شأنه هاجر بعد ذلك إلى البصرة سنة ٢٥٤ هـ فضم اليه كذلك بعض أهلها . وأراد الاستزادة من الأتباع فنشر دعوته بين العبيد الذين كانوا يعماون في تلك المناطق في خدمة أصحاب الأراضي الزراعية . وعندما قوى أمره بدأ يعيث في الأرض فسادا ونشر الرعب في منطقة الخليج العربي . وقد وجهت إليه الدولة جيشا بعد جيش إلى أن استطاعت في النهاية التغلب عليه في عهد الخليفة المهتدي سنة ٢٧٠ هـ . وبذا استراح العالم الاسلامي من شره . ويقول عنه الطبري في حوادث سنة ٢٥٥ إنه كان يدعى النبوة ، ويظهر لنفسه بعض الخوارق . ويسميه بالفاسق والخبيث وعدو الله لكثرة ما ارتكب من الجرائم الوحشية .

ومن الخارجين على الدولة الخرمية ، وهي فرقة قديمة ترجع نشأتها إلى أيام قباد الساساني . وهذه الخرمية القديمة هي التي يقال لها

الحرمية الاولى تمييزا لها عن تلك الحرمية الثانية التي ظهرت في أيام المأمون والمعتصم . وهذه الفرقة كغيرها من الفرق السابقة تتعصب للفرس ، وتسعى في تحويل الملك إليهم ، كما كانوا يؤمنون بالمذاهب الدينية القديمة كالزردشتية والمزدكية . ويذكر عبد القاهر البغدادي في شأن هؤلاء الخرمية أنهم صنفان : صنف كان قبل الإسلام كالمزدكية الذين استباحوا المحرمات وزعموا أن الناس شركاء في الأموال والنساء ، وصنف ثان هم الخرمدينية الذين ظهروا في الإسلام وهم فريقان بابكية أي اتباع بابك الخرمي ومازيارية أي اتباع مازيار الذي خرج هو الآخر على الدولة وانتهى أمره صلبا إلى جانب بابك في سر من رأى على أيام المعتصم [1] .

ولا ينبغي أن ننظر إلى هذه الثورات السابقة على أنها عمل سياسي فحسب أريد به القضاء على حكم العرب ، فقد كانت هذه الثورات كلها ذات مضمون ديني يقوم على الإيمان بالمذاهب الدينية الفارسية قبل الإسلام . ومن هنا كان خطرها على الدولة وعلى المجتمع الاسلامي مزدوجا لأنه خطر سياسي وديني معا .

النواحي الدينية :

ومن مظاهر تسرب هذه الديانات إلى المجتمع الاسلامي ما يذكره فون كريمر عن مدلول كلمة « زنديق » التي كانت تطلق في أول الأمر على كل من اعتنق المبادىء والأفكار الفارسية القديمة ثم خص بها فيما بعد أتباع الديانة المانية . ومن أدلته على هذا نص

(١) الفرق بين الفرق : ٢٦٦ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد

استخرجه من الحيوان للجاحظ . وفي هذا النص يتحدث الجاحظ عن الزنادقة وأنهم حريصون فيما يكتبون على اختيار الورق النقي الأبيض ، والكتابة بالحبر الأسود البراق ، وإجادة الخط حتى إنه — اي الجاحظ — لم ير كورق كتبهم ورقا ، ولا كالخطوط التي فيها خطا . ومع ذلك فإن كتبهم وإن حليت بجودة الورق وجمال الخط وحسن المظهر فقد عريت عن الفوائد التي يصح أن تكتسب من الكتب كمعرفة الصناعات ، والتجارات ، وسبل التكسب ، ونحو ذلك . وفي رأيه أنهم يتخذون هذه الكتب دعاية لدينهم، وينفقون عليها عن سعة كما ينفق النصارى على البيع وصلبان الذهب . ويستنتج فون كريمر من نص الجاحظ أن هذا الكلام الذي ذكره عن الزنادقة ينطبق تمام الانطباق على المانية فهم الذين يعنون في كتاباتهم بالتنميق والزخرفة، ويفتنون في ذلك افتنانا عظيما . فضلا عن أن محتويات هذه الكتب كما عرضها الجاحظ ينطبق إلى حد بعيد على ما ذكره صاحب الفهرست من محتويات كتاب ماني الديني . ويمضي فون كريمر فيذكر أن المانية كانت معروفة في عصر الجاحظ ، وأنها كانت محل تقدير وعناية حتى إن كاتبين مشهورين كالجاحظ وابن النديم ذكراها بصراحة في مؤلفاتهما .

واستطاعت المانية أن تستميل اليها عددا من المسلمين أغلبهم من غير العرب [1] .

ومن مظاهر توغل المانية في الحياة الاسلامية أن الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد [2] كان من أتباع هذا المذهب .

(١) الحضارة الاسلامية : فون كريمر ص ٥٥ وما بعدها ترجمة مصطفى طه بدر

(٢) ينسب مروان إلى مؤدبه فيقال له مروان الجعدي

وكان من أتباعه وإن أظهر الإسلام صالح بن عبد القدوس ، بشار بن برد ، اسحق بن خلف ، سلم الخاسر ... الخ . ويقال إن البرامكة جميعا إلا محمد بن خالد بن برمك كانوا من معتنقي هذه الديانة . وكان محمد بن عبيد الله كاتب المهدي زنديقا فقتله المهدي [1] . ومن محاكمة الأفشين قائد جيوش الدولة على عهد المعتصم نتبين أنه كان يضمر العداوة للإسلام ويحن إلى عبادته القديمة ، ويسعى إلى هدم دولة المسلمين . واعترف الأفشين في محاكمته أنه كان يميل إلى الأعجمية وإلى أهلها ، وأنه كان يأمل أن يعود دينه القديم إلى ما كان عليه أيام العجم [2] .

الباطنية :

والباطنية فرقة عرفها المجتمع الإسلامي . وحسبي أن أعتمد هنا في الحديث عنها على مؤلف من معاصري هذه الفتنة وهو عبد القاهر البغدادي صاحب الفرق بين الفرق[3] المتوفي سنة ٤٢٩ هـ ، وعلى عدد غيره من المؤلفين .

وصاحب الدعوة إلى هذه الفرقة جماعة منها ميمون بن ديصان المعروف بالقداح وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق . وأصله من الأهواز ببلاد الفرس . ثم دخل في دعوتهم حمدان قرمط ، ومن

(١) الفهرست : ٣٣٨ . وفي الفخري أن الذي اتهم بهذا فقتل هو ابنه ص ١٦٣ .
(٢) راجع أيضاً الفصل الخاص بالزنادقة في ضحى الإسلام ج ١
(٣) الفرق بين الفرق : ٢٨٢ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد

بعده أبو سعيد الجنابي . وانضم إلى الدعوة بعد ذلك عدد كبير يذكر البغدادي بعض دعاتهم .

وقد ظهرت هذه الدعوة أولا في زمن المأمون وانتشرت في زمان المعتصم . وكان ممن دخلوا في هذه الدعوة الأفشين قائد جيوش الدولة . وكان بينه وبين بابك الخرمي مؤامرة على الدولة وعلى الدين انكشف أمرها .

ويذكر البغدادي أن أصحاب هذه الدعوة لم يجدوا في أنفسهم الجرأة على إعلانها خوفا من بطش المسلمين بهم [1] . ولذلك كانوا يحتالون على الناس بالأساليب الملتوية ، والشعارات البراقة ليجروهم إلى معتقداتهم دون أن يدركوا أنهم ينساقون إلى هذه المخاطر .

وكان هؤلاء الباطنية يؤمنون بالزردشتية وعبادة النار . ولكنهم بطبيعة الحال لم يستطيعوا في مجتمع اسلامي إعلان ذلك . وأرادوا أن يسربوا إلى المسلمين في مساجدهم عادة إيقاد النيران على النحو الذي كان يفعله المجوس في معابد النار ، فاحتالوا على المسلمين حتى يضعوا في كل مسجد مجمرة يوضع عليها الند والعود ولا ينقطع عنها لتظل مشتعلة على الدوام . وكان آل البرامكة قد زينوا للرشيد مثل هذا ، ونصحوه أن يتخذ في جوف الكعبة مجمرة تشتعل فيها النيران وينطلق منها البخور دائما . ولكن الرشيد فطن إلى الهدف الخفي وراء هذه النصيحة ، ورفض أن تتحول مساجد المسلمين إلى بيوت نار . وكان هذا من أسباب غضبته عليهم .

وكان هؤلاء الباطنية يعمدون إلى تأويل أصول الدين تأويلات

---

(١) الفرق بين الفرق : ص ٢٨٤

تؤدي إلى الانحراف عنه ليسهل بعد ذلك إدخال الضالين والمنحرفين إلى عقائد المجوس وأحكامهم .

ومن مفاسد هؤلاء الباطنية في القضاء على الإسلام أنهم أباحوا نكاح البنات ، والأخوات ، واقتراف جميع اللذات . يقول بعض دعاتهم « ما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعى العقل ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة في حسنها فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبي ، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبي » [1] .

ويدل على إيمان هؤلاء الباطنية بالزردشية وتقديسهم للنار . أن بعض حكامهم كان يأمر بقطع يد من أطفأ نارا بيده ، وقطع لسان من أطفأ هذه النار بنفخة من فمه [2] . وكان أول زعمائهم ميمون بن ديصان مجوسيا من سبي الأهواز . كما أن هؤلاء الباطنية يدعون نبوة زرادشت ويزعمون نزول الوحي عليه من الله تعالى [3] . ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة فساسوا العامة بالنواميس والحيل طلبا للزعامة بدعوى النبوة والامامة [4] .

ثم إنهم تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلا يورث تضليلا ؛ فمعنى الصلاة عندهم موالاة إمامهم ، والحج في رأيهم زيارته والقيام بخدمته ، والصوم هو الإمساك عن إفشاء سر الإمام

---

(١) الفرق بين الفرق : ص ٢٩٧

(٢) نفس المصدر : ص ٢٨٦

(٣) نفس المصدر : ص ٢٩٥

(٤) نفس المصدر : ص ٢٩٦

دون الإمساك عن الطعام [1] .

ولهؤلاء الباطنية في اصطياد الناس حيل كثيرة يفصلها عبد القاهر البغدادي في كتابه [2] .

ولهؤلاء الباطنية أسماء وألقاب تختلف باختلاف الأقاليم ، فالشهرستاني في حديثه عن الاسماعيلية يذكر أن أشهر ألقابهم الباطنية ، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا . وهم بالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية وبخراسان التعليمية والملحدة [3] .

ومن أشهر دعاة هذه الفرقة الحسن بن الصباح . وهو فارسي من طوس . وكان الدافع لابن الصباح في اتجاهه إلى هذا الطريق طموحه الشخصي ورغبته في الانتقام لأهل ملته . وقد رحل الحسن من ايران سرا إلى مصر حيث اتصل بالخليفة الفاطمي المستنصر بالله الذي كلفه بنشر الدعوة في ايران . وبدأ الحسن يعمل أولا وفق المخطط المرسوم له من قبل الفاطميين في مصر حتى إذا قوى أمره في إيران ، ومات الخليفة المستنصر انفصل عن مركز الدعوة في مصر وبدأ يعمل لحسابه الخاص .

وهناك داعية اسماعيلي آخر هو ناصر خسرو .

ولد ناصر خسرو في ضواحي بلخ وعاش جانباً من حياته في عهد الدولة الغزنية ، ثم عاصر الدولة السلجوقية ، واشتغل مدة كاتباً

---

(١) الفرق بين الفرق : ص ٢٩٦
(٢) نفسه : ٢٩٨
(٣) الملل والنحل : ١٩٢/١ تحقيق كيلاني ١٩٦١

للديوان السلجوقي . وقام ناصر خسرو بعدد من الرحلات وزار بلاداً كثيرة من بينها مصر حيث التقى بأساتذة المذهب الإسماعيلي فلقنوه أصول هذا المذهب ، فلما عاد بعد ذلك إلى بلخ أخذ يبث هذه الدعوة الإسماعيلية هناك، فلقي مقاومة شديدة من الدولة السلجوقية اضطرته إلى الهروب والاختفاء . وكانت عقيدته موضع تجريح وطعن . ولا جدال في أن هذا التجريح والطعن كان لهما ما يبررهما من آراء ناصر خسرو نفسه ومن بعض أشعاره الإلحادية . وفضلا عن هذا فانه كان من المؤمنين بمذهب التأويل . وكتبه المختلفة مثل « زاد المسافرين » و « وجه دين » تنضح بتأييد عقائد الباطنيين . كما أن الشاعر يبالغ في الثناء على علي وشيعته والأئمة الفاطميين وعلى رأسهم الخليفة المستنصر كما يثني على سامان الفارسي والمختار .

وظاهر من هذا أن ناصر خسرو كان إيرانياً متعصباً . ولا شك في أن من كان مثله على هذه الدرجة من التعصب القومي يميل إلى الدعوات التي تحقق أهدافه القومية . وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف لم يجد مانعاً من تنكب طريق الدين الصحيح .

وظهر من المسلمين رجال دافعوا بقلمهم وفكرهم دفاعاً مجيداً عن الإسلام ، وكشفوا للناس أمر هؤلاء المضللين . ومن أشهر هؤلاء في تاريخ المسلمين؛

نظام الملك :

ونظام الملك إيراني الأصل ولد في طوس سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ونال من التعليم قدراً كبيراً جعله أهلا لتوجيه سياسة تلك الدولة العظيمة، ومع أنه إيراني إلا أنه أخلص في خدمة الدولة السلجوقية التركية . وكان

سني المذهب وعدواً لدوداً للشيعة والاسماعيلية منهم بوجه خاص .
ويبدو من هذا أن نظام الملك لم يكن يشعر بقوميته الإيرانية . ولا تعليل لذلك عندنا إلا استغراقه في الناحية الدينية استغراقاً وجه كل حماسه وهمته لخدمة الدين الإسلامي الذي يجمع بين المسلمين على اختلاف أوطانهم وقومياتهم . فكانت الرابطة الدينية عنده تغلب على النزعة القومية على عكس ما رأيناه عند الفردوسي مثلاً . وبسبب هذه النزعة الدينية الغالبة عليه يمكن أن نفسر إخلاصه للأتراك السلاجقة الذين قاموا هم أيضاً بدور كبير في خدمة الإسلام ، كما يمكن أن نفهم سر عداوته للملحدين والكفار وأصحاب البدع الذين يريدون هدم الإسلام وهدم الدولة الإسلامية .

وأعتقد أن موقف نظام الملك الإيراني من تدعيم أركان الدولة السلجوقية التركية ، واهتمامه بأمر الدين وحده ، وإهماله النزعة القومية قد ضايق العنصر الإيراني ودفعه إلى التخلص منه . وفي رأيي أن مقتل نظام الملك كان مظهراً لسخط العنصر الإيراني على الأتراك الذين كانوا يحتلون بلاده ، وعلى الذين عاونوهم على هذا الاحتلال ، ووطدوا لهم الحكم مثل نظام الملك . ولما كان الشعب الإيراني في ذلك الوقت عاجزاً عن الانتقام الإيجابي المباشر من هؤلاء الأتراك أو قتالهم ، وطردهم من البلاد لضعفه فقد لجأ إلى هذه الطريقة السلبية للتخلص من أعوانهم .

فالإيرانيون عامة كرهوا هذا الحكم التركي باعتباره حكماً دخيلاً يقوم على الاحتلال . والمارقون منهم بصفة خاصة عن دين الإسلام كرهوا أيضاً هذا الحكم التركي الذي يوطد أركان الإسلام في البلاد .

وسعى الفريقان ، الوطنيون والمارقون عن الدين ، للتخلص من هذا الحكم . وأصبحت بذلك الدولة السلجوقية الحاكمة هدفاً يراد تقويضه من الناحيتين السياسية القومية والدينية . وأصبح نظام الملك هو الآخر عدواً لدوداً للفريقين .

ومما يؤيد رأينا في أن قتل نظام الملك كان مظهراً من مظاهر الصراع القومي والديني بين الأتراك الحاكمين والإيرانيين المغلوبين على أمرهم ما يأتي :

١ — إن قاتل نظام الملك كان إيرانياً متحمساً ضللته طائفة الإسماعيلية ودفعته إلى ارتكاب هذه الجريمة .

٢ — بين نظام الملك والإسماعيلية عداوة سافرة فهو سني ، وهم شيعة . وكان نظام الملك يكرههم ، ويضيق عليهم ، ويتهمهم بالمروق عن الدين . والإسماعيلية باعتبارهم شيعة يميلون إلى الفرس . ونظام الملك لا يؤمن بالنزعة القومية الفارسية ويعادي الشيعة . وليس هناك ما يمنع من وجهة نظر هؤلاء الشيعة القوميين من أن يعملوا على التخلص من هذا الرجل الذي يدير شئون الدولة ، ويقف عقبة في سبيل سيادة العنصر الإيراني والمذهب الشيعي .

وقد ظهر هؤلاء الإسماعيلية عندما تأسست الدولة الفاطمية . وكان هؤلاء الفاطميون يصلون نسبهم إلى السيدة فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ . وهذا النسب لم يسلم من الطعن في صحته . وقد أعلن خصوم هؤلاء الفاطميين أنهم من ذرية الملحد الفارسي « عبد الله ابن ميمون القداح » . وإذا صح هذا النسب فمعناه أن الفاطميين من سلالة الفرس . ومن هنا نفهم لماذا كان يحرص هؤلاء الفاطميون أو الإسماعيلية على القضاء على نظام الملك . صحيح أن نظام الملك قد لا

يكون مقصوداً لذاته، ولكن الواضح أنه كان ركن هذه الدولة التركية وقد يكون في القضاء عليه زعزعة لبنيانها .

٣ — كان نظام الملك يقاوم الدعوات الهدامة التي بدأت تنتشر في بلاده . وكان يعتبر دعوة هؤلاء الإسماعيلية أو الحشاشين من تلك الدعوات التي يجب القضاء عليها . وكان اهتمام الدولة الفاطمية بنشر دعوتها في البلاد الإسلامية — وخاصة في إيران — دليلا على رغبتها في تقويض الاتجاه المذهبي السائد في إيران أيام السلاجقة ثم تقويض النظام كله فيما بعد بالقضاء على الحكم التركي وإحلال الحكم الإيراني محله . ولم يخف على الفاطميين خطورة نظام الملك على اتجاهاتهم المذهبية والسياسية . وكان الرجل يقاومهم بكل سلاح إيماناً منه بأنهم يفسدون في الدين والأرض . وعلى العموم كان يشكل خطراً كبيراً عليهم .

وفي « سياست نامه » فصول كثيرة يهاجم فيها نظام الملك هؤلاء المفسدين . ففي الفصل الثالث والأربعين يكشف أحوال هؤلاء المفسدين الذين هم أعداء الملك والإسلام [١] . ويصفهم بأنهم يهاجمون الدولة إذا عرض للدولة عارض من الضعف . وهم يخرجون على الدولة في ذلك الوقت ، ويدعون التشيع وتزداد قوتهم . وهم لا يتركون وسيلة من وسائل الإفساد إلا اتبعوها من قبيل القيل والقال وإحداث البدع . وهم يدعون الإسلام بالقول، ويفعلون أفعال الكفار . وباطنهم بخلاف ظاهرهم . وقولهم بخلاف عملهم . وليس هناك عدو أخبث منهم ولا أشأم منهم على دين محمد المصطفى ﷺ . ويذكر نظام الملك أنه يرغب في هذا الفصل من كتابه أن يبين للسلطان كم خرجوا على الدولة ، وكم سفكوا ، وكم أفسدوا ، ولكنه لن

(١) سياست نامه : ص ١٦٤ ط شيفر

يستطيع أن يفعل ذلك بالتفصيل . ولهذا فهو يكتفي بالقليل منه حتى يعلم السلطان أمرهم من بدايته إلى نهايته .

ويرد نظام الملك أصول هذه الدعوات الهدامة إلى المذاهب الإيرانية القديمة كمذهب مزدك . ويعقد فصلاً خاصاً عن خروج مزدك ويشرح مذهبه وكيف كان مقتله على يد أنوشيروان العادل . وغرضه من سرد قصة مزدك وشرح مذهبه أن يعلم الناس والسلطان الأصول الخبيثة التي تنطوي عليها دعوتهم حتى يتعظ بها العقلاء ويتذكروها [١] .

وفي الفصل الخامس والأربعين يتحدث نظام الملك عن خروج سنبادگبر على المسلمين من نيشابور إلى الري وفتنته [٢] .

وفي الفصل السادس والأربعين يتحدث نظام الملك عن خروج الباطنية في خراسان وما وراء النهر [٣] .

وفي الفصل السابع والأربعين يتعرض نظام الملك لخروج الباطنية في خراسان وما وراء النهر [٤] . ويختم هذا الفصل بالإشارة إلى أن هؤلاء الباطنية ، ومن شاكلهم من الخرمية ، كانوا يسعون إلى القضاء على الإسلام . ويذكر أن هؤلاء الملحدين كانوا يتظاهرون بمحبة آل الرسول عليه السلام حتى يصيدوا الناس ويجذبوهم إلى مبادئهم الهدامة ، فإذا قوي أمرهم ، وطووا الناس تحت جناحهم بذلوا جهدهم حتى يقضوا على الشريعة . فهم في الحقيقة أعداء آل الرسول : وليس عندهم

---

(١) سياست نامه : ص ١٦٦
(٢) نفس المصدر : ص ١٨٢
(٣) « « : ص ١٨٣
(٤) « « : ص ١٨٧

رحمة على أحد . وليس هناك قوم من الكافرين أقسى قلوباً منهم .

ومن قراءة هذه الفصول يتضح أن نظام الملك كان يتهم هؤلاء الإسماعيلية صراحة بالكفر والمروق عن الدين، وإفساد الناس والمجتمع، وأنهم إنما كانوا يدعون التشيع ليتقربوا به إلى الناس، ويضموهم إلى صفوفهم ، بينما هم في الحقيقة يخفون مذاهب ترجع في أصولها إلى تلك المذاهب الهدامة التي عرفها المجتمع الإيراني قبل الإسلام وبعده كالمزدكية والخرمية والباطنية وغيرها .

وفيما كتبه نظام الملك ما يدل على أنه فهم هؤلاء القوم على حقيقتهم، وكشف ألاعيبهم أمام الناس والسلطان .

الغزالي :

ويأتي أبو حامد الغزالي — وهو الآخر من معاصري هذه الأحداث — المتوفي في سنة ٥٠٥ هـ فيكشف كثيراً من أساليب هؤلاء الباطنية في رسالته « فضائح الباطنية » .

يتحدث الغزالي عن بيان الباعث للباطنية على نصب هذه الدعوة، وإفاضة هذه البدعة فيقول؛ إن الذين يدعون هذه الدعوة الباطنية لا ينتسبون إلى ملة، وإن غاية هذه الدعوة « الانسلال من الدين كانسلال الشعرة من العجين » . وإن القائمين بأمرها طائفة من المجوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية الملحدين [١] .

وفي موضع آخر يذكر الغزالي أن من حيل هؤلاء الباطنية لاستدراج الناس حيلة التشكيك . وتقوم هذه الحيلة على تشكيك الناس في دينهم ، وإثارة الأسئلة المحيرة في شئون الدين ليتزعزع إيمانهم ومعتقدهم .

(١) فضائح الباطنية : للغزالي ص ١٨ نشر وزارة الثقافة

ومن أمثلة ما يفعلونه في هذا الباب — باب التشكيك — أن يسأل الداعي مثلا ما بال الحائض تقضي الصوم دون الصلاة ؟ ما بال الاغتسال يجب من المني الطاهر ولا يجب من البول النجس ؟ ما بال أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة ؟ . . الخ هذه الأسئلة المحيرة ويقول الغزالي « ولا يزال يورد عليه هذا الجنس حتى يشككه »[1]

وفي موضع ثالث يبين الغزالي السبب في رواج حيلة هؤلاء الباطنية، وانتشار دعوتهم مع ركاكة حجتهم وفساد طريقتهم[2] فيقول إن الذين يستجيبون لهؤلاء الباطنية أصناف :

الصنف الأول : طائفة ضعاف العقول .

الصنف الثاني : طائفة الموتورين الذين جاء الإسلام فقضى على أمجادهم القديمة فزال عنهم المجد، وزالت عنهم الدولة كأبناء الأكاسرة والدهاقين وأولاد المجوس . فهؤلاء موتورون اشتعلت نيران الحقد في قلوبهم فهم ينتهزون كل فرصة ويتبعون كل وسيلة للانتقام وطلب الثأر .

الصنف الثالث : طائفة الطموحين الذين يتطلعون إلى المجد والاستعلاء فهؤلاء يسارعون إلى اعتناق كل مذهب إذا وعدوا بتحقق آمالهم .

الصنف الرابع : طائفة الذين يحبون أن يتميزوا على سائر الناس فيتبعون الضلالات ويروجون الأمور التي تخالف ما عليه آراء الناس ليعرف اسمهم وينشر ذكرهم .

---

(١) فضائح الباطنية : ص ٢٦
(٢) نفسه : ص ٣٣

الصنف الخامس : طائفة الذين يسلكون طريق النظر وإعمال الفكر، ولكنهم لم يصلوا بعد إلى مرحلة النضج والاستقلال في الرأي .

الصنف السادس : طائفة الملحدين من الفلاسفة والثنوية والمتحيرة .

الصنف السابع : طائفة المنحلين وأرباب الشهوات . وهؤلاء يثقل عليهم القيام بالفروض والتكاليف ، ولذلك فهم يروجون للباطنية وغيرها من المذاهب الهدامة التي ترفع عنهم التكاليف ، وتعفيهم من أداء الفروض، وتيسر لهم سبيل الشهوة واللذة .

الشهرستاني :

وهناك مؤلف رابع جاء بعد البغدادي ونظام الملك والغزالي هو الشهرستاني صاحب الملل والنحل المتوفي ٥٤٨ ه . وهو يتحدث عنهم بما لا يخرج عمّا ذكرنا . وهذا يبين بوضوح الأصول التي يستند إليها الإسماعيلية أو الباطنية في دعاواهم .

البابية أو البهائية :

ومما يتصل بالباطنية . وبأديان الفرس القديمة الديانة البابية . ومؤسس هذه الدعوة علي محمد من مواليد شيراز سنة ١٨١٩ . تعلم قليلاً من مبادىء اللغتين الفارسية والعربية. ثم انتقل إلى العمل في متجر خاله الذي كان يرعاه . ولكنه كان ميالا إلى الرياضات الروحية العنيفة . فكان يصعد إلى سطح الدار حيث يقضي ساعات الظهيرة عاري الرأس تحت الشمس المحرقة . وقد لاحظ عليه خاله هذا الشذوذ وحاول أن يمنعه عنه لكنه لم يرفق . واستمر علي محمد في مسلكه هذا

حتى اضطرب عقله . وقد أظهر من التقشف والزهد ما خدع بعض البسطاء فيه . وكان إذا أنس إلى أحدهم أسر اليه القول « ادخلوا البيوت من أبوابها » . ومن أراد دخول الجنة فعليه أن يعرف الطريق إلى بابها . وهو — أي صاحب الدعوة — الباب الذي يفضي إلى الجنة . ومن هنا سمي الباب وعرف مذهبه بالبابية .

وكان مما يهذي به إلى أتباعه أنه أفضل من محمد ، وأن قرآنه أفضل من قرآن محمد ، وأن البشر إذا كانوا قد عجزوا عن أن يأتوا بسورة من سور القرآن فهم أعجز عن أن يأتوا بحرف من حروف قرآنه .

وألف الباب كتاباً لأتباعه سماه « البيان » ادعى أنه أفصح عبارة من القرآن وأن أحكامه ناسخة لأحكام القرآن .

ولما ازداد أتباعه بدأ يبعث برسله إلى المدن المختلفة في ايران لدعوة الناس إلى الإيمان به والدخول في دينه .

وكان من أبرز أتباعه رجل من خراسان اسمه ملا حسين بشرويه . وتقديراً من الباب لشأن هذا الرجل، وأهميته في الدعوة إلى البابية خلع عليه لقب « باب الباب » .

وكان من جملة من آمن به والتف حوله امرأة بارعة الجمال اسمها « زرين تاج » أي صاحبة التاج الذهبي . ويلقبها البابية أيضاً بدر الدجى . وكان الباب يسميها « قرة العين » .

وقد نشأت قرة العين نشأة دينية في بيت طيب فحفظت القرآن ، وبرعت في العلوم الإسلامية . وكان لها في أبيها وعمها وزوجها أسوة حسنة . ولكنها مع ذلك انحرفت عن الطريق السوي ومالت إلى الباب

عندما سمعت بأمره . وكانت إلى جمالها وحسنها متحدثة بارعة ساحرة البيان ، قوية الحجة ، تستميل إليها النساء والرجال .

ولكي تنطلق في طريقها الجديد ، طريق الإباحة والانحراف دون رقيب، دبرت مؤامرة للتخلص من أبيها وعمها وزوجها . ونجحت مؤامرتها مع عمها إذ قتله أعوانها وهو يصلي بالناس بينما نجا أبوها وزوجها .

وهاج الناس وثاروا لمقتل هذا العالم الفاضل فلم تر قرة العين بدا من الفرار خوفاً على حياتها .

كانت قرة العين تدعو لتعاليم صاحبها وزعيمها الباب ، فنادت بأن الشريعة البابية قد نسخت الشريعة المحمدية ، وأن الناس بظهور الباب قد سقطت عنهم الفرائض والتكاليف التي جاءهم بها الإسلام .

وكانت قرة العين تنادي باشتراك الناس في المال والنساء . فلا يحل لأحد أن يدخر مالاً أو ينتفع به وحده ويحرم غيره منه . والمرأة في رأيها كالزهرة لا ينبغي أن ينفرد واحد بقطفها أو شمها . وكما أن الزهرة إذا تعدد قاطفوها وشاموها كانت المتعة بها أكبر والنفع بها أعظم ، فكذلك المرأة خلقت والكل يشتهي أن يشمها ويضمها . ولهذا فلا يحق لرجل أن يستأثر وحده بامرأة . وكما تهدي الزهرة للصحاب تهدي المرأة أيضاً للأحباب .[1]

وأمام هذه الإباحة الهدامة لم تجد الحكومة بداً من القضاء عليها وإلقاء جثتها طعمة للنيران . وكذلك لقي الباب نفس المصير إذ قرر

---

(١) مفتاح باب الأبواب : للدكتور ميرزا محمد مهدي خان ص ١٨١ . ط أولى . المنار بمصر ١٣٢١هـ .

الشاه ناصر الدين إعدامه في يوليو ١٨٤٩ ، ومطاردة أتباعه في كل مكان للقضاء عليهم ، ووقاية البلاد من شرورهم وفتنتهم .

وأشهر خلفاء الباب ، بهاء الله . ولهذا تسمى هذه الدعوة باسم البابية أو البهائية . وقد ادعى بهاء الله هذا أن النور الإلهي حل فيه وتلقب بمنظر الله . وزعم أن ذات الله تتجلى فيه كما تتجلى صورة الإنسان في المرآة ، فقدسه أتباعه ووضعوا الأناشيد في مدحه ، كما وضع هو لنفسه كتاباً بالفارسية سماه الكتاب الأقدس تفضيلاً له على غيره من الكتب المقدسة عند المسلمين والمسيحيين .

وتختلط تعاليم هؤلاء البابية بالباطنية والديانات الفارسية القديمة كالمزدكية . وقد رأينا من قبل أن قرة العين كانت تدعو إلى الإباحة في المال والنساء كما كانت تدعو الديانة المزدكية .

وكانوا يعتقدون اعتقاد الباطنية في أن لكل شيء ظاهراً وباطناً ، ولذلك كانوا يؤولون آيات الكتاب الكريم وفق هواهم ، ويفعلون كما كان يفعل الباطنية الذين زعموا أن للقرآن ظاهراً وباطناً . فأما الظاهر فهو ما يأخذ به عامة المسلمين ، وأما باطنه فهو ما اختص به زعماؤهم وأقطابهم . ولا يعلم إلا الله حقيقة هذا الباطن ولكنه باب واسع يفتحونه ليدخلوا منه كل ما يريدون من تعاليمهم وأهوائهم .

وهم ينكرون الجانب الالهي في النبوة حين يزعمون أن النبي إنسان تجمعت فيه مجموعة من الصفات رشحته لهذه النبوة . وما دام الأمر كذلك — في زعمهم — فإن كل من توفرت فيه هذه الصفات يمكن أن يكون نبياً . وبهذا المنطق تتحقق النبوة لزعيمهم .

وعندهم صلاة . ولكنها ثلاث مرات كل يوم . وقبلتهم في

صلواتهم مدينة عكا حيث دفن بهاء الله .

وعندهم صوم شهر كامل . ولكن الشهر عندهم تسعة عشر يوماً تنتهي بعيد الفطر الذي يقع في عيد النوروز . وهو رأس السنة عند الايرانيين . (٢١ مارس) .

وعندهم حج . ولكنه الحج إلى الدار التي ولد فيها زعيمهم علي محمد بشيراز . وليس لهذا الحج عندهم وقت معين .

وفي الميراث تقرر شريعتهم المساواة بين الذكر والأنثى .

* * *

جهود بناءة :

إلى جانب هذا كان للفرس دور بناء في إقامة صرح الحضارة الاسلامية ، فمنذ أن هداهم الله إلى الإسلام أقبل المخلصون منهم على دراسة الإسلام وعلومه حتى برعوا في هذا المجال . وكانت العلوم الإسلامية أبرز مظاهر نشاطهم . وحسبنا هنا أن نثبت هذا الحوار الذي أورده صاحب العقد الفريد « قال ابن ابي ليلى : قال لي عيسى ابن موسى ، وكان جائراً شديد العصبية ، من كان فقيه البصرة ؟ قلت الحسن بن أبي الحسن . قال : ثم من ؟ قلت : محمد بن سيرين . قال : فما هما ؟ قلت موليان . قال : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء بن أبي رباح ، ومجاهد بن جبر ، وسعيد بن جبير ، وسليمان بن يسار . قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موالي ، قال فمن فقهاء المدينة ؟ قلت : زيد بن أسلم . ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن أبي نجيح . قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موالي . فتغير لونه ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟

قلت : ربيعة الرأي وابن ابي الزناد . قال : فما كانا ؟ قلت : من الموالي . فاربد وجهه ثم قال : فمن كان فقيه اليمن ؟ قلت : طاووس وابنه، وهب بن منبه . قال : فما هؤلاء ؟ قلت : من الموالي . فانتفخت أوداجه، وانتصب قاعداً ثم قال : فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت : عطاء بن عبدالله الخراساني . قال : فما كان عطاء هذا ؟ قلت : مولي . فازداد وجهه تربدا واسود اسوداداً حتى خفته . ثم قال : فمن كان فقيه الشام ؟ قلت : مكحول . قال : فما كان مكحول هذا ؟ قلت : مولى . فازداد تغيظاً وحنقاً ثم قال : فمن كان فقيه الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران . قال : فما كان ؟ قلت : مولي . فتنفس الصعـــداء ثم قال : فمن كان فقيه الكوفة ؟ قال : فوالله لولا خوفه لقلت : الحكم بن عيينه ، وعمار بن أبي سليمان ، ولكن رأيت فيه الشر فقلت : ابراهيم والشعبي . قال : فما كانا ؟ قلت : عربيان . قال الله أكبر . وسكن جأشه [1] .

والقصة ، على ما بها ، تدل على تفوق الموالي في هذا الميدان . يضاف إلى هذا ما ساقه ابن قتيبة في المعارف في فصول كثيرة : عن أصحاب الرأي ، وأصحاب الحديث ، وأصحاب القراءات . . الخ ، ففي هذا كله ما يدل على الدور البناء الذي أسهموا به في خدمة الإسلام . وإذا كان العرب قد أهدوهم الإسلام فقد قام هؤلاء على خدمته ورعايته على خير وجه .

ونتج عن اشتغال هؤلاء الموالي بهذه العلوم الاسلامية ظهور اتجاه فكري يتناول هذه المسائل بطريقة تختلف عن طريقة العرب . فالعربي في شدة غيرته على الدين والتقاليد الإسلامية يتمسك بالأصول والفروع

---

(١) العقد الفريد : ٣/٤١٥ ط لجنة التأليف ١٩٤٢ . القاهرة

وبكل ما ورثه عن السلف ، ويرى حرجاً شديداً في الخروج عليه، ويعمل وفق ما جاءه من تعاليم السلف . وهذا الاتجاه هو المعروف باتجاه أهل الحديث . وأصحاب هذا الاتجاه يصدرون أحكامهم بناء على ما لديهم من نصوص . وزعماء هذا الاتجاه مالك ، والشافعي ، وأحمد ابن حنبل . وأما الاتجاه الثاني فيمثله الفرس . والفارسي حين يتناول المسائل الدينية ينظر اليها نظرة عقلية، ولا يرى مانعا من إعمال العقل، وإبداء الرأي، واستخدام القياس للوصول إلى أحكام جديدة . ويعرف أصحاب هذا الاتجاه بأهل الرأي والقياس . وزعيمهم أبو حنيفة النعمان . وكان لمدرسة أبي حنيفة ، وهي مدرسة القياس شأن كبير في العهد العباسي ، فقد مال الخليفة العباسي المنصور اليهم لأسباب سياسية ، فأتباع هذه المدرسة من أهل العراق ، وهم من الفرس الذين أيدوا الدولة ونصروها . هذا بالاضافة الى أن الإمام مالكاً في المدينة كان قد افتى بخلع المنصور ، ومبايعة محمد بن عبدالله من آل علي . فوجد عليه المنصور ، ورأى أن يؤيد فقهاء العراق وهم أهل الرأي والقياس ، وأن يقدمهم على فقهاء الحجاز .

ويبدو أن المنافسة بين أتباع هاتين المدرستين قد انتقلت الى الشعر والشعراء فرأينا شاعرا يفتخر بأبي حنيفة واتجاهه فيقول :

إذا ما الناس يوما قايسونا ... بآبدة من الفتيا طريفه
أتيناهم بمقياس صحيح ... تلاد من طراز أبي حنيفه

فيجيبه مجيب من أصحاب الحديث :

إذا ذو الرأي خاصم عن قياس
وجاء ببدعة هنة سخيفة

أتيناهم بقـــول الله فيهـــا
وآثـــار مبرزة شريفـــة [١]

❋ ❋ ❋

ودور الفرس في نهضة العلوم الاسلامية كالفقه ، والحديث والتفسير . أو العلوم العربية كالبلاغة ، والنحو أمر معروف أتجنب تكراره هنا . وأكتفي بالإشارة العابرة إلى موضوعات أخرى قد تكون أقل استفاضة في المؤلفات المختلفة .

من هذه الموضوعات التنظيمات الإدارية عند الفرس التي أفاد منها المجتمع الاسلامي كتدوين الدواوين . وكانت الغنائم قد ازدادت في بيت المال ، فرأى عمر أن يفرقها على المسلمين ، ولكنه لم يهتد إلى الطريقة التي يضبط بها الأمر ، فأشار عليه بعض مرازبة الفرس أن يستخدم الديوان كما كان الفرس يفعلون . فأعجبت الفكرة عمر ، وأمر بتدوين الدواوين . وكانت دواوين العراق تدون في أول أمرها بالپهلوية (لغة الفرس قبل الاسلام) وظلت كذلك حتى زمان الحجاج بن يوسف الثقفي الذي أمر أن تحول إلى العربية . وتولى هذه المهمة صالح بن عبد الرحمن . ولم يكن العنصر الايراني راضيا عن صالح ، ولا عن المهمة التي أخذها على عاتقه ، فقد كان معنى ترجمة الديوان إلى العربية القضاء على ما تبقى من وجود اللغة الپهلوية فضلا عما يتبع الترجمة إلى العربية من الاستغناء عن العنصر الايراني نفسه . وقد حاول الإيرانيون أن يثنوا صالحا عن المضي في هذه المهمة . ويذكر البلاذري أنهم بذلوا له مائة ألف

---

(١) المعارف : لابن قتيبة ص ٢١٦

درهم ليظهر العجز عن نقل الديوان وينصرف عنه لكنه أبى [1]

* * *

كذلك انتشرت في قصور الخلفاء العباسيين الأزياء والملابس الفارسية . وكانت القلنسوة في البلاط العباسي لباسا رسميا . وقد أمر المنصور باستخدامها ولبسها ، فقال الشاعر أبو دلامة في هذا الشأن : —

وكنا نرجى من إمام زيـــادة
فزاد الإمام المصطفى في القلانس
تراها على هام الرجال كأنها
دنان يهود جللت بـــالبرانس

وكان الرشيد يكره الملابس المحلاة بالنقوش الذهبية على نحو ما كان يفعل ملوك الساسانيين ، كما كره اتخاذ القلانس ، ولكن المعتصم أعاد لبسها ، فلبسها الناس اقتداء به . وسميت في عهده بالمعتصميات . وانتشرت هذه القلانس في العالم الاسلامي حتى لبسها أهل مصر حوالي ٢٣٠ هـ [2] . وأجرى المعتصم تعديلا عليها فصغرها بعد أن كانت طويلة حتى لا تشبه قلانس القضاة . وإلى جانب القلانس لبس الناس الدراريع وهي ثياب مشقوقة من الصدر . واختص بلبسها الكتاب . أما العلماء فقد لبسوا مع القلنسوة الطيلسان . وكان القواد يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة . وانتشر استخدام

---

(١) فتوح البلدان : ٣٠٩

(٢) الحضارة الاسلامية : ٢/٦٤ ، لآدم متز وترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة ط. ثانية ١٩٤٨ لجنة التأليف . القاهرة .

القباء حتى صار لباسا رسميا لرجال الدولة حوالي عام ٣٠٠ هـ ، ثم حل محله لبس الخفتان [١] ، وانتشر لبسه في بعض أنحاء العالم الاسلامي كالشام ومصر [٢] .

* * *

وعرف المجتمع الاسلامي بعض أطعمة الفرس . وكان العرب في عهد الراشدين يتحاشون الرفاهة والتنعم وكثرة الأكل خوفا مما تجره هذه من الدعة، والكسل، وفقدان اللياقة البدنية التي هي سمة الجندي العربي المجاهد . وكانوا يقلون من أكل اللحم اعتقادا منهم بضرر اللحم الكثير . وكان عمر بن الخطاب يقول : مدمن اللحم كمدمن الخمر . فلما جاء العهد الأموي، وخالط العرب غيرهم من الشعوب كالفرس والروم بدأت ألوان من الترف تتسرب إليهم . وكانوا إذا أقام أحدهم حفلا أو وليمة سأل عما كانت الفرس تفعله في هذه المناسبة . ويروى ابن خلدون أن الحجاج بن يوسف أولم وليمة لختان أحد أولاده فاستحضر أحد الدهاقين وسأله عن ولائم الفرس وكيف كانت ، فوصف له الدهقان إحدى هذه الولائم : « شهدت أيها الأمير بعض مرازبة كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعا أحضر فيه صحائف الذهب على أخونة الفضة أربعا على كل واحد ، وتحمله أربع وصائف . ويجلس عليه أربعة من الناس فاذا أطعموا اتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها »

---

(١) يقال له القفطان

(٢) الحضارة الإسلامية : آدم متز ٢/١٦٦ .

فلما سمع الحجاج ذلك لستهوله وغلبت عليه البداوة فقال يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس [1] . وازداد مع الوقت اهتمام الخلفاء والأمراء بمظاهر الترف حتى كان بعضهم إذا جلس إلى الطعام وقف الأطباء بين يديه ومعهم الأدوية الهاضمة الفاتحة للشهية . وانتشرت هذه العادة بين الأمراء والكبراء حتى كانوا يستشيرون الأطباء فيما يأكلون أو يشربون . وكان سيف الدولة إذا جلس إلى المائدة شهدها معه أربعة وعشرون طبيبا [2] .

ومن الأطعمة التي انتشرت بينهم عن الفرس السكباج وهو نوع من المرق والخل توضع فيه اللحوم المطبوخة .

وأما الفالوذج أو الفالوذق فيقال إن أول من عرفه ونقله إلى العرب عبد الله بن جدعان . وكان ابن جدعان من سادات قريش وفد على كسرى فأكل عنده الفالوذ ، فأعجبه ، وسأل عنه ، فقالوا لباب البر بلبك بالعسل ، فطلب منهم أن يأتوه بغلام يجيد صناعته، وصحبه معه إلى مكة حيث صنع الفالوذج، ومد الموائد، وأمر مناديه أن ينادي من فوق داره « الا من أراد الفالوذ فليحضر » فحضر الناس وكان من بينهم أمية بن أبي الصلت الذي قال في تحية الداعي بهذه المناسبة :

ومالي لا أحييه وعندي مواهب يطلعن من النجاد
إلي وإنه للناس نهي ولا يعتل بالكلم الصوادي

(١) ابن خلدون : ١٤٥/٨
(٢) طبقات الأطباء : ١٧٥/١
(٣) الأغاني : ٨/ ٣٢٠ ط دار الكتب ١٩٣٥ القاهرة .

إلى رُدْحٍ من الشيزى ملاء لباب البر يلبك بالشهاد [1]

* * *

وللفرس مشاركة في مجال العمارة والبناء . وهناك من النصوص ما يدل على هذا ، فابن الأثير مثلا في وقائع ١٧ ﻫ يذكر « وبنوا لسعد دارا بحياله وهي قصر الكوفة اليوم بناه روزبه من آجر بنيان الأكاسرة في الحيرة ». ويقول الطبري أيضا في حوادث نفس السنة ما مؤداه أن سعدا بنى قصرا بحيال مسجد الكوفة اليوم، وجعل فيه بيت المال. ثم إن بيت المال نقب عليه، وأخذ من المال، فكتب سعد إلى عمر يخبره خبر سرقة بيت المال . وفي هذه الفترة تقدم لسعد دهقان من أهل همدان يقال له روزبه بن بزر جمهر وقال أنا أبنيه لك (يقصد بيت المال)، وأبني لك قصرا فأصلهما، ويكون بنيانا واحدا . فخط قصر الكوفة على ما خط عليه، ثم أنشأه من نقض آجر قصر كان للأكاسرة في ضواحي الحيرة . وواضح من النص أن روزبه هذا كان مهندساً معماريا له شأن في هذا الفن .

* * *

وفي مجال الغناء والموسيقى زود الفرس المسلمين بقدر كبير مما كان لديهم في هذين الفنين . وكان نصيب العرب في جاهليتهم من فن الغناء والموسيقى بسيطا لا يتجاوز الحداء يترنمون به على ظهور الابل في رحلاتهم الطويلة لحث الإبل على الجد في سيرها

---

(١) الأغاني : ٣٢٩/٨ ط . دار الكتب ١٩٣٥ . القاهرة .

وتخفيف الملل الذي يعانيه السائر في مثل تلك الصحاري ، أو الهزج وهو الغناء الذي يرددونه في سمرهم ورقصهم . وكانت آلات الموسيقى لا تعدو الدف والمزمار .

ويعتبر نشيط المغني الفارسي نقطة تحول في الغناء العربي فإنه عندما قدم المدينة — في عهد الأمويين — أعجب الناس به إعجابا شديدا وعلى رأسهم عبد الله بن جعفر . وقد شهد سائب خاثر ما لقيه هذا المغني من إعجاب الناس فحرك ذلك غيرته — وكان لا يزال مغنيا بسيطا مبتدئا يستخدم قضيبا يقرعه كلما غنى — فأخذ الألحان الفارسية وركبها على شعر عربي وبدأ يغنيها . وكان أول ما غناه : —

لمن الديار رسومها قفر   لعبت بها الأرواح والقطر

واستطاع سائب خاثر باللحن العذب، والصوت الجميل أن ينال اعجاب الناس والخلفاء في المدينة والشام .

وعن سائب هذا تلقى كثير من أوائل المغنين أصول فنهم . فهذه جميلة — وكانت كما يروى صاحب الأغاني أعلم خلق الله بالغناء — قد سئلت كيف وصلت إلى هذه الدرجة في فن الغناء . قالت : إنها تلقت أصول هذا الفن من سائب خاثر الذي كان جارا لنا ، وكانت تسمعه يعزف ويغني ، فالتقطت منه ألحانه ، وبنت عليها غناءها .

وممن أخذ عن الفرس أيضا سعيد بن مسجح . يصفه صاحب الأغاني بأنه « مكي أسود ، مغن متقدم من فحول المغنين وأكابرهم

وأول من صنع الغناء منهم . ونقل غناء الفرس إلى غناء العرب » .

سافر سعيد إلى بلاد الروم، ثم إلى بلاد الفرس، وأفاد مما عند هؤلاء وهؤلاء من فنون الغناء والموسيقى . وعاد بعد ذلك إلى الحجاز فاختار من كل ما حصله من الأنغام والألحان أحسنه مما يتفق والذوق العربي، وأهمل ما عداه . ويقال في بدء اتصاله بالغناء الفارسي أنه مر بجماعة من الفرس يشتركون في بناء المسجد الحرام كان ابن الزبير قد استقدمهم فسمع غناءهم بالفارسية، وقلبه في شعر عربي .

ومن آلات الموسيقى التي عرفها المسلمون البربط ، وتشبه إلى حد كبير العود المستخدم في وقتنا الحاضر ، وآلة السنطور وكانت منتشرة في العراق حتى عهد قريب . وينسب اختراعها إلى بربد مغني كسرى أنو شروان .

وكان تنظيم مجلس الغناء في العهد العباسي شبيها بما كان عليه في عهد الساسانيين . ومن نص لابن البلخي [1] نرى كيف كان هذا المجلس ينتظم في بلاط كسرى أنو شروان ؛ إذ كان لكل واحد من المدعوين مقعد خاص به يلتزم الجلوس عليه في كل احتفال فلا يجلس عليه غيره ، وكان موقع هذا المقعد في المجلس يختلف قربا أو بعدا من مجلس كسرى تبعا لمكانة الجالس عليه . وكان الملك إذا غضب على واحد من مدعويه أمر فرفعوا كرسيه من المجلس . وكان هذا النظام معمولا به إلى حد كبير في العهد العباسي كما نرى ذلك أيضاً في مواضع متفرقة من مروج الذهب للمسعودي .

---

(١) فارس نامه

الأعياد الفارسية :

أشهر هذه الأعياد عند الفرس عيد النوروز . وكان أشهر الأعياد أيضا التي يحتفل بها في العالم الاسلامي . وكنا في بحثنا « الأعياد الفارسية في العالم الاسلامي »[1] قد تحدثنا عن هذا العيد بكثير من التفصيل وأسهبنا في بيان آثاره في المجتمعات الإسلامية . ولا نرى هنا ضرورة لمثل ذلك التفصيل والإسهاب . ويكفينا أن نعرض له هنا عرضا موجزا باعتباره تتمة واجبة لموضوع حديثنا .

كان من عادة ملوك الفرس في هذا العيد أن يتلقوا هدايا غيرهم من الملوك ويتقبلوا هدايا رعيتهم، لا فرق في ذلك بين الخاصة والعامة .

وكان أفراد الشعب يهدون ملكهم مما يملكون مهما يكن قدره ، فجرت عادة القواد والمرازبة والأساورة أن يهدوا النشاب والأعمدة المصمتة[2] من الذهب والفضة . وجرت عادة الوزراء والكتاب والأشراف أن يهدوا جامات الذهب والفضة المرصعة بالجوهر . وكان الحكماء يهدون الحكمة ، والشعراء الشعر ، وأصحاب الجوهر الجوهر. وهكذا كان كل فرد يهدي مما عنده ولو كان دينارا أو درهما أو اترجه أو سفرجلة أو تفاحة .[3]

وكل هدية تقدم الى الملك في هذا العيد تقيد لصاحبها في الديوان

---

(١) راجع مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية . المجلد السابع عشر سنة ١٩٦٣ ، وراجع أيضا النوروز في الآداب الاسلامية للمؤلف وهو تتمة للبحث .

(٢) العمود من آلات القتال عند الفرس القدماء ويسمى أيضا الجزر (كرز) والدبوس . ويعلق العمود في حلقة السرج .

(٣) المحاسن والأضداد : ص ٢٨٢

مهما يكن قدرها . وترد هذه الهدية إلى صاحبها أضعافا مضاعفة إذا أصابه ضيق واحتاج إلى المال . وعلى كل من قدم هدية أن يأتي ديوان الملك إذا نابته نائبة، ويعرض أمره على القائم بإثبات هذه الهدايا في الديوان ، فيقدم له بأمر الملك الإعانة المطلوبة .[1]

وكان من عادة ملوك العجم ألا يحتفظوا في خزائنهم بالكسوة من فصل إلى فصل كما يفعل عامة الناس ، فكانوا إذا جاء النوروز فرقوا ما عندهم من كسوة الشتاء ، واذا أقبل المهرجان وزعوا ما لديهم من كسوة الصيف .[2]

والخروج إلى البساتين والحدائق أمر شائع عند الملوك والشعب في هذا العيد ؛ فكان كسرى پرويز مثلا يخرج إلى بستانه كل نوروز ليقضي هناك أسبوعين في قصف ولهو . وفي هذا البستان اكتشف « پرويز » مغنيه المشهور في تاريخ الغناء والموسيقى الإيرانية « باربد » على نحو ما ترويه الشاهنامه .[3]

وكان وجوه الناس يدعون إلى الموائد الملكية التي تقام في عيد النوروز أو غيره ؛ ويدخلون الأبواب على طبقاتهم ، ثم يتخذ كل منهم مكانه على المائدة حسب درجته . ويقف الخدم من ورائهم لخدمتهم . ويتصدر الملك الإيوان بحيث يرى جميع المدعوين . وإذا انتهوا من طعامهم داروا عليهم بأقداح الشراب من فضة أو ذهب. وكانت الأقداح الذهبية تقدم للطبقة العليا ، ولمن دونهم تقدم أقداح الفضة . وكانت هذه الأقداح والكئوس من الروعة بحيث أغرت

(١) التاج : ص ١٤٩ ط الأميرية ١٩١٤
(٢) نفسه : ص ١٥٠
(٣) شاهنامه : ج ٩ / ٢٨٨٣

بعض المدعوين على سرقتها في الوليمة التي أقامها أنوشيروان .[1]

وكان للغناء دوره الأساسي في احتفالات الملوك بهذه الأعياد . وتناولت الأغاني موضوعات شتى كان أهمها بطبيعة الحال مدح الملك ، والترنم ببطولته ، والتحدث بنعمته ، فإذا فرغ هذا الجزء المهم من الأغنية انتقل المغني بعد ذلك إلى موضوعات أخرى كوصف الطبيعة والتغني بجمالها . كان أبرز المغنين في العهد الساساني «بربد»[2] وكان لبربد هذا في كل يوم شعر جديد ولحن جديد .[3] ونال بربد مكانة كبيرة في بلاط كسرى برويز ، وأصبح من أعظم رجال القصر شأنا .

والتهادي بالسكر عادة من عاداتهم في عيد النوروز . ويقال في سبب هذا إنهم اكتشفوا السكر في ايران يوم نوروز . ومن أجل هذا يتهادى الناس السكر في هذا العيد ويتبركون به .

ومن عادة الناس في هذا العيد على ما يرويه البيروني[4] أن يقصدوا

---

(١) التاج : ص ١٠١

(٢) ويقال له في المصادر العربية باربد ، بربد ، بهلبد ، بلهبذ ، فهربد ، فهربذ ، فهلبد . وكان آية زمانه في الغناء والموسيقى كما كان يقول الشعر أيضا ينظمه ويلحنه ويغنيه ، وغلبت عليه صناعة الغناء والموسيقى . وكان أساتذة الموسيقى يتخذون آراءه في هذا الفن حجة ، ويغترفون من فيض ألحانه . وكان له في كل يوم من أيام الأسبوع لحن . وقد جمعت هذه الألحان السبعة وعرفت في كتب الموسيقى والمؤلفات الإسلامية بالطرق الملوكية . وكذلك جعل لكل يوم من أيام الشهر لحنا . وقد عرفت هذه الألحان بألحان بربد الثلاثين . وأشارت اليها المؤلفات الإسلامية في الموسيقى أو التاريخ أو الأدب . ولم يكتف بربد بهذا إذ لحن لكل يوم من أيام السنة لحنا .

(٣) المحاسن والأضداد : للجاحظ ص ٢٧٨

(٤) الآثار الباقية : ص ٢١٨

الحياض والأنهار فيرش بعضهم بعضهم بالماء بعضا تطهرا مما علق بأجسامهم من الأدران في العام المنقضى ، وتنظيفا لأبدانهم من دخان النيران التي أوقدوها في ليلته . وترجع عادة التراش بالماء عندهم إلى أيام الملك فيروز بن يزوجرد بن بهرام جور . وفي أيامه شح المطر ، وجف الزرع ، وأجدبت الأرض، وعمت المجاعة . وطال الأمر بالناس على هذه الحال من الجدب والجوع سبع سنين فخرجوا إلى الصحراء يبتهلون إلى الله ويضرعون إليه أن يغيثهم، فلما دخل النوروز من السنة الثامنة تقبل الله دعاءهم، وفتح عليهم أبواب السماء بماء منهمر، فكانوا لفرحتهم بالماء يصبونه على رءوسهم ويتراشون به . وبقيت هذه العادة عند الفرس يحيونها من ذلك الوقت كل عام .[1]

وعادة إيقاد النيران من العادات التي يهتم بها الإيرانيون ليلة النوروز ؛ فالنار عند الإيراني القديم من العناصر الموقرة ، وهي عنده تمثل النقاء والصفاء ، كما أن ايقاد النيران يبدد في عرفهم ما في الجو من وخم الشتاء .

* * *

لما جاء الاسلام تغير الموقف في صدر الاسلام بالنسبة للنوروز ولغيره من الاعياد الفارسية .

ولا شك في أن الدولة الاسلامية على عهد النبي عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين كانت ترى أن الاحتفال بمثل هذه الاعياد يفتح مجالا تنفذ منه العادات والتقاليد المجوسية القديمة، وتهيىء الفرصة امام النزعات الوثنية للانتشار في المجتمع الاسلامي الجديد . ولهذا لم يكن

---

(١) شاهنامه : ج ٨ ص ٢٢٦٨

لهذه الاعياد أي ذكر في العهد الاسلامي الأول .

وعندما قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة وجدهم لا يزالون — كما كانوا في الجاهلية — يحتفلون بيومين من أيام السنة تذكر بعض المصادر أنهما كانا يوم النوروز ويوم المهرجان [1] ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاحتفال بهما، ودعاهم إلى الاحتفال بعيد الفطر وعيد الاضحى لأنه خشي أن يكون في الاحتفال بهذين العيدين الفارسيين إحياء وترويج لشعائر الجاهلية . ورمى من وراء دعوتهم الى الاحتفال بالعيدين الاسلاميين، الفطر والاضحى، التنويه بشعائر الدين الجديد، وليجعل من هذه الاحتفالات الاسلامية فرصة لذكر الله وعبادته وإظهار الطاعة له ، وليجمع لهم كذلك، إلى متعة الاحتفال الدنيوية ، متعة العظة الروحية . ففي عيد الفطر يفرح المسلمون بما قدموه خلال شهر الصوم من الوان الطاعة والعبادة ويحتفلون بانتهاء الصوم واستقبال الفطر احتفالا يجمع بين متعة الروح ومتعة البدن . وفي عيد الاضحى يتمثل المسلمون ايضا معاني الطاعة لله سبحانه ، والخضوع لمشيئته ، كما يتمثلون أيضا نعمة رضاء الله على من أطاعه من عباده حين يذكرون قصة ابراهيم عليه السلام يوم هم بذبح ولده اسماعيل وكيف أنعم الله عليهما بأن فداه بذبح عظيم . وإلى جانب هذه المعاني الدينية السامية التي يتمثلها المسلمون في احتفالهم بعيد الاضحى ينعمون ايضا بما في العيد من متع دنيوية . وهكذا ترى أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يشأ أن تمضي احتفالاتهم في ظل دينهم الجديد دون ان تجمع العظة الدينية إلى جانب البهجة الدنيوية ، وأراد ان يتخذوا من أيام بهجتهم ومرحهم فرصة للافادة من دينهم، وتمكين أمره بينهم حتى لا ينفصل

---

(١) الألوسي : بلوغ الارب ج ١ ص ٣٦٤

دينهم عن دنياهم، وليذكروا دينهم عندما يحتفلون بشئون دنياهم، وليذكروا دنياهم عندما يقبلون على أمور دينهم .

ومر عهد صدر الاسلام ولم يكن لهذا العيد ولا لغيره من أعياد الفرس القديمة شأن عند العرب في المجتمع الاسلامي . وعندما احتفل بعض الدهاقين في خلافة على بن ابي طالب بهذا العيد وقدموا اليه هدية مما صنعوه من الحلوى لم يكن رضى الله عنه يعرف شيئا عن مناسبة هذه الهدية، فلما سأل، قيل له إنه يوم نوروز. فقال مازحا متفكها: نوروزنا كل يوم [١] .

وفي عهد الدولة الاموية بدأ الخليفة معاوية يهتم بهذا العيد لبعض العوامل الاقتصادية المرتبطة به . فقد مر بنا أنه كان من عادة الفرس القدماء أن يقدموا الهدايا إلى ملوكهم في هذه المناسبة وكانت هذه الهدايا تمثل جانبا مهما من مصادر دخل الملوك . ويظهر أن معاوية أراد أن يفيد من هذا العيد كما كان يفيد منه ملوك الفرس القدماء . وتروي المصادر التاريخية ان ما كان يحمل اليه من هدايا النوروز والمهرجان بلغ عشرة آلاف درهم [٢] .

أمـــا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقد رفض أن يقبل من المسلمين هذه الهدايا . وكان يكتفي في خراج النوروز بجمع الخراج وحده، ويرفض ما عدا ذلك من الهدايا . ولا شك في أنه كره ان ينال من مال المسلمين شيئا قد يكرهون على أدائه أو يحرجون بسببه .

إلا أن الخلفاء قد عادوا فقبلوا هذه الهدايا . وكانت هدية حسان

---

(١) القاموس المحيط : مادة نرز

(٢) اليعقوبي : ٢٥٩/٢

النبطي إلى هشام بن عبد الملك من الكثرة والضخامة حتى إن هشاما نفسه استكثرها لنفسه، وأمر أن تضم لبيت المال. وكان حسان قد أهدى إلى هشام وإلى أمهات أولاده هدايا كثيرة من الكساء والجوهر والعطر؛ وقد ذكر الجاحظ أن هذه الهدية لم يسمع بمثلها في الاسلام [1] .

وفي عهد الدولة العباسية زاد اهتمام الدولة والشعب بهذه الاحتفالات؛ ولم يكن الاحتفال به قاصرا على الخلفاء وحدهم بل إن الناس أيضا تسابقوا إلى الاحتفال به ، وأحيوا فيه ما كان معروفا عند الفرس القدماء من عادات كعادة إيقاد النيران وعادة التهادي .

فكان الخليفة العباسي مثلا يتبادل الهدايا مع الشعب في عيد النوروز. وكان يفرق عليهم هدايا مختلفة من صور مصنوعة من عنبر أو ورد أحمر أو غير ذلك من الهدايا [2] .

وكان الخليفة المتوكل يخرج في احتفاله بالنوروز عن الجد الذي ينبغي لخليفة مثله أن يلزمه . فقد روى أنه كان يدعواليه في هذا اليوم أصحاب السماجات، ويدنيهم من مجلسه، ولا يتوقر معهم . وفي يوم نوروز دخل عليه اسحق فرآهم وقد جذبوا رداءه فعاد غاضبا ، ولاحظ المتوكل ذلك فأمر باستدعائه وسأله في ذلك فقال له : « أتجلس في مجلس يبتذ لك فيه هؤلاء الكلاب حتى يجذبوا ذيلك ، وكل واحد منهم متنكر بصورة منكرة فما يؤمن أن يكون فيهم عدو فيثبت بك . فمتى كان يستقال هذا ولو أخليت الارض منهم » فقال المتوكل :

---

(١) المحاسن والاضداد ص ٢٨٣

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية : ٢ / ٢١٤ الترجمة العربية .

« يا أبا الحسين والله لاترا‌ني على مثلها أبدا » [1] .

ويذكر الطبري في حوادث سنة ٢٨٤ ان الخليفة المعتضد كان قد منع الناس في أول الامر من إيقاد النيران ليلة النوروز ، ومن صب الماء في يومه ، وكلف المنادين ليعلنوا ذلك في الاسواق ثم عاد ورجع عن رأيه ، وأطلق الحرية للناس في صب الماء وايقاد النيران ففعلت العامة من ذلك ما جاوز الحد ، وخرج على المألوف .

ولم يكن الاحتفال بعيد النوروز قاصرا على بغداد عاصمة العالم الاسلامي وحدها ، وإنما امتد إلى كل بقعة من بقاع العالم الاسلامي . ففي بخاري مثلا كان السامانيون يحيون هذا العيد بما عرفوه عن أسلافهم الفرس .

في سنة ٣٢٣ هـ احتفل مرداويج [2] احتفالا عظيما بهذا العيد ، فأوقد النيران ليلة النوروز على قمم الجبال ، واطلق الطيور في الجو وقد علق بأرجلها النفط ، وكان النفط يشتعل وهي تطير . وامتلأت السماء ليلتها بالنار المتطايرة في كل مكان حتى بدد ضوء النيران ظلمة الليل . وفي يوم النوروز أقام وليمة ضخمة في الصحراء . ويذكر ابن الاثير أن من جملة ما قدم في تلك الوليمة مائتين من البقر مشوية صحاحا . وأما الغنم فبلغ ما شوى منها ثلاثة آلاف رأس . هذا عدا المطبوخ .

---

(١) آدم متز : ٢/٢١٤ .

(٢) مرداويج بن زيار مؤسس الدولة الزيارية في طبرستان وجرجان . استولى ايضا على اصفهان وهمدان . وكانت آماله كبيرة في احياء مجد الفرس وتحطيم الخلافة العباسية . وعندما ثار النزاع بينه وبين البويهيين ، رأى أن يتخلص منهم اولا ثم يتجه بعد ذلك الى بغداد للاستيلاء عليها . ولكنه قتل في اصفهان سنة ٣٢٣ هـ/ ٩٣٤ م وهو يستعد لملاقاة آل بويه . استمرت دولته من ٣١٦ – ٤٣٤ هـ / ٩٢٨ – ١٠٤٢ م .

وقد زاد عدد الدجاج وغيره من انواع الطير التي قدمت في تلك الوليمة على عشرة آلاف . أما ألوان الحلوى فقد جاوزت العد والحصر [1] .

وكان عبدالله بن طاهر [2] ، يوزع ثيابه على الناس في عيدي النوروز والمهرجان أسوة بما كان يفعله ملوك الفرس القدماء [3] .

ويقدم لنا المافروخي الاصفهاني من علماء القرن الخامس للهجرة [4] وصفا لعيد النوروز في مدينة جي من نواحي اصفهان ، فيذكر ان أهالي اصفهان كانوا يخرجون كل سنة في وقت النوروز إلى سوق تلك المدينة التي تسمى سوق جرين للتجارة واللهو واللعب لافرق في ذلك بين كبيرهم وصغيرهم حتى كانت تغص بجموعهم المدينة . وكان فناخسرو عضد الدولة [5] ، يعجب في صغره بتلك السوق وما يجري فيها من الوان اللهو والمرح . فلما تولى الملك واستولى على فارس أمر أن يتخذوا خارج شيراز سوقا على نمط سوق جرين عرفت باسم

---

(١) ابن الاثير : حوادث سنة ٣٢٣ .

(٢) عبدالله بن طاهر بن طاهر ذي اليمينين قائد المأمون المشهور . من أصل فارسي ولاه المأمون على خراسان في ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م واستطاع بعد ذلك ان يستقل بحكم خراسان ويؤسس الدولة الطاهرية التي حكمت من ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م

(٣) التاج : س ١٥٠ .

(٤) هو مفضل بن سعد بن الحسين المافروخي الاصفهاني نسبة الى مافروخ بن بختيار جده وكان من الموالي العجم . وما فروخ مركبة من ماه فرخ أي القمر المبارك . الف المافروخي كتابه محاسن اصفهان بين سنوات خمس وستين وخمس وثمانين وأربعمائة . وهو من معاصري الب ارسلان وملكشاه من سلاطين السلاجقة . وقد ترجم الكتاب الى الفارسية محمد بن عبد الرضا الحسيني العلوي في حدود سنة ثلاثين وسبعمائة بأمر الوزير غياث الدين محمد بن الوزير رشيد الدين فضل الله مؤلف كتاب جامع التواريخ .

(٥) من امراء البويهيين في فارس ٣٣٨ — ٣٧٢ هـ / ٩٤٩ — ٩٨٢ م .

سوق الامير . وقد جذبت هذه السوق اهل شيراز ، وما حولها من البلدان، واجتمع فيها خلق كثير من أهل اللهو والمجون . وكان الناس يفدون اليها للبيع واللهو . وكان الأمير لرغبته في الاستمتاع بما يجري في تلك السوق قد اتخذ لنفسه قصرا يشرف عليها ، فكان يجلس في قصره مع ندمائه يشربون ويطربون ويستمتعون بما يشاهدونه من أحوال الناس في تلك السوق [1] .

أما البيهقي [2] ، فيقدم لنا صورة أخرى من الاحتفالات التي كانت تقام في العالم الاسلامي احتفالا بيوم النوروز عام ٤٣١ هـ ، فيقول عن السلطان مسعود الغزني ، إنه في يوم الخميس الثامن عشر من شهر جمادي الاخرة احتفل بعيد النوروز . وكان الناس قد قدموا إليه كثيرا من الهدايا . واحتفى السلطان بهذا العيد احتفالا عظيما ، وتقدم اليه الشعراء بقصائد المديح . وكانت السعادة تبدو على محياه اذ مر عليه الشتاء هادئا لم تقع فيه حوادث تشغل قلبه . وأمر للمطربين وللناس بالصلات . وانتهز الناس هذه الفرصة ، وتشفعوا للشاعر مسعود [3] ، فقبل شفاعتهم ووصله بثلاثمائة دينار نقدا والف دينار

---

(١) محاسن اصفهان : ص ٩٢ ط طهران

(٢) هو أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي . ولد في سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م في قرية حارث آباد من نواحي بيهق . قضى صدر حياته في تحصيل العلم بمدينة نيسابور ثم اتجه الى بلاط السلطان محمود الغزني حيث اشتغل بالكتابة في ديوان الرسائل. وكتابه في التاريخ معروف بـاسم تاريخ بيهقي ويتحدث فيه اسـاسا عن سلطنة السلطـان مسعود الغزني. ولهذا يقال للكتاب ايضا تاريخ مسعودي . ومات في سنة ٤٧٠ هـ /١٠٧٧ م .

(٣) هو الشاعر مسعود سعد (٤٤٠ هـ — ٥١٥ هـ) من مشاهير شعراء الفرس في العصر الغزني غضب عليه وسجن أكثر من مرة . وفي سنة ٥٠٠ هـ اطلق سراحه من السجن للمرة الثانية بعد أن قضى في السجن ثماني عشرة سنة . وقد أخطأ البيهقي حين قرن اسم السلطان مسعود بن محمود الغزني باسم الشاعر مسعود سعد لأنه بينما توفي السلطان

يتقاضاها كل شهر [1] .

ويذكر المقريزي أن المعز لدين الله منع الناس في مصر سنة ثلاث وستين وثلاثمائة من وقود النيران ليلة النوروز ومن صب الماء في يومه . والظاهر أن هذا المنع ضاعف من شوق الناس إلى هذا العبث لأنهم في السنة التالية تمادوا في إيقاد النيران وصب المياه واتوا من السخافات ما جعل المعز يعود إلى تحذيرهم ، واستعمال الشدة معهم[2]

وكان للنوروز عند العامة في مصر أمير يخرج في هذا اليوم في ملابس المهرجين بألوانها الفاقعة المتنافرة وقد طلى وجهه بالمساحيق والاصباغ ، واحاط به جمع كبير من العوام . وكانوا يقطعون الطريق على المارة ، ويأخذون منهم الهبات ، فمن دفع لهم أخلوا سبيله ، ومن رفض ناله منهم ما يكره من رش ملابسه بالماء القذر ، وإفساد ثيابه والاستخفاف بقدره . وكانت الأسواق تعطل في هذا اليوم إذ كان الناس ينطلقون على سجيتهم دون حياء أو قيود . وقلما انقضى هذا اليوم دون ان تقع حوادث يذهب ضحيتها بعض الناس .

ويصف المقريزي ما كان يجري بمصر في هذه الاحتفالات خلال عيد النوروز فيذكر أنهم في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائه استحدثوا

مسعود بن محمود الغزني سنة ٤٣٢ هـ ولد الشاعر مسعود سعد حوالي سنة ٤٤٠ هـ. هذا بالاضافة الى ان البيهقي يتحدث عن حوادث سنة ٤٣١هـ أي قبل مولد الشاعر فكيف اذن يعفو السلطان مسعود في سنة ٤٣١هـ عن شاعر لم يكن قد ولد بعد ؟! انما تتفق حياة الشاعر مسعود سعد مع حياة السلطان مسعود الثالث المعروف بعلاء الدولة والذي حكم من سنة ٤٩٢ — ٥٠٨هـ/ ١٠٩٩ — ١١١٤ م ، فهذا التاريخ يتفق في فترة منه مع حياة الشاعر (٤٤٠ — ٥١٥هـ) .

(١) تاريخ بيهقي : ص ٦١١ طـ غني وفياض . تهران والترجمة العربية للنشاب ونشأت

(٢) المقريزي : الخطط : ٢٦٧/١ .

عادة التراجم بالبيض ، والتصافع بالانطاع إلى جانب ما عرف من التراش بالماء.

فلما آل أمر الدولة في مصر إلى الأمير برقوق [1] منع الناس من هذا العبث، وهدد من خالف بالعقوبة فاضطر الناس إلى التزام الجادة في القاهرة ، ومن أراد منهم أن يعبث خرج إلى البرك والمتنزهات . ولم تعد الاسواق تتعطل كما كان الامر من قبل، ولم تتوقف حركة البيع والشراء ، وأمن الناس على أنفسهم من الحوادث بعد أن كان يوم النوروز لا يخلو من قتيل أو اكثر [2] .

---

(١) مؤسس دولة المماليك البرجية او الشراكسة (٧٨٤ - ٨٠١ هـ / ١٣٨٢- ١٣٩٩م)

(٢) الخطط : ٢٦٨/١

فــرس وأتــراك

أما الصلة التاريخية بين الفرس والأتراك فهذا ما نشير اليه الآن على نحو يكفي لإيضاح العلاقات العامة ولا يغني عن الرجوع الى التفاصيل في مصادرها لمن شاء اذ كانت التفاصيل مما لا تدعو اليها ضرورة هنا .

لا خلاف بين الباحثين على أن الترك من ولد يافث بن نوح . وفي المرويات أنه لما قسم نوح الارض بين أولاده الثلاثه اتجه يافث الى قسمه في الشمال والشرق في المناطق الممتدة من سهول سيبريا الى بوادي بحر خزر وجبال التاى .

وينسب الأتراك إلى ترك أحد أبناء يافث [1] . وقد خلف ترك أباه في زعامة قومه وهو الذي اكتشف لهم المناطق التي عاشوا فيها واستقروا بها . وكان الأتراك في تاريخهم القديم من أهل البداوة والرحلة .

ومن قبائل الأتراك : التتار ، المغل ، القبجاق ، الخزر . . . الخ . وذاع من بين هؤلاء اسم التتار حتى أصبح عند الغربيين مرادفاً لكلمة الأتراك . وأطلق على مهد هؤلاء الأقوام من الاتراك تركستان وتتارستان . وكانت رقعة بلادهم تتسع وتضيق في العصور المختلفة تبعاً لنتائج معاركهم الحربية .

---

(١) يقال إن يافث خلف أحد عشر ولدا

ويسمون كذلك التورانيين نسبة الى تور بن افريدون سادس ملوك الدولة البيشدادية أولى الدول الفارسية القديمة . وإلى عهد افريدون هذا ترجع الأساطير علاقة الترك بالفرس، فقد كان لأفريدون ثلاثة أبناء : سلم ، تور ، ايرج وزع ملكه بينهم وجعل لسلم القسم الغربي من المملكة وفيه بلاد الروم ، وخص تور ببلاد التوران والصين ، وجعل لايرج القسم الاوسط من مملكته وفيه بلاد ايران واختاره وهو أصغر إخوته وليا للعهد . ولكن الأخوين الكبيرين : سلم ، تور رأيا أن اباهما خص ايرج وهو الأصغر بأفضل اجزاء المملكة فضلا عن ولاية العهد فامتلأ قلباهما حقداً على أخيهما ودبرا الأمر فيما بينهما للكيد له والتخلص منه ، ولما أحس « ايرج » بموقف أخويه منه ، وكان عاقلا أريبا ، عرض عليهما أن يتنازل لهما عما خصه به أبوه لتصفو قلوبهم . ولكن هذا العرض الكريم لم يقابل بالرضا والارتياح، ودفعت الغيرة والحقد تور الى قتل أخيه ايرج. وكان لايرج جارية حملت منه ثم ولدت له بعد قتله بنتاً عني جدها افريدون بتربيتها حتى إذا كبرت زوجها من ابن أخيه بشنج (بشنك) . وكان ثمرة هذا الزواج منوچهر الذي تولى الملك بعد افريدون بعد أن انتقم لجده ايرج بقتل جديه تور وسلم. ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فقد اتخذت الأساطير من هذا النزاع بين الأخوة مادة خصبة لكثير من الوقائع والحروب التي استمرت دهوراً طويلة ، وذلك أن الشعب التوراني الذي ينتسب الى تور لم يسكت عن الانتقام له ، وبهذا نشأت سلسلة طويلة من الحروب بين التورانيين والإيرانيين الذي ينتسبون الى ايرج وخرج النزاع بعد الإخوة الثلاثة من دائرته الفردية الى دائرة شعبية قومية ، وظلت نيران العداوة متقدة بين التورانيين والإيرانيين طيلة العهدين البيشدادي والكياني. وهذا سر ما تضفيه الشاهنامه على التورانيين

من ذميم الصفات ، وما تبديه من كراهة نحوهم، واحتقار لشأنهم .
ولم تنته المنازعات والحروب بين التورانيين والإيرانيين الا بعد أن مات جميع أبطالها من الجانبين .

وليس هنا ما يدعو للإفاضة في ذكر هذه الوقائع والحروب التي سادت حياة الايرانيين في عصرين كاملين .

واذا تركنا وقائع الفرس مع الترك خلال العهدين البيشدادي ، الكياني لغلبة الأساطير عليها ، وانتقلنا إلى عهد الدولة الساسانية وهو عهد تاريخي ، وإن لم يسلم من بعض القصص ، وجدنا ان الهدوء يسود بين الفرس والترك فترة من الزمن حتى اذا أتى عهد بهرام جور ثار النزاع من جديد وتجدد القتال فكان النصر لبهرام الذي أعمل السيف في جيش خاقان الترك وتوغل في أطراف ممالك توران يقتل ويأسر حتى خضعت له البلاد والتزم التوران بدفع الخراج .

وفي عهد كسرى أنو شروان كان الخزر يشنون الغارات على بلاد الفرس حتى عجزوا عن صدهم، فاضطروا الى بناء الحصون المنيعة في ولا يتي آذربيجان وأرمينية خصوصاً بالقرب من أردبيل ، ولكن يبدو أن هذه الحصون لم تكن كافية لصد غاراتهم مما دفع كسرى أنو شروان إلى بناء سد أرمينية المسمى بالباب الحديد ، والباب ، وباب الأبواب . ولم يكتف كسرى بهذه الاجراءات الوقائية فتزوج من ابنة خاقان الترك . ولعله أراد بهذا الزواج أن يأمن جانبهم ليتفرغ للهياطلة .

ولما مات أنو شروان خلفه في الملك ابنه هرمزد . وكانت أمه ابنة خاقان الترك ، ومع هذه القرابة القريبة لم يمتنع خاقان الترك عن الهجوم على أرض ايران ، فوجه هرمزد لحربه بهرام چوبين الذي انتصر عليه ،

ولكن هرمزد لم يقدر لقائد جنده بهرام حسن بلائه ففر الى بلاد الترك حيث لقي من الخاقان الإكرام والتقدير ، وأخذ قدره يرتفع في بلاد الخاقان فخانت امرأته على ملك زوجها ، وأغرت ببهرام من قتله .

***

وفيما بعد الاسلام كان للترك شأن كبير في علاقاتهم مع الفرس وهم الذين ساعدوا على تعويض دعائم الدولة السامانية الفارسية لأن السامانيين اعتمدوا اعتمادا كبيرا على الأتراك في تكوين جيوشهم ، وما لبث هؤلاء أن تغلغلوا في الجيش ووصلوا إلى مناصبه الرئيسية فسيطروا بذلك على القوة التي تحافظ على كيان الدولة . وامتد نفوذ هؤلاء الأتراك فتغلغل في أجهزة الدولة الأخرى واصبحوا يقبضون في أيديهم على سلطات واسعة بحيث صاروا بعد فترة يسيرة خطراً يهدد كيان الدولة . ولما رأى الملك الساماني عبد الملك الاول ٣٤٣ — ٣٥٠ هـ/ ٩٥٤ — ٩٦١ م ازدياد نفوذ مملوكه التركي البتكين Alptigin في عاصمة البلاد ، أراد أن يقصيه عنها فعينه قائداً لاقليم خراسان ، وظل هناك حتى إذا توفي عبد الملك اسرع عائداً الى مدينة غزنه الواقعة في جبال سليمان بأفغانستان حيث نصب نفسه حاكما عليها بعد أبيه الذي كان يحكمها من قبل السامانيين . وفي ظرف سنة مات البتكين .

ولما تولى سبكتكين ، وهو عبد آخر من عبيد البتكين وزوج ابنته فيما بعد ، استطاع أن يوسع دائرة حكمه واستولى على خراسان فلم يجد الأمير نوح الساماني (٣٨٤هـ/ ٩٩٤م) بدا من تعيينه حاكما عليها . وقد رضي سبكتكين وهو صاحب القوة الفعلية في البلاد هذا الوضع وقبل أن يخضع خضوعاً اسمياً للدولة السامانية التي لم تستطع أن تسترد خراسان بعد ذلك .

وتولى بعد سبكتكين ابنه محمود الذي سيطر على خراسان وغزنه، وكان أقوى شأنا من أبيه ، فلم يعد للدولة السامانية في عهده أي نفوذ من الناحية الفعلية والاسمية معا لأنه اتجه راسا إلى خليفة بغداد الذي أيد دولته الجديدة تأييداً رسميا، وخلع عليه ولقبه، يمين الدولة وأمين الملة. وبهذا كان لسبكتكين وابنه محمود النصيب الأوفر في القضاء على الدولة السامانية .

أما الجزء الباقي من الدولة السامانية في المقاطعات الشرقية (ما وراء النهر) فقد تم القضاء عليه بيد دولة الأتراك الشرقية المعروفة بالايلك خانيه إذ سار ايلك خان إلى بخاري عاصمة الدولة السامانية فدخلها، وأسر عبد الملك الساماني آخر ملوك هذه الدولة، وحبسه بافكند حتى مات [1]. وبذلك انقضت الدولة السامانية .

وهكذا اشتركت قوتان تركيتان في القضاء على احدى الدول الفارسية التي حكمت ايران وهما قوة الغزنيين في الغرب (خراسان) وقوة الايلك خانيين في الشرق .

ويعتبر محمود بن سبكتكين المشهور بمحمود الغزني ألمع ملوك الدولة الغزنية . واليه يرجع الفضل فيما بلغته من مجد ونفوذ . وامتد سلطان الدولة في عهده امتداداً عظيماً فشملت من ناحية الغرب خراسان وأجزاء من العراق وطبرستان ، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر واقليم البنجاب ، ومن ناحية الشمال تركستان ، ومن ناحية الجنوب الاقليم المعروف في وقتنا هذا بأفغانستان .

ولم يكن هناك من قوة تنافس محمودا في ذلك الوقت سوى الايلك

---

(١) ابن الأثير — حوادث ٣٨٩ ج ٩

خانية فتودد محمود اليهم ، وتزوج ابنة ايلك خان وبذلك هدأ باله من ناحيتهم، وتفرغ لغزو الهند .

وكان يغزو الهند مرة كل عام وينشر في ربوعها راية الاسلام ، ولم يزل يفتح في بلاد الهند حتى انتهى الى حيث لم تبلغه في الاسلام راية [1] . وبهذا دخلت اجزاء كثيرة من بلاد الهند في الاسلام وشاركت في نهضة الحضارة الاسلامية .

وعلى العموم كان محمود بطلا من أبطال الاسلام المعدودين ظل يفتح ويغزو حتى مات في سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠ م .

وقبل أن يموت وضع بيده ، عن غير قصد ، نواة القوى التي عصفت بملكه فيما بعد؛ ذلك لأنه سمح للسلاجقة أن يقيموا بين ربوع مملكته . ولم يلبث هؤلاء السلاجقة حتى قوي أمرهم وقضوا على الدولة الغزنية فيما بعد . وعلى كل حال ظل خطر هؤلاء السلاجقة كامناً حتى توفي محمود، وخلفه ابنه مسعود . ومع أن مسعودا (٤٢١ ــ ٤٣٢ هـ/ ١٠٣٠ ــ ١٠٤٠ م) كان من الملوك الأكفاء ، وكانت آماله في الفتح والغزو عريضه كأبيه، إلا أن الفرصة لم تواته اذ كان السلاجقة قد نازعوه الملك وهزموه بقيادة زعيمهم طغرل بك في سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩ م في المعركة التي دارت بينهما في دندانقان بين مرو وسرخس رغم ما أبداه مسعود في هذه المعركة من البسالة والشجاعة . وكانت هزيمة مسعود في هذه المعركة سبباً في انتزاع خراسان والممتلكات الغربية منه .

وفي عهد عبد الرشيد عز الدولة ٤٤٠ ــ ٤٤٤ هـ / ١٠٤٩ ــ ١٠٥٢ م تجددت الحروب بين الغزنيين والسلاجقه .

---

(١) ابن خلكان : ١١٢/٢

إلا أن عهد ابراهيم ظهير الدولة ٤٥١–٤٩٢ هـ / ١٠٥٩–١٠٩٩م الذي تجاوز أربعين عاما كان عهد سلام ورخاء فقد صالح السلاجقة، وزوج ابنه مسعودا الثالث علاء الدولة من ابنة ملكشاه السلجوقي .

وكان طبيعيا أن يسود السلام كذلك في عهد مسعود بن ابراهيم ٩٤٢ – ٥٠٨ هـ / ١٠٩٩ – ١١١٤ م بين السلاجقة والغزنيين .

وفي عهد ارسلان سلطان الدولة ٥٠٩ – ٥١٢ هـ / ١١١٥ – ١١١٨ م انقطع حبل الود بين الطرفين لما ارتكبه ارسلان من الإساءة في حق السلاجقه وتجددت بذلك المنازعات ، وانسحب ارسلان الى لاهور، ثم مات بعد ذلك في الهند ٥١١ هـ / ١١١٧ م .

وتولى بعده بهرامشاه ٥١٢ – ٥٤٧ هـ / ١١١٨ – ١١٥٢ م الذي خضع لسنجر السلجوقي حتى ليمكن القول أن استقلال الدولة الغزنية قد انتهى ابتداء من هذا التاريخ ، ثم نكب الغزنيون نكبة كبرى بانهزام بهرام شاه أمام السلطان علاء الدين الغوري الذي استولى على غزنه . وانتقم لأخيه سورى ، الذي كان بهرام قد قتله ، انتقاما فظيعا اذ استباح المدينة، وأراق دماء أهلها، ثم تركها طعمة للنيران حتى صارت رمادا . ولهذا لقب علاء الدين حسين بجها نسوز أي محرق العالم .

وبعد أن سقطت غزنه وضاع من أيدي الغزنيين الجزء الغربي من الدولة اتجهوا الى مقاطعاتهم في الشرق واستمروا يحكمون هناك في عاصمتهم لاهور حتى استطاع الغوريون أن يقضوا قضاء نهائيا على دولتهم في ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م .

* * *

وبعد زوال الدولة الغزنية وقعت ايران تحت حكم السلاجقة . وهم من عشائر الغز الذين كانوا يقيمون في تركستان . وكان سلجوق

زعيمهم شخصية قوية، نخافته امرأة ملك الترك، واخذت تحذر زوجها، وتخوفه من خطر سلجوق، وتغريه بقتله . ولما بلغ ذلك سلجوق هاجر مع قومه إلى البلاد الاسلامية، ونزلوا في أراضي الدولة الغزنية باذن من السلطان محمود الغزني الذي اكتفى منهم بالجزية السنوية والخضوع له . وفي ذلك الوقت دخل السلاجقة في الاسلام، واعتنقوا المذهب السني ، وظلوا يبدون الطاعة والخضوع للدولة الغزنية حتى كان عهد مسعود فشقوا عليه عصا الطاعة بزعامة طغرل بك حفيد سلجوق وتمكنوا من هزيمة مسعود قرب مرو كما ذكرنا آنفا ، كما تمكنوا كذلك من القضاء على دولة آل بويه في فارس ، وبذلك أصبحت لهم في ذلك الوقت الكلمة العليا في العالم الاسلامي ، فاستنجد بهم الخليفة العباسي القائم بأمر الله لإنقاذه من شر البساسيري القائد التركي الذي كان قد استولى على بغداد وجرد الخليفة من كل سلطه . وقد أسرع طغرل لإجابة الخليفة، وظل يطارد البساسيري حتى قتله . وعند ذاك كافأه الخليفة بتاجين يمثلان السلطة على العرب والعجم ،وأصبحت الدولة السلجوقية بذلك تستمد شرعيتها من الخليفة الأمر الذي لم يكن عنه غنى في ذلك الوقت من الناحية الشكلية . وخضع لسلطان هذه الدولة أغلب العالم الاسلامي .

وظل شأن الدولة السلجوقية يرتفع حتى عهد السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه الذي توفي بهمدان ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وبموته بدأ نجم السلاجقة في الأفول ، وظهرت قوى جديدة تقاسمت هذا الملك العريض وقطعت أوصاله . ومن هذه القوى الأتابكة ، وشاهات خوارزم . يضاف الى ذلك قوة الصليبيين الذين شرعوا يغزون العالم الاسلامي وقتذاك .

ولما مات السلطان علاء الدين آخر سلاجقة الروم بقونيه استولى على الملك عثمان بن طغرل بن سليمان شاه التركماني ، وكان واليا من قبل السلطان على ولاية اسكى شهر ، وأسس بذلك دولة الاتراك العثمانيين في آسيا الصغرى وجعل مقر ملكه مدينة يني شهر أو المدينة الجديدة .

وهكذا انقضى عهد الدولة السلجوقية وخلفها في حكم بلاد ايران الأتابكة ، وشاهات خوارزم .

* * *

أما الأتابكة فانهم في الأصل من مماليك السلاجقة ، فكان لكل واحد من السلاجقة أتباعه من هؤلاء المماليك الذين كانوا يشغلون الوظائف الرئيسية في الجيش والبلاط . وكان منهم مربو الأمراء (أتابك) . ومن هؤلاء المماليك طوغتيگين Tughtigin الذي كان عبدا عند تتش السلجوقي Tutush الذي عينه وصيا على وريثه دقاق Dukak ، فلما توفي تتش استولى عبده على كل السلطات في دمشق . وكذلك كان عماد الدين زنكي مؤسس دولة أتابكة الموصل وحلب فانه كان ابناً لاحد عبيد السلطان ملكشاه السلجوقي . وكذلك أتابكة آذربيجان فانهم كانوا سلالة أحد المماليك الخاصين للسلطان مسعود أحد سلاطين السلاجقة في العراق .

وفي فارس بدأت دولة الأتابكة سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م وتنسب إلى سلغر أحد قواد التركمان في عهد السلاجقه . وكانت نهايتها سنة ٦٨٦هـ على ايدي المغول . وقد بدأت هذه الدولة بسنقر بن مودود بن سلغر ٥٤٣ — ٥٥٧ هـ وانتهت بأبيش بن سعد بن ابي بكر ٦٦٢ — ٦٨٦ هـ .

وفي القرن الثاني عشر الميلادي كانت كل الامبراطورية السلجوقية (باستثناء الأناضول) في يد هؤلاء الأتابكة الذين كونوا لأنفسهم إمارات مستقلة [1] .

* * *

أما شاهات خوارزم (٤٧٠ — ٦٢٨ هـ / ١٠٧٧ — ١٢٣١ م). فيرجعـون في أصلهم الى أحـد المماليك انوشتگين Anushtigin وكان هذا المملوك أحد السقاة عند السلطان ملكشاه الذي عينه حاكما على خوارزم (خيوه) ، وخلفه في هذا المنصب ابنه الذي لقب نفسه خوارزم شاه . وكان أتسز ٥٢١ — ٥٥١ هـ / ١١٢٧ — ١١٥٦م أول من أظهر من هؤلاء الشاهات الميل الى الاستقلال ولكن ثورته التي شبت في ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م فشلت وقضى عليها السلطان سنجر ، ولكنه عاود بعد ذلك الثورة واستطاع ان يمد نفوذه حتى جند Jand على نهر سيحون Jaxartes . وأضاف تكش Tukush ٥٦٨ — ٥٩٦ هـ / ١١٧٢ — ١١٩٩ م الى ملكه خراسان والري وأصفهان . واستطاع ابنه علاء الدين محمد بعد حرب مع الغوريين في خراسان أن يخضع الجزء الأكبر من بلاد ايران حوالي ٦٠٧ هـ / ١١٢٠ م وأن يخضع بخاري وسمرقند ويغزو مقاطعة كورخان من ملوك القراختائية ، وأن يستولي على عاصمته اترار Otrar . وفي ٦١١ هـ / ١٢١٤ م غزا افغانستان واستولى على غزنة ، وعزم بعد ذلك على أن يقضي على الخلافة العباسية ولكن ظهور المغول بقيادة جنگيز خان على حدود بلاده فل

---

(١) Lane Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 159.

حده وقضى على آماله . وكان في ظهور المغول القضاء على دولة خوارزم .

* * *

التتار أو المغول فرع من فروع الأمة التركية . ويزعم النسابون أن أحد ملوك الترك الأقدمين واسمه النجه خان قد أنجب ولدين هما تتار خان ومغل خان ، ولذلك تنسب سلالتهما إلى أيهما فيقال التتار أو المغول Mongols .

اندفع هؤلاء المغول أو التتار أو في لفظة أعم الأتراك إلى العالم الاسلامي بقيادة جنكيز خان فأتوا بخاري، وأجلوا عنها من كان بها من جنود خوارزمشاه، وأعملوا فيها السلب والنهب والقتل ، فخوت بذلك على عروشها بعد أن كانت مركزا من مراكز الحضارة الاسلامية في الشرق ، وفعلوا بسمرقند بعد ذلك ما فعلوه ببخاري، ثم عبروا نهر جيحون في طلب خوارزمشاه الذي طار قلبه من الخوف وأخذ يفر من بلدة الى أخرى وهم يجدون في طلبه حتى بلغ بحر طبرستان واختفى في إحدى جزره، ولم يسمع عنه بعد ذلك .

وأخذ التتر يستولون على البلاد واحدة تلو الاخرى ، ويقتلون وينهبون . وانضم إليهم الاشرار والمفسدين فعم النهب والقتل، وحل الخراب بكل مكان . ويقال إنهم قتلوا من أهل قزوين وحدها أربعين ألفاً ، وفي مرو بلغ عدد القتلى سبعمائة ألف . وفي نيشابور بنوا هرما من جماجم القتلى . ودمرت باميان تدميرا تاما بحيث ظلت قرنا من الزمان بعد ذلك خالية من كل لون من ألوان الحياة .

وكان بين أصحاب جنكيز خان (تموجين) ثلاثة نفر من

المسلمين يغلب أن يكونوا من تجار الفرس الذين كانوا يرتادون الاقاليم الشرقية في رحلاتهم التجارية . وقد رافقه اثنان منهم مدة طويلة في حروبه وفتوحه، ولا يبعد أن يكون قد جعلهما مستشارين له في تنظيم شئون امبراطوريته الجديدة [1] .

ولم يحاول أن يقف في وجه هؤلاء المغول بعد اندحار خوارزمشاه محمد سوى خليفته جلال الدين منكبرتي بن محمد ، وهو أي جلال آخر ملوك خوارزم ٦١٧ – ٦٢٨ هـ/ ١٢٢٠ – ١٢٣١ م . أما سائر ملوك المسلمين وأمرائهم سواء في ذلك الايوبيون في سورية والسلاجقه في آسيا الصغرى فقد تنافسوا في التودد إلى المغول رجاء ان يسمحوا لهم على الاقل بالاستقلال الداخلي في ظل السيادة المغولية [2] .

وفي عهد الخليفة المستعصم بالله أقبل هولاكو خان على بغداد فاستولى عليها وقتل الخليفة ، وأصاب المدينة ما أصاب غيرها من مدن الاسلام من التدمير والنهب وتقتيل المسلمين . وبذلك قضى المغول على الخلافة الاسلامية في ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، ثم اتجهوا بعد ذلك غرباً فأسرع أمراء سوريه وأعلنوا خضوعهم لهولاكو . ويدين العالم الاسلامي بالفضل إلى مماليك مصر فإنهم وقفوا وحدهم في وجه هؤلاء الغزاة المتوحشين ، وهزموهم هزيمة حاسمة في عين جالوت قرب الناصرة بفلسطين .

ثم حكمت ايران بعد اسرة جنگيز خان أسرة تترية أخرى هي المعروفة بالتيمورية (٧٧١ – ٩٠٦ هـ / ١٣٦٩ – ١٥٠٠ م) نسبة الى مؤسسها تيمور لنك (تيمور الاعرج) Tamerlane وقد أمضى تيمور

---

(١) بروكلمان : الامبراطورية الاسلامية والخلافة ترجمة فارس والبعلبكي ص ٢٦٢

(٢) نفسه : ص ٢٦٨

فترة شبابه في خدمة أمراء ما وراء النهر . وبسبب ذكائه استطاع ان يخلف في سنة ٧٧١ه الامير حسين والي بلخ . وفي سنة ٧٨٢ ه/١٣٨٠م هجم على ايران ، واستولى على بلادها واحدة بعد اخرى ، وقضى على أسرة آل كرت ، والسربداريين والجلايريين ، والمظفريين . وقد جعلت فتوحات تيمور مملكة ما وراء النهر Transoxiana تصل الى درجة لم تصل اليها من قبل ، وأصبحت سمرقند عاصمة لامبراطورية تمتد من دهلي إلى دمشق ومن بحر آرال إلى الخليج الفارسي . ولكنه لما مات سرعان ما انتقضت على خلفائه كثير من الممالك التي كان أخضعها . ومع أن خلفاء تيمور استطاعوا أن يسيطروا على شمال ايران مدة قرن من الزمان إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا قوة الصفويين المتزايدة .

* * *

وبظهور الدولة الصفوية ينتهي حكم الاتراك ايران الذي دام أيام الدولة الغزنية في ٣٥١ه/ ٩٦٢ م حتى نهاية الدولة التيمورية في ٩٠٦ ه/ ١٥٠٠ م أي ما يقرب من خمسة قرون ونصف وهذا بيان دولهم . —

الدولة الغزنية	... ٣٥١ — ٥٨٢ ه/ ٩٦٢ — ١١٨٦ م
الدولة السلجوقية	... ٤٢٩ — ٧٠٠ ه/ ١٠٣٧ — ١٣٠٠ م
الأتابكة	... ٥٤٣ — ٦٨٦ ه/ ١١٤٨ — ١٢٨٧ م
شاهات خوارزم	.... ٤٧٠ — ٦٢٨ ه/ ١٠٧٧ — ١٢٣١ م
الدولة المغولية	... ٦٥٤ — ٧٥٠ ه/ ١٢٥٦ — ١٣٤٩ م

وحين تحضر الترك قامت حضارتهم على أكتاف الحضارة الفارسية التي صادفوها في بلاد ايران واصطبغت بصبغتها ، ومن ثم لم تكن الحضارة التركية خلقا من إبداع الترك بقدر ما كانت اقتباسا وتقليدا للحضارة الفارسية .

* * *

الأتراك والحضارة الاسلامية

الأتراك والحضارة :

عندما يرد هذا التعبير « الأتراك والحضارة » وخاصة في مؤلفات الأوربيين الذين نشروه في العالم يتبادر إلى الذهن معنى خاص هو انصراف الأتراك عن الاهتمام بالحضارة ، وعجزهم عن الابتكار فيها ، والإضافة إليها ، بل اتجاههم إلى تدميرها والقضاء عليها ؛ فهم في نظر هؤلاء المؤلفين لا يحسنون إلا صناعة الحرب . والحرب تدمير وتخريب . فكأن هذه العبارة حين تتردد تحمل في طياتها إنكار أن يكون للأتراك صلة بالحضارة أو دور فعّال فيها .

ونناقش هذه القضية بعد عرض تاريخي سريع .



يعترف العلماء الذين تفرغوا لدراسة تاريخ الترك بصعوبة هذه الدراسة ومرد ذلك إلى أسباب كثيرة يذكرونها ، منها كثرة القبائل والفروع التي يتفرع إليها هذا الشعب ، واتساع مساحة الأرض التي شغلها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وتعدد اللهجات التي يتكلمون بها تبعاً لتعدد المناطق والأقاليم التي يعيشون فيها ؛ واختلاط هذا الشعب بكثير من الشعوب الأخرى التي خالطها أو عاش معها حاكماً أو محكوماً كالصين والفرس والعرب والهنود وغيرهم .

وقد ترتب على هذا الاختلاط بين الشعب التركي وغيره من الشعوب اختلاط الدمـــاء ، وتداخل التواريخ ، وامتزاج اللغات والثقافات مما يوسع دائرة البحث على الباحث ويجعله في حاجة إلى كثير من أدوات البحث المختلفة التي لا تلزم في العادة لغيره من الباحثين في الموضوعات الأخرى .

والمتصدي لتاريخ الترك أو أدبهم يجد صعوبة كبرى في هذه الدراسة لأنه محتاج إلى إجادة اللغة التركية . وحتى هذه اللغة نفسها تتفرع كما أشرنا إلى لهجات مختلفة تعقد الأمر أمام الباحث وتجعله في حاجة إلى مساعدة مجموعة من العلماء بهذه اللهجات المختلفة . ثم هو في حاجة إلى إجادة عدد آخر من اللغات ارتبطت بالتركية ارتباطاً وثيقاً وأثرت فيها وأهمها اللغة العربية واللغة الفارسية وما يتصل بهذه اللغات من تاريخ وحضارة وثقافة .

وقد يبدو أن إجادة لغة شعب من الشعوب تكفي لدراسة تاريخه ، ولكن هذا لا ينطبق على دراسة الشعوب التركية . فاللغة الصينية مثلاً مهمة في معرفة تاريخ الأتراك الذين عاشوا في أقصى الشرق في الصين ومنغوليا، وفي معرفة أخبارهم التي وردت في المصادر الصينية . أما الذين اتجهوا إلى الغرب،وخالطوا الفرس والعرب،وتأثروا بالحضارة الإسلامية فالاعتماد على الفارسية والعربية أمر أساسي لمعرفة تاريخهم . ويلاحظ أن مصادر تاريخ الترك كانت تكتب حتى أزمنة متأخرة باللغة الفارسية . وعندما أخذ الترك يهتمون بلغتهم، ويتخذونها لغة كتابة وتأليف لم ينقطع تيار الفارسية وظلت تشارك التركية .

ويشير بارتولد إلى هذه الصعوبات فيقول إنه ليس هناك بين الدول التركية ما يستمد تاريخه من مصادر تركية سوى الدولة العثمانية . وحتى

هذه المصادر التي كتبت بالتركية تجبر الباحث على إجادة العربية والفارسية لأن اللغة التركية خليط من هذه اللغات . وكثير من الأتراك يصعب عليهم فهمها لهذا السبب [1] .

وهناك صعوبة أخرى تتمثل في أن المصادر الخاصة بتاريخ الترك قد كتبت في عصور متأخرة مما يعرض المعلومات الواردة فيها للشك في صحتها نظراً للفروق الزمنية الواسعة بين تاريخ الوقائع الواردة في هذه المصادر وبين تاريخ تأليف هذه المصادر نفسها .

وإذا أضفت إلى هذا قلة المصادر القديمة والوثائق تبين لك أن الأمر تكتنفه الصعوبات من كل جانب .

وأقدم الآثار الخاصة باللغة التركية تلك النقوش التي اكتشفت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على ضفاف نهر أرخون في منغوليا . وتعرف بين الباحثين بآثار اورخون . وهذه النقوش تشمل فترة ضئيلة من تاريخ الترك تبلغ نصف قرن فقط من سنة ٦٣٠ — ٦٨٠ م .

وتشير هذه النقوش في تلك الحقبة إلى تاريخ أتراك الشرق عندما كانوا خاضعين للصين . ورغم اكتشاف هذه النقوش منذ مدة إلا أنها لا تزال موضع البحث والدراسة . وما زالت ترجمتها موضع خلاف بين العلماء لصعوبة النص الأصلي الذي كتبت به تلك النقوش . ويقدم لنا بارتولد مثلا من أمثلة الخلاف بين العلماء في ترجمة هذه النقوش كلمة مثل كلمة « تورك » التي اختلفوا فيها اختلافاً واسعاً أهي اسم قبيلة ،أو أسرة حاكمة ،أو معناها القوة ،أو العزم ،أو الجماعة

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ترجمة أحمد السعيد سليمان ص٢.

المتحدة . . الخ .[1] وكل هذا الخلاف قائم حول معنى كلمة واحدة فكيف يكون الخلاف بالنسبة لمجموعة النقوش كلها .

ويرى بارتولد أن الشعب التركي وإن كان موجوداً منذ أقدم العصور إلا أن كلمة تورك لم تستعمل في رأيه للدلالة على هذا الشعب قبل القرن السادس. ويرجح أن تكون هذه اللفظة « تورك» اصطلاحاً إسلامياً[2] .

الفتوح الاسلامية :

لم تكن صلة المسلمين بما وراء النهر مستقرة واضحة أول الأمر فكان الحكام العرب يشنون الغارات على ما وراء النهر ويعودون كل سنة إلى أماكنهم في خراسان[4] . ويروي الطبري أن الأمراء المحليين في ذلك الوقت كانوا يجتمعون في كل سنة ليفضوا ما بينهم من المنازعات بالحسنى ، وليتعاهدوا على مواصلة الجهاد ضد العرب .

ومما كان يشجع العرب على غزو الأقاليم الشرقية بالاضافة إلى نشر العقيدة، واعلاء كلمة الدين ازدياد الأموال التي يغنمونها . وكان لمساعدة الأهالي أنفسهم أثر كبير في الانتصارات التي أحرزها العرب فيما وراء النهر . ويعزي جانب من نجاح قتيبة في فتح تلك الأصقاع إلى مساعدة العناصر الوطنية . أما بطء الغزو فراجع إلى أن العرب قنعوا إلى حد ما لفترة طويلة بالغنائم الحربية والجزية، ولم يهتموا بأن

---

(١) بارتولد : ص٢٩

(٢) المصدر السابق : ص٣٠

(٣) كانت ما وراء النهر تتبع حاكم خراسان.

يكون الفتح مستمراً متصلاً . هذا إلى وجود العقبات الطبيعية التي لم يكن لها مثيل في بيئتهم .

ومع أن المسلمين غزوا ما وراء النهر في سنة ٤٦ هـ على يد القائد ربيع بن الحارث إلا أن معرفتهم بهذا الاقليم ورغبتهم في فتحه كانت أقدم من ذلك، فابن الأثير في حوادث سنة ٢٢ يذكر أن الأحنف بن قيس غزا خراسان ، وأن عمر أذن للمسلمين فدخلوا بلاد فارس تعقباً ليزدجرد ، وأنهم هزموه عند بلخ ففر منهم وعبر النهر ، ورغب المسلمون في مطاردته،ولكن عمر كتب إلى الأحنف وطلب اليه أن يقتصر على ما دون النهرولايجوزه . ولاشك في أن عمرأراد أن يعفي المسلمين من التوغل في تلك الأقاليم خوفاً عليهم لجهلهم بها .

وبمرور الأيام سمع العرب الشيء الكثير عن تلك الأقاليم الغنية فكانوا يقومون بغزوات متقطعة غير منظمة يعودون منها بالغنائم الكثيرة، فعرف العرب تلك الأقاليم بالتدريج وشجعهم غناها وضعفها على أن يقوموا بغزواتهم التي أخذت شكلها المنظم فيما بعد .

وفي سنة ٤٦ أرسل زياد بن أبي سفيان ربيع بن الحارث إلى خراسان فسار حتى بلخ . ومن هناك عبر النهر . ولم تكن لهذه الغزوة أهمية كبيرة لأن ربيعاً لم يكن له هدف مرسوم من هذا الغزو .

وفي سنة ٥٤ عين معاوية عبيد الله بن زياد والياً على خراسان . وكان عبيد الله شاباً فتياً فقطع النهر إلى بخاري، واستولى في طريقه على بيكند المدينة الغنية بعد حرب طويلة ، ونال من فتحها غنائم عظيمة، وحمل عدداً كبيراً من الأسرى ثم تابع سيره إلى بخاري . وكانت تحكمها الخاتون التي استنجدت بمن حولها من الأتراك فخفوا إلى نجدتها في جيوش كبيرة ، ولكن المسلمين تغلبوا عليهم في النهاية. وقتلوا منهم

كثيرين فتفرقت جيوش الأتراك مسرعة إلى أوطانهم، وفرت الخاتون إلى قلعتها . وأراد عبيد الله أن ينتقم منها بتخريب مدينتها فأرسلت اليه تطلب الصلح، فصالحها على مال كثير، وحمل معه أربعة آلاف أسير .

ثم عزل عبيد الله سنة ٥٦ وحل محله سعيد بن عثمان الذي عبر النهر قاصداً بخاري . فلما علمت الخاتون بذلك أرسلت تذكره بالصلح الذي عقدته مع سلفه، وضاعفت له في المال والهدايا . ولكن سعيداً نبذ المعاهدة ، ورد اليها هداياها ، وتقابلت جيوشه مع جيشها وجيوش من خفوا لنجدتها من الصغد وكش ونخشب . وانتهى الأمر بهزيمتهم جميعاً فانفضوا من حولها . ولم تجد بداً من طلب الصلح فصالحها سعيد إلا أنه طلب منها رهائن عنده حتى يضمن سلوكها نحوه وعدم انقضاضها عليه أثناء غزوه للصغد وسمرقند ، فقدمت اليه ثمانين شخصاً من دهاقنة بخاري وأمرائها . ويذكر نرشخي أن هؤلاء الرهائن كانوا من بين المتآمرين عليها، وعلى ولدها طغشاده فتخلصت منهم بهذه الطريقة [1] .

ومن ألمع الشخصيات الإسلامية التي نشرت الإسلام في المشرق شخصية القائد العربي قتيبة بن مسلم . وتعتبر غزوات قتيبة مرحلة بارزة من مراحل الغزو الإسلامي في آسيا الوسطى . واستطاع قتيبة في سنوات متعاقبة أن يستولي على بخاري ونسف وسمرقند . وفي سنة ٩٤ هـ غزا قتيبة الشاش وفرغانه ووصل إلى الصين وفتح مدينة كشغر في سنة ٩٦ هـ . واستطاع قتيبة أن يحقق نصراً إسلامياً في تلك المناطق بنشر الدين الاسلامي هناك الذي قضى على الديانة الزردشتية . ويلاحظ أن الفتح لم يكن كافياً لتثبيت الإسلام في قلوب البخاريين . ويروي النرشخي أن البخاريين كانوا يعتنقون الإسلام إذا ما غزاهم العرب

(١) نرشخي : تاريخ بخارا ص ٤٦ ط سعادت ١٣١٧ تهران

ثم يرتدون عنه إذا رحل العرب . وكان من عادة العرب الفاتحين أن يرحلوا عن تلك الأصقاع الباردة إذا حل الشتاء، ويعودوا إلى خراسان . وفي كل غزوة من غزوات قتيبة كانوا يعلنون الإسلام ثم يعودون إلى دينهم القديم حين يرجع العرب عنهم . وقد بذل العرب مجهودات كبيرة ليثبتوا دعائم هذا الدين الجديد .

وكان أشد الناس ضيقاً بهذا الدين وعناداً له رجال الأديان التي كانت منتشرة في تلك الاصقاع قبل الإسلام ، والأشراف . وقد لاحظ العرب ذلك كما لاحظوا أن كثيراً ممن اعتنقوا الإسلام في الظاهر خوفاً ورهبة كانوا يزاولون عبادتهم القديمة سراً أو في سكون الليل . فأمر قتيبة كل بخاري أن يفسح في بيته مكاناً لعربي يساكنه فيه . وكان هؤلاء العرب عيوناً للدولة يبلغون عن كل من يرتد عن الاسلام أو يمارس شعائر دينه القديم .

ومما بذله قتيبة لنشر الدين الجديد وتشجيع الناس على اعتناقه أنه بني في سنة ٩٤ هـ المسجد الجامع في قلعة بخارى . وجعل لكل من صلى فيه الجمعة درهمين مكافأة . وذكر النرشخي أنه رأى مسجد بخاري في أيامه. وعلى أبوابه نقوش وصور وثنية ، وأنه سأل عن سبب ذلك فعرف أن أغنياء بخاري كانوا قد أقاموا لأنفسهم خارجها سبعمائة قصر . وفي أحد أيام الجمع دعا المسلمون أولئك البخاريين إلى الصلاة في المسجد ، فرموهم بالحجارة ، فهجم المسلمون على تلك القصور ، وانتزعوا أبوابها ، وجعلوا منها أبواباً للمسجد حين وسعوه . وكان على تلك الأبواب صور أصنامهم ومعبوداتهم فأزالوا من تلك الصور ما استطاعوا وتركوا الباقي [١]

---

(١) نرشخي : تاريخ بخارا ص ٥٧

ولم يكن المسلمون في بخاري يستطيعون في أول الأمر الظهور في الشوارع أو الأماكن العامة بغير سلاح خوفاً على أنفسهم من الكفار . وبقيت هذه العادة حتى عهد النرشخي [1] . وإمعاناً في الحيطة لم تسمح السلطات للعناصر الوطنية بحمل السلاح إلا بعد أن تعلن إسلامها .

ويذكر بارتولد أن تأثير المدنية الايرانية في بلادالترك قد ازداد بعد غزو المسلمين وانتشار الاسلام هناك [2] . وإذا كانت الديانة الزردشتية الايرانية قد أضعفت أثر الديانة البوذية هناك فإن الإسلام قد أثر في الزردشتية وأضعف شأنها . وانتشر بين أهالي المناطق الشرقية قصص الفرس القديمة ، وأخبار ملوكهم الأقدمين ، وبدأت اللغة الفارسية تسود في تلك المناطق .

الأتراك والحضارة :

اختلف راي العلماء في موقف الأتراك من الحضارة . وقسا فريق من هؤلاء العلماء عليهم . ومن هؤلاء جوستاف لوبون الذي يذكر أن عظمة الأتراك لا تتجلى في غير الحرب ، وأنهم وإن كانوا قد استطاعوا أن ينشئوا دولا كبرى ، إلا أنهم عجزوا عن خلق حضارة أو ابتكارها . ويذكر أن أقصي ما استطاعه هؤلاء الأتراك هو أن يستفيدوا من حضارة غيرهم كالعرب . وحتى هذه الحضارة العربية تسرب اليها الضعف والانحطاط عندما أصبحت مقاليد الأمور في قبضة هؤلاء الأتراك . وعندما انتصر السلطان سليم على المصريين وجعل

---

(١) نرشخي : ص ٦٠

(٢) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٣٩

مصر ولاية عثمانية أسرعت العلوم والفنون إلى الانحطاط .[1] ويقول جوستاف لوبون في موضع آخر « لكن الترك وإن كانوا أهل حرب وقتال لم يكونوا أهلا ليصعدوا في سلم الحضارة ولم يقدروا على الانتفاع بتراث العرب المغلوبين الثقافي فضلا عن إنمائه . قال العرب : لا ينبت العشب على أرض يطأها الترك . والحق أنه لم ينبت، فسترى في فصل آخر درجة الانحطاط التي هبطت اليها دولة العرب القديمة بين أيدي السادة الجدد[2] » .

ويقف بروكلمان منهم نفس الموقف إذ يقول إن الأتراك قد ألحقوا بحضارة إيران والعراق أكبر الأذى . وجاء من بعدهم أنسباؤهم المغول أو التتار فقضوا على البقية الباقية من تلك الحضارة[3] .

أما رأي نولدكه فقد عرض له بارتولد في كتابه عن تاريخ الترك في آسيا الوسطى . وذكر بارتولد أن نولدكه قد بالغ كثيراً حين وصف العنصر التركي بأنه عدو للحضارة . ويرى نولدكه أن استيلاء الترك على بلاد الدولة السامانية كان أفدح مصيبة حلت بتلك البلاد . ويبدو أن هذا الرأي كان مسيطراً على نولدكه إذ كرره في كتابه عن الإسلام Der Islam وقال إن سيطرة الترك على بلاد العالم الإسلامي بعد القضاء على الدولة السامانية الايرانية كان نكبة هائلة في التاريخ .

ويدافع بارتولد عن الأتراك في أكثر من موضع ، ويخالف نولدكه في رأيه ، ويضرب على ذلك مثلا خوارزم فإنها لم تكن في القرن الثالث

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٧٠٠ ترجمة عادل زعتير ط ثانية .

(٢) نفس المصدر : ص ١٨٢

(٣) بروكلمان : الامبراطورية الإسلامية وانحلالها : ص ٢٥٣ الترجمة العربية بيروت ١٩٤٩

عشر أي في عهد الحكم التركي أقل حضارة عما كانت عليه في القرنين العاشر والحادي عشر أي قبل الحكم التركي . ويعتبر بارتولد أن ازدياد انتشار المذهب المعتزلي في خوارزم بعد غزو المغول — وهو المذهب الذي يقوم على إعمال الفكر والعقل — دليل على أن الحياة الفكرية والعقلية في خوارزم لم تصب بالعقم خلال حكم الترك .و في موضع آخر يذكر بارتولد أن تقدم الشعوب أو تأخرها لا يمكن أن ينسب لجنس بعينه، أو لمعتقدات دينية، أو لظروف بيئة طبيعية معينة . ولا يمكن — في رأيه — أن تكون هذه العوامل سبباً في حضارة شعب و تأخره . ويعتبر بارتولد أن الاتصال بين الشعوب والأجناس ، وتبادل العلاقات من أكبر عوامل الرقي ، وأن العزلة من أكبر عوامل التأخر . وإذا كان الجنس الهندي الأوربي [1] قد تفوق على غيره من الأجناس فما ذلك إلا لأنه على علاقات أكبر بغيره من الأجناس . وتلعب التجارة هنا دوراً هاماً في الموضوع . والذي يسيطر على التجارة وعلى تبادل السلع بين شعوب العالم يضمن لنفسه تفوقاً أكبر . ولو أن هذه الأقوام التي تنتسب إلى الجنس الهندي الأوربي عاشت في عزلة عن العالم لظلت إلى اليوم متأخرة . وحينما كان المسلمون يسيطرون على طرق التجارة كان لهم التفوق على العالم المسيحي . ومهما تكن المزايا التي تتمتع بها أوربا من حيث موقعها الجغرافي ، وطبيعة بلادها فإنها لم تكن لتؤدي إلى تفوق أوربا ما لم تهتم أوربا بتنمية علاقاتها المدنية بالعالم . وخلاصة ما يراه بارتولد أن رقي الأمم لا يعود إلى الجنس، أو الدين، أو البيئة، وإنما يعود إلى علاقاتها بغيرها من الأمم، هذه العلاقات التي يلعب الاقتصاد فيها دوراً هاماً [2] .

---

(١) المعروف أن هذا التعبير يطلق على وحده لغوية معينة .

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٧ ترجمة حمزة طاهر

ويبدو أن العلماء الذين نسبوا إلى الجنس التركي الوقوف في وجه الحضارة أو القضاء عليها قد ظلموا هذا الجنس . ويبدو أيضاً أنهم تأثروا بالفظائع التي ارتكبها المغول في غزواتهم على العالم الاسلامي ، تلك الغزوات التي قضوا فيها على كثير من معالم الحضارة بل ومعالم الحياة نفسها . ونسي هؤلاء العلماء أن الأتراك الذين فعلوا هذا كانوا يعيشون قبل ذلك في مواطنهم في عزلة تامة ، وأنهم في ذلك الوقت عندما غزوا العالم الاسلامي كانوا يمارسون اتصالهم بالعالم الخارجي لأول مرة ، وأنهم لم يفهموا في أول الأمر – وهم قبائل رحل – معنى هذه الحضارة . بدليل أنهم بعد ذلك عندما اتسعت دائرة اتصالهم بالعالم الخارجي ، وازدادت صلاتهم بغيرهم من الأقوام الأخرى كالإيرانيين والعرب عرفوا معنى الحضارة وأسهموا بنصيب في ازدهارها . وقد أثرت الحياة الإسلامية بمعتقداتها، وآدابها العربية والفارسية تأثيراً كبيراً فيهم .

ولكي نوضح الأمر أرى أنه ينبغي أن نفرق بين موقف فريقين من الأتراك إزاء الحضارة ؛ فريق أسلم ، وفريق لم يكن قد أسلم بعد .

انتشر الإسلام بين القراخانيين في القرنين التاسع والعاشر الميلادي نتيجة لسيطرة الدولة الإيرانية السامانية الإسلامية على أواسط آسيا . وفضلا عن هذه السيطرة السامانية وما فرضته على بلاد الأتراك من انتشار الإسلام والحضارة الإيرانية فقد كان هؤلاء البدو قبائل بعيدة عن التحضر ، ولم تكن تستغني عن الاتصال بجيرانها الايرانيين المتحضرين لدواعي التجارة .

ويذكر بارتولد عن هؤلاء القراخانيين أنهم كونوا أول مملكة

تركية إسلامية وأنهم عندما أسلموا بحسن إسلامهم وكانوا أشد حرصاً عليه، وتمسكاً بشعائره من غيرهم من الحكام المسلمين في غرب آسيا [1].

* * *

الغزنيون :

وكانت الدولة الغزنية أولى الدول التركية التي حكمت إيران . ودور السلطان محمود في نشر الاسلام وتوطيد دعائمه في بلاد الهند مشهور في التاريخ . وقد بلغت غزوات محمود في بلاد الهند اثنتى عشرة غزوة بين سنوات ٣٩٢ – ٤١٥هـ / ١٠٠١ – ١٠٢٤ م . ويذكر ابن الأثير أن الدافع الذي دفع هذا السلطان لغزو الهند أول الأمر كان التقرب إلى الله، والتكفير عما كان منه من قتال المسلمين [2] . ولا شك في أن محموداً بعد أن غزا الهند أول مرة أدرك ضعف تلك البلاد، ودرجة ثرائها، فأغراه هذا بمتابعة الفتح والغزو . وكان في كل غزوة يعود محملا بالغنائم . وعندما استولى على بيت أصنام الهنود الذي كان فيه معبودهم الأكبر « سومنات » هم بتحطيم هذا الصنم، ففزع الهنود ، وأسرعوا اليه يفتدون معبودهم بكل غال ونفيس لديهم ، وقدموا إليه مالا يحصى من الأموال والنفائس لكي يترك لهم معبودهم . وكانت هذه الأموال المعروضة من الضخامة بحيث أغرت أعوان محمود، فنصحوه أن يقبل العرض ويترك الصنم . وكان في إمكانه أن يقبل ، ولكنه رفض ، وصمم على تحطيم الصنم .

وكان محمود يميل إلى دراسة الفقه . وتذكر بعض المصادر اسمه

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٨٤

(٢) ابن الأثير : حوادث سنة ٣٩٢

بين الفقهاء . وفي بعض المصادر أنه ألف كتاباً في الفقه .[1] وإلى جانب الفقه كان ولوعاً بعلم الحديث . وكثيراً ما كان يعقد المجالس لسماع الأحاديث من الشيوخ، كما كان يدعو العلماء من أتباع المذاهب المختلفة إلى مجلسه للمناقشة والمناظرة[2] .

وقد جعلت انتصارات محمود في غزواته الدينية في بلاد الهند منه بطلا شعبياً تروي عنه القصص وتنظم فيه الأشعار . ويبدو الباعث الديني واضحاً في نظم الأشعار التي قيلت في مدح السلطان .

***

وكان السلطان محمود الغزني حريصاً أشد الحرص على رعاية العلم والأدب والفن في مملكته . وكان يغري العلماء والأدباء بالانتقال إلى بلاطه . وكان يرى أن بلاطه وهو أعظم البلاطات الموجودة في ذلك العصر وأعلاها شأناً، أحق بأن يجتمع فيه من العلماء والأدباء ما يفوق به غيره . ولا شك في أن بعض الأمراء المحليين كانوا يستجيبون إلى محمود تملقاً وخوفاً منه، فيوفدون إلى بلاطه من يرى إيفاده من علمائهم وأدبائهم . ولكننا لم نعرف أنه استخدم في سبيل ذلك القوة . يحدثنا نظامي العروضي السمرقندي عن بلاط أبي العباس مأمون ملك خوارزم ومن اجتمع فيه من العلماء والفضلاء ، فيذكر أن السلطان محموداً حين سمع باجتماع هؤلاء العلماء لدى البلاط المأموني كتب يطلب إيفاد بعضهم اليه ليزدان بهم بلاطه . وقد قبل بعضهم بالفعل فورد على البلاط الغزني أبو نصر العراق وكان من علماء الرياضيات ، وأبو الخير الخمار وكان ممن برعوا في الطب ، وأبو ريحان البيروني

(١) شبلي النعماني : شعر العجم ١ / ٣٥٠ الترجمة الفارسية لفخر كيلاني .
(٢) ابن خلكان : ٢ / ١١٠

وهو من الشخصيات العلمية البارزة في علم النجوم . بينما رفض ابن سينا ، وأبو سهل المسيحي من أهل الحكمة القدوم إلى بلاط السلطان محمود . وكان محمود يستطيع أن يتعقبهما ، ويجبرهما على ملازمة بلاطه ولكنه لم يفعل . وكان يعتبر أن إعراض ابن سينا خسارة كبيرة لبلاطه [١] . وانتهت رحلة ابن سيناء بعد خروجه من بلاط خوارزم إلى بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمگير حيث لقي الرعاية والترحيب هناك . أما المسيحي فقد لقي حتفه في الصحراء أثناء هبوب عاصفة رملية .

وكان محمود نفسه شاعراً ، وقد نسبت اليه أشعار مختلفة في الغزل والرثاء والبطولة . وتورد كتب التذاكر ما بقي له من هذه الأشعار . وقد التف حوله عدد كبير من الشعراء كان كبيرهم العنصري الشاعر المعروف .

وكما فعل السلطان محمود في بلاطه بغزنه من رعاية العلم والعلماء والأدباء كان الأمراء المحليون يتنافسون بدورهم في اجتذاب أهل العلم والأدب . ومنهم في نيشابور أبو المظفر نصر أخو السلطان محمود . وكان أبو المظفر هذا يهتم بأهل الأدب والعلم حتى اجتمع منهم في بلاطه عدد كبير مدحوه في حياته ، ورثوه في مماته بالكثير من الأشعار [٢] .



وعلى العموم فقد كان العصر الغزني عصر نهضة أدبية واسعة

---

(١) جهار مقاله : الحكاية الخامسة من المقالة الرابعة

(٢) العتبي : ٣٣٠/١

وقد أجمع مؤرخو الأدب على أن هذه النهضة لم يكن لها مثيل من قبل .

وقد نال فن العمارة نصيبه من عناية محمود نتيجة لهذا الثراء والترف . ويحدثنا العتبي حديثا طويلا عن مسجد غزنة الجديد الذي بناه محمود، وكيف كان يغري العمال الذين اشتركوا في بنائه بالأجور والأموال طلبا للإجادة والإتقان ، وكيف نقل ما احتاجه البناء من الأخشاب من الهند والسند ، وكيف بالغ في تجميل المسجد وتزيينه حتى استخدم الأصباغ والألوان والتذهيب، وفرش ساحته بالمرمر الصقيل اللامع ،وألحق به مدرسة ملئت قاعاتها بالمؤلفات في جميع العلوم،ووكل التدريس فيها إلى فريق من الفقهاء والعلماء كان يغدق عليهم ، ويغمرهم بالنعمة [1] .

فهذا السلطان وما فعلته دولته في رعاية العلم والادب دليل على أن الأتراك الذين أسلموا هداهم الاسلام إلى إدراك أهمية الحضارة في بناء مجتمع سليم .

السلاجقة :

وهؤلاء السلاجقة مثل آخر . وفي دفاعهم عن الإسلام ورعايتهم للحضارة ما يدعو إلى الإعجاب .

هاجر الأتراك من مواطنهم الأصلية في شرق آسيا وشمالها [2]

---

(١) العتبي : ٢ / ٢٩١

(٢) يمكن أن نقسم الجنس التركي بصفة عامة إلى ثلاثة أقسام :

(أ) القسم الأول هو الأتراك الشماليون ويشمل القبائل التي تعيش في سيبيريا أمثال قبائل ياقوت ، وغيرها .

هجرات كثيرة إلى غربها . وليس من السهل إحصاء هذه الهجرات لكثرتها . ولكن من الممكن أن نميز بين تلك الهجرات الكثيرة هجرتين كبيرتين يفصل بينهما في الزمان ما يقرب من قرنين . اتجهت الهجرة الأولى إلى غرب آسيا بينما اتجهت الثانية إلى جنوب آسيا . أما الهجرة الأولى فهي هجرة السلاجقة الذين اتجهوا إلى أقصى الغرب من قارة آسيا ، وكونوا ما يعرف الآن بالأتراك الغربيين . ومن هؤلاء الأتراك الغربيين جاء فيما بعد العثمانيون الذين قضوا على الامبراطورية البيزنطية .

أما الهجرة الكبرى الثانية فكانت هجرة المغول

وكان السلاجقة في أول أمرهم رعاة لم يتسع موطنهم الأصلي في تركستان لهم بسبب قلة المرعى ، وازدحام البلاد فآثروا أن يهاجروا غرباً إلى بلاد ما وراء النهر .

وينسب هؤلاء السلاجقة إلى زعيمهم سلجوق [1]

وعندما بلغوا ما وراء النهر أرادوا أن يتجهوا بعد ذلك إلى خراسان التي كانت خاضعة للسلطان محمود الغزني ، فكان عليهم أن يحصلوا على اذن من السلطان بالإقامة في ممتلكاته . ويروي الگرديزي كيف

(ب) القسم الثاني ، القبائل الشرقية ويشمل تلك القبائل التي تعيش في التركستان الصينية والأزبك وإلى هؤلاء ينسب تتار القرم والفولجا.

(جـ) القسم الثالث : هو الأتراك الغربيون ويشمل هذا القسم الأتراك العثمانيين والآذر بيجانيه ، وقبائل التركان .

(١) يذكر بارتولد ان سلجوق في أصلها ليست اسم علم ولكنها تحريف كلمة سوباشي بمعنى قائد الجيش ص ١٠٠ من تاريخ الترك في آسيا الوسطى..

سمح لهم السلطان بذلك . فقد أرسلوا اليه وفداً من رؤسائهم وقوادهم يتضرعون اليه أن ينقذهم مما حاق بهم في بلادهم من الظلم والأذى . وأردفوا بعد ذلك يرجونه كي يسمح لهم بالاقامة في خراسان فذكروا أنهم أربعة آلاف أسرة . فإذا سمح لهم السلطان بعبور النهر ليقيموا في خراسان ، فسيجد منهم خيراً كثيراً ، وعوناً عظيماً إذ ينضمون إلى جنده ويقاتلون تحت رايته . وقد رق قلب محمود لهم . وطيب خاطرهم وسمح لهم بعبور النهر . ولم يكن محمود بعيد النظر فيما فعل . وكان أمير طوس أبو الحارث أرسلان الجاذب أبعد منه نظراً ، فقد رأى أن ما فعله السلطان كان خطأً . ولهذا اقترح عليه أن يكل السلطان أمرهم اليه حتى يبيدهم ، أو يقلم أظفارهم على أقل تقدير فلا يخشى بأسهم بعد ذلك . ولكن السلطان محمود استنكر هذا الاقتراح الذي يدل على قسوة القلب ولم يوافق عليه . فحذره أمير طوس وخوفه من سوء العاقبة [1] . وقد أثبتت الأيام فيما صدق فراسة هذا الأمير وحسن تقديره للأمور لأن القضاء على دولة الغزنيين بعد ذلك تم على أيدي هؤلاء السلاجقة .

ويصف لنا البيهقي بالتفصيل الحرب التي دارت بين السلطان مسعود الغزني والسلاجقة في مرو (دندانقان) حيث انتصر السلاجقة وقضوا بذلك على الدولة الغزنية [2] .



(١) تاريخ كرديزى : ص ٦٧ ط تهران.

(٢) تاريخ بيهقي : ص ٦٠٢ نشر غني وفياض والترجمة العربية للخشاب ونشأت ص ٦٦٣

وكان الأتراك السلاجقة هم أيضاً غيورين على الدين الإسلامي . وقد اتخذوا المذهب الحنفي مذهباً لهم كما كان يفعل السامانيون . وقد نشر هؤلاء السلاجقة راية الإسلام في غرب آسيا وانتصروا في صراعهم مع بيزنطة . وكان البيزنطيون قد انتهزوا فرصة الخلاف الذي وقع في العالم الإسلامي بين السنة والشيعة والذي بلغ مداه في عهد الدولة البويهية فاستولوا على بعض البلاد في سوريا وبين النهرين . وعندما صار الأمر كله في يد السلاجقة لم يسترد المسلمون ما فقدوه فحسب ، بل إنهم نشروا الإسلام في العالم البيزنطي .

ومنذ أن سيطر السلاجقة على آسيا الصغرى أخذت تلك البلاد تتأثر بالحياة التركية . وكان المجتمع هناك مكوناً من عناصر أهمها عنصر الأتراك الحاكمين ، وعنصر الإيرانيين الذي كان منتشراً هناك ، ثم السكان الأصليون الإغريق . ولم يكن هناك خلاف بين المسيحية والإسلام . وكان المسيحيون والمسلمون يعيشون في وفاق . وانتشرت الحضارة الإسلامية الإيرانية في آسيا الصغرى باعتبارها الحضارة التي صادفها الأتراك السلاجقة في رحلتهم من الشرق إلى الغرب ؛ ونقلوها معهم عندما انتقلوا إلى آسيا الصغرى .

ولا ينبغي أن ننسى دور السلاجقة في كفاح الصليبين . وكان لخلفاء هؤلاء السلاجقة ، وهم الأتراك العثمانيون ، دور كبير في الفتوح التي قاموا بها في اوربا ونشروا الاسلام .

نظام الملك :

ووجود هذا الوزير الأيراني الأصل بين هؤلاء السلاطين السلاجقة الأتراك دليل قوى على سعة أفق هؤلاء السلاجقة ، وعمق فكرهم

الحضاري . وفضلا عن أياديه البيضاء على العلم فقد كان له دور قيادي خطير في توجيه سياسة الدولة ، والحرص على التمكين لها ، وتنظيم أمورها الإدارية السياسية ، والضرب على أيدي العابثين والمنحرفين ، وحماية الدين الإسلامي من كل ما يدبر له .

ونظام الملك ولد في طوس سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م . ونال من التعليم قدراً كبيرا جعله أهلا لتوجيه سياسة تلك الدولة العظيمة .. ومع أنه إيراني إلا أنه أخلص في خدمة الدولة السلجوقية التركية . وقد سبق الحديث عن نظام الملك بشيء من التفصيل فيما مر [1] .

* * *

هذا باختصار عن بعض الدول التركية التي اعتنقت الاسلام وأسهمت بنصيب طيب في بناء صرح الحضارة الإسلامية . لكن المشكلة كانت في تلك الفروع من الترك التي لم تكن قد أسلمت بعد . وأغارت على العالم الإسلامي في حالة همجيتها وجهالتها ، وألصقت هذه التهمة . تهمة القضاء على الحضارة . بالأتراك على وجه عام . ونعني بهم المغول .

المغول : جنكيزخان

المغول فرع من الشعب التركي . كانوا في أول أمرهم قبائل رحلا تسعى وراء المراعي والعشب في شمال صحراء جوبي . ويعيشون على أكل لحوم الماشية وشرب لبنها . ويذكر لين بول أن اسم المغول لم

---

(١) راجع ص ١١١

يكن مشهوراً حتى القرن العاشر [1] ويرجع إلى « بيسوكا » الفضل في تخلص قبائل المغول من سيطرة الصين وتحقيق استقلالهم عنها . ولكن النجاح الأكبر تحقق على يد ابنه جنكيز خان الذي استطاع في عشرين سنة أن يكون إمبراطورية كبرى . وعندما توفي « بيسوكا » في سنة ١١٧٥ م حل محله ابنه تموجين (لأنه لم يكن قد سمي بعد باسم جنكيزخان) ولم يكن قد جاوز الثالثة عشرة من عمره .

ويروي لنا حبيب السير عن حياة جنگيزخان الأولى ما خلاصته أنه حين ولد كان في قبضته قدر من الدم المتجمد . وكان معنى هذا شجاعة ذلك المولود وقدرته على سفك الدماء .

واسم جنكيزخان الأصلي تموجين . وقد رأى تموجين ذات ليلة في نومه أن بيديه طالتا ، وفي كل منهما سيف ، حتى بلغتا المشرق والمغرب . وعندما حكى الطفل لأمه هذه الرؤيا فسرتها له بأنه سيستولي على عالم المشرق ، وسيريق سيفه الدماء في المشرق والمغرب .

وفي سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م غير أحد كهنة المغول اسم تموجين وجعله جنكيزخان . ومعناها في لغة التورانيين ملك الملوك .

ومن المعروف أن جنكيزخان لم يكن تابعاً لأي دين أو ملة وكان يحترز عن التعصب ، وترجيح مذهب على مذهب . وكان يعظم ويكرم زهاد وعلماء كل طائفة دون تفريق .

ولا يكاد العقل يصدق ما فعله هؤلاء المغول بالبلاد التي فتحوها من ضروب الوحشية التي تفوق التصور لولا أن المصادر المختلفة

---

(١) Lane-Poole : Moh. Dynasties, p. 202.

أجمعت عليه . ومن هذه المصادر مثلا ابن الأثير الذي يقول عن هؤلاء المغول في حوادث سنة ٦١٧ ما يأتي بعد الاختصار :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة — يقصد غزو المغول للعالم الإسلامي — استعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدم اليها رجلا وأؤخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين . ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . . » ثم يقول « وهؤلاء المغول لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة . . فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلادساغوبه ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخاري وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها دكا وتخريباً وقتلا ونهباً ثم يتجاوزونها إلى الري وهمدان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق ثم يقصدون بلاد آذربيجان وأرانية ويخربونها ويقتلون أكثر العلماء ولما ينج إلا الشريد النادر في أقل من سنة . هذا ما لم يسمع بمثله . ثم لما فرغوا من آذربيجان وأرانية ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم وعبروا عندها إلى بلد اللابه واللكز ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة فأوسعوهم قتلا ونهباً وتخريباً . ثم قصدوا بلاد القبجاق وهم من أكثر بلاد الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون إلى الغياض ورؤس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها . فعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار سيرهم لا غير . ومضت طائفة أخرى غير

هذه الطائفة إلى غزنه وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد . هذا ما لم يطرق الأسماع مثله . فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة إنما ملكها في نحو عشر سنين ولم يقتل أحداً . إنما رضي من الناس بالطاعة . وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة لم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم . ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير . وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير . . إذا نزلوا منزلا لا يحتاجون إلى شيء من خارج . وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئاً فهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها ، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الولد لا يعرف أباه » .

وهذا شاهد آخر يتحدث عن وحشية هؤلاء المغول وفظائعهم هو ياقوت الحموي (٥٧٥ — ٦٢٦ هـ / ١١٧٨ — ١٢٢٩ م) الذي كان معاصراً لإغارة المغول، وكان صديقاً أيضاً لابن الأثير . وقد استطاع ياقوت أن ينجو بحياته بكل مشقة من شرهم . وفي الخطاب الذي كتبه ياقوت إلى القاضي الأكرم جمال الدين أبي الحسن على الشيباني القفطي وزير ملك حلب يتحدث عما رآه من الأهوال وما لقيه من المصاعب حتى استطاع أن ينجو من مرو ويصل إلى الموصل . وقد أورد ابن خلكان هذه الرسالة

في ترجمته لياقوت [1]. يقول ياقوت في هذه الرسالة بعد مقدمات «كان المقام بمرو الشاهجان المفسر عندهم بنفس السلطان، فوجد بها (أي ياقوت) من كتب العلوم والآداب وصحائف أولي الأفهام والألباب ما شغله عن الأهل والوطن وأذهله عن كل خل صفي وسكن، فظفر منها بضالته المنشودة وبغية نفسه المفقودة، فأقبل عليها اقبال النهم الحريص وقابلها بمقام لا يزمع عنها محيص، فجعل يرتفع في حدائقها ويستمتع بحسن خلقها وخلائقها، ويسرح في طرفها، ويتلذذ بمبسوطها ونتفها، واعتقد المقام بذلك الجناب إلى أن يجاور التراب.. إلى أن حدث بخراسان ما حدث من الخراب والويل المبير والتباب، وكانت لعمر الله بلاداً مونقة الأرجاء، رائقة الأنحاء، ذات رياض أريضة: وأهوية صحيحة مريضة، قد تغنت أطيارها فتمايلت طرباً أشجارها، وبكت أنهارها فتضاحكت أزهارها، وطاب روح نسيمها فصح مزاج إقليمها. ولعهدي بتلك الرياض الأنيقة. والأشجار المتهدلة الوريقة وقد سالت إليها أرواح الجنائب زقاق خمر السحائب فشقت مروجها مدام الطل فنشأ على أزهارها حباب كاللؤلؤ المنحل. فلما رويت من تلك الصهباء أشجاره، ورنحها من النسيم خماره فتدانت ولا تداني المحبين وتعانقت ولا عناق العاشقين يلوح من خلالها شقائق قد شابه اشتقاق الهوى بالعليل فشابه شفتي غادتين دنتا للتقبيل.. الخ هذه التشبيهات إلى أن يقول: وجملة أمرها أنها كانت أنموذج الجنة بلا مين: فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين. قد اشتملت عليها المكارم.. ومن العجب العجاب أن سلطانهم المالك هان عليه ترك تلك الممالك وقال لنفسه اله وآلك، وإلا فأنت في الهوالك.

(١) ابن خلكان: ج ٥ ط محيي الدين.

وأجفل إجفال الزال . وطفق إذا رأى غير شيء ظنه رجلا بلا رجال .
لكنه عز وجل لم يورثها قوماً آخرين تنزيها لأولئك الأبرار عن مقام
المجرمين بل ابتلاهم فوجدهم شاكرين . وبلاهم فألفاهم صابرين
فالحقهم بالشهداء الأبرار ، ورفعهم إلى درجات المصطفين الأخيار ..
فجاس خلال تلك الديار أهل الكفر والإلحاد ، وتحكم في تلك الأستار
أولو الزيغ والعناد ، فأصبحت تلك القصور كالممحو من السطور ،
وأمست تلك الأوطان مأوى للأصداء والغربان . يتجاوب في نواحيها
البوم . ويتناوح في أراجيها السموم فيستوحش فيها الأنيس . ويرثى
لمصابها إبليس . . فإنا لله وإنا اليه راجعون من حادثة تقصم الظهر .
وتهدم العمر . وتفت في العضد . . فحينئذ تقهقر المملوك (يعني
نفسه) على عقبه ناكصاً . ومن الأوبة إلى حيث تستقر فيه النفس
بالأمن آيساً بقلب واجب ، ودمع ساكب ، ولب عازب . وحلم
غائب . فتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل بعد مقاساة أخطار .
وابتلاء واصطبار ، وتمحيص الأوزار . وإشراف غير مرة على البوار
والتبار لأنه مر بين سيوف مسلولة . وعساكر معلولة ، ونظام عقود
محلولة ، ودماء مسكوبة مطلولة . وكان شعاره كلما علا قتباً أو قطع
سبسبا (لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً) فالحمد لله الذي أقدرنا على
الحمد . وأولانا نعمة تفوت الحصر والعد . وجملة الأمر أنه لولا
فسحة في الأجل لعز أن يقال سلم البائس أو وصل . ولصفق عليه أهل
الوداد صفقة المغبون . وألحق بألف ألف هالك بإيدي الكفار أو
يزيدون . . » إلى آخر الرسالة .

وكان هؤلاء المغول يتعمدون استخدام هذه الأساليب الوحشية
لإيقاع الرعب في قلوب أعدائهم . وكانوا يرون أن تخريب البلدان .
وإبادة السكان أضمن لهم حتى لا ينقض عليهم أهلوها فيشغلوهم

ويعطلوا زحفهم. ويستنزفوا قواهم في معارك جانبية

ولم يكن الأسرى الذين يقعون في أيديهم أحسن حالا من القتلى. فقد كانوا يستخدمونهم في مقاتلة مواطنيهم، ويجعلونهم في المقدمة، ولم يكونوا يتورعون عن إلقائهم في الخنادق ليتخذوا من أجسادهم قنطرة يعبرون عليها. وعلى العموم لم تكن للحياة الآدمية أية قيمة عندهم. إلا أنهم كانوا يستثنون من هذا المصير من يجدونه من أهل البلاد المفتوحة المفتوحة من أهل الحرف والصناعات لأنهم كانوا يتمتعون بهم.

ولا شك في أن هؤلاء المغول كانت الصرامة طابع حياتهم. وكان الجندي المغولي يمتاز بالنظام والطاعة العمياء للرؤساء. وإذا خرج عن الأصول المرعية كان عقابه شديداً.

ولا تحصى الأمثلة التي وردت في المصادر التاريخية على وحشيتهم وغلظة أكبادهم. ومن أمثلة هذا ما فعلوه بأهل خوارزم فإنهم أعملوا سيوفهم في رقاب أهلها. ولم ينج منهم الا أصحاب الحرف والصناعات الذين نقلوهم إلى منغوليا كعادتهم. وفي مدينة مرو بلغ عدد القتلى رقما قياسياً يقدره ابن الأثير ب ٧٠٠،٠٠٠ بينما يرفعه صاحب جهانگشا إلى ١،٣٠٠،٠٠٠ وفي نيسابور قطع المغول رؤس القتلى. وجعلوا منها أهراماً عالية، أحدها للرجال، والثاني للنساء. والثالث للأطفال. وفي مدينة باميان ثارت ثائرة هؤلاء المتوحشين لمصرع واحد من أمرائهم أثناء القتال. فخربوا المدينة تخريباً كاملا وتركوها قاعاً صفصفاً. وظلت بهذا الشكل مهجورة خالية قرناً من الزمان. وعندما زار الرحالة المعروف ابن بطوطة مدينة بلخ في سنة ٧٢٧ هـ في عهد السلطان أبي

سعيد وجدها خاوية على عروشها بعد أن خربها « تنكيز اللعين » .[1]
وكذا كانت الحال في مدينة ترمذ ، فقد خرب المدينة القديمة تنكيز — كما يذكر ابن بطوطة — وكانت مبنية على شاطىء جيحون . وأما التي شاهدها ابن بطوطة فهي المدينة الحديثة وقد بنيت على بعد ميلين من النهر [2] وفي بخارى أمر بإشعال النار في بيوتها . وكان أغلبها من الخشب . فاحترقت المدينة كلها في يوم . ولم يسلم من مبانيها سوى المسجد الجامع وبعض القصور المبنية بالطوب الأحمر . وقد روى أن أحد البخاريين ذهب إلى خراسان بعد هذا الحريق فسئل عن حال بخارى . وكيف انتهى أمرها مع الغزاة الفاتحين فقال « جاءوا وقلعوا وأحرقوا وقتلوا وحملوا » [3] . ويعلق صاحب حبيب السير فيقول في الواقع لا يمكن أن توجد عبارة في الفارسية أوجز من هذه ففيها بيان ما وقع في بخارى من جيش المغول . وفي مدينة أترار ساقوا جميع أهلها إلى الصحراء وأجهزوا عليهم بالسيوف الحادة . ويذكر حبيب السير أن المغول قتلوا في قزوين بسيف الحقد ما يقرب من خمسين ألف رجل حتى ارتوت الأرض بالدماء . ونبتت من دماء القتلى الزهور المشوقة القد الوردية الخد [4] . وفي الري كان هناك تعصب مذهبي بين الأهالي . وعندما سمع الشافعية بخبر وصول المغول أسرعوا لاستقبالهم . وحرضوا القائدين المغوليين (جبه) و (سويداى) على قتل نصف المدينة الذين كانوا أحنافاً . فأبادهم المغول بحد السيف . وبعد ذلك قالوا لأنفسهم أي خير يرجى لنا من الذين يسعون في دم مواطنيهم ؟

---

(١) رحلة ابن بطوطة : ص ٣١٧ ط الأميرية ١٩٣٩

(٢) نفس المصدر : ص ٣١٦

(٣) خواندمير : حبيب السير ج ٣ .

(٤) نفس المصدر والجزء .

ثم قتلوا الشافعية أيضاً في عقب الحنفية .

وكان من عادة هؤلاء المغول أن يسموا المولود باسم أول داخل في البيت عند ولادته . وقازان وقازغان هو القدر . قيل سمى غازان بذلك الاسم لأنه لما ولد دخلت عليه جارية ومعها قدر [1] .

وكان من عادة المغول حسب أحكام الياسا أو الياساق أن يجتمعوا مرة كل سنة على هيئة مؤتمر عام يحضره الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة . وكانوا يحاسبون الملوك على سياستهم ومدى التزامهم بتنفيذ أحكام الياسا .

وكان الاستحمام عند هؤلاء المغول من الجرائم التي تصل عقوبتها إلى الإعدام ، وكذلك كان تنظيف الأيدي أو الملابس في المياه الجارية [2] .

وكانت طريقتهم في ذبح الحيوان صورة لوحشيتهم إذ كانوا يشقون بطنه ويخرجون ما في جوفه . وحرموا على المسلمين أن يذبحوا بطريقتهم [3] .

وكان من عاداتهم عند وفاة ملوكهم أن يقتلوا مجموعة من الفتيات الحسناوات ويقدموهن قرباناً لروح الملك .

كما كان من عاداتهم إذا مات ملك من ملوكهم أن يسدوا الطرق ويمنعوا الناس من التنقل حتى لا يروا جنازته . وغرضهم من ذلك أن يخفوا موته على الناس قبل أن يعلن رسمياً . ومن أوقعه سوء حظه

---

(١) خواندمير : حبيب السير ج ٣

(٢) براون : ٢ / ٤٤٠ والترجمة العربية ٥٦١

(٣) نفس المصدر

في طريق الجنازة قبل إعلان الخبر رسمياً قتل . ويذكر براون نقلا عن دوسون أن أوكداي أمر بقتل أربعين فتاة عذراء قرباناً لروح جنكيزخان . وضرح الجند الذين رافقوا جثمان الامبراطور المغولي منكوخان إلى مثواه الأخير في جبال التاي بأنهم قتلوا في طريقهم ما لا يقل عن ٢٠,٠٠٠ شخص [١]

أما كيف حلت هذه اللعنة بالعالم الإسلامي فتفاصيل ذلك في كتب التاريخ .

هؤلاء هم المغول الذين كانت وحشيتهم وميلهم إلى التخريب والتدمير والقضاء على كل ما يصادفهم من أسباب الحياة والحضارة سببا ألصق بالأتراك عامة هذه الوصمة . ومع ذلك فإن هؤلاء الغزاة القساة لما استقروا ومارسوا الحكم والسياسة لم تخل عهود حكمهم من الحسنات .

إذا بدأنا بزعيم هؤلاء المغول جنكيزخان وجدنا أنه لم يتعرض لدين أحد . وكفل لأهل الملل حريتهم الدينية . ولم يعتنق هو دينا من الأديان [٢] .

وفي ايران نفسها حيث حكم هولاكو وذريته الذين يعرفون بالايلخانيين فإن الموقف تجاه الاسلام كان يختلف من ملك إلى آخر حتى عهد غازان حين استقر الأمر للإسلام .

فهولاكو مثلا (٦٥٤ — ٦٦٣ هـ/ ١٢٥٦ — ١٢٦٥ م) كانت زوجته الكبرى مسيحية من قبيلة قرايت الذين كانوا قد اعتنقوا

---

(١) براون : ٢ / ٤٤٥ والترجمة العربية ص٥٦٧

(٢) تذكر بعض المصادر أنه كان على دين البوذية.

المسيحية . وكان لهذا السبب يعطف على المسيحية ، وله علاقات طيبة مع البابا اسكندر الرابع الذي أرسل إليه في سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م يشجعه على اعتناق المسيحية .

وكان غازان خان ٦٩٤ ـ ٧٠٣ هـ / ١٢٩٥ ـ ١٣٠٤ م من الشخصيات البارزة حقاً في تاريخ الإسلام . وكان اسلامه نصراً للدين فإنه على أثر إسلامه دخلت القبائل المغولية في الإسلام ، وجعل الاسلام دين الدولة الرسمي . وبدأ غازان يدخل على المجتمع المغولي تغييرات جديدة تكسبه الطابع الإسلامي ، فغير النقوش على العملة بما يتفق مع العهد الجديد ، وأمر بهدم الكنائس المسيحية والمعابد البوذية في ايران . وبسبب تعصبه للإسلام دبرله أعداء الإسلام من أشراف المغول وزعمائهم مؤامرة لقتله انتهت بالفشل وبمقتلهم هم .

أما تيمور فلم يكن له في الحقيقة من الإسلام سوى الاسم . وكان كما يقول ابن عربشاه معتقداً للقواعد الجنكيزخانية (قواعد الياسا) يعمل بها وينفذها مع ما فيها من مخالفة للشريعة الإسلامية . ولذلك فإن بعض العلماء وأئمة الإسلام قد أفتوا بخروج تيمور على الشريعة وكفروه [١] . ومع هذا فقد كان يواظب على سماع التواريخ وقصص الأنبياء عليهم السلام بالفارسية لجهله بالعربية [٢] . وكما كان عسكر تيمور يضم عبدة الأصنام والمجوس وغيرهم من أصحاب المعتقدات المختلفة فقد كان يضم كذلك عدداً من العباد الصلحاء والزهاد الأتقياء . ويتضح مما كتبه ابن عربشاه أن تيمور كان يحرص

---

(١) عجائب المقدور : ص ٢٢٠

(٢) نفس المصدر والصفحة

على اصطحاب هؤلاء العلماء والزهاد معه ، وأنه كان يصطنع الحيلة معهم ليغريهم بملازمة عسكره [١] .

ويذكر براون [٢] . أنه على الرغم مما عانته البلاد من قتل العلماء ، وتخريب المكتبات ودور العلم الا أن العلم مع ذلك لم يقض عليه . وكانت بعض فروع العلم أحسن حظا من بعضها الآخر . وبينما أهمل المغول الاهتمام بالدراسات الخاصة بالفلسفة أو العقيدة أو توجيه العناية إلى الشعر نراهم يهتمون ببعض فروع العلم الأخرى كالطب والتنجيم والتاريخ . وكان للتاريخ مكانة ممتازة في قلوبهم ، فقد كانوا يرون أن هذا الفرع من العلم هو الذي يحفظ أخبارهم ويخلد ذكرهم .

وكان تيمور – كما أشرنا من قبل – يكثر من الاستماع إلى التواريخ وسير الملوك حتى حفظها من كثرة التكرار . ولذلك كان اذا أخطأ احد أمامه في بعض المعلومات التاريخية رده إلى الصواب ، بينما لم يكن يهتم بالشعراء . ومن المعروف عنه تخريبه قبر الفردوسي صاحب الشاهنامه . وتنقل بعض المؤلفات أن تيمور قال على قبر الفردوسي هذا البيت :

سر ازكور برادر وايران ببين   زدست دليران توران زمين

ومعنى هذا البيت : أخرج رأسك من القبر وانظر إلى ايران وما يعانيه شعبها على يد أبطال التورانين . وهذا البيت يصور نقمة

---

(١) عجائب المقدور : ص ٢٤١

(٢) Browne : A Literary History of Persia p. 16 vol. 3.

التورانيين على الإيرانيين، وشعور العداوة المتبادل بينهما . ولكن يبعد أن يكون هذا قد حدث،أو أن يكون تيمور هو صاحب هذا البيت، فقد عرف عنه أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب . وكيف لمثله أن يكون موهوبا في الشعر دون أن تشير إلى ذلك المصادر .

على كل حال كانت المؤلفات التاريخية في العهد المغولي تحتل مكان الصدارة . وفي الفصل الثاني من الجزء الثالث من كتاب براون (تاريخ ادبي لفارس A Literary History of Persia) تفصيل واف عن المصادر التاريخية التي ألفت في عهد الايلخانيين . وكذلك في البحث الذي كتبه أستاذنا المغفور له الدكتور ابراهيم أمين الشواربي ونشره في مجلة كلية الآداب بالقاهرة . المجلد السابع ١٩٤٤ وعنوانه « مصادر فارسية في التاريخ الاسلامي »

ومن أهم هذه المصادر التاريخية التي ألفت في هذا العهد :

تاريخ جهانگشا لعطا ملك الجويني ، تاريخ وصاف لأبي عبدالله الشيرازي ، جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله في ٧١٠ هـ ، تاريخ گزيده لحمد الله المستوفي القزويني في سنة ٧٣٠ هـ ، ظفر نامه له أيضا ، روضة الصفا لمير خواند ، دستور الوزراء له أيضا ألفه في سنة ٩١٤ هـ .

وأما المؤلفات الأدبية التي ترجع إلى عصر المغول فكثيرة نشير منها إلى ما يأتي :

« لباب الألباب » . ألفه عوفي سنة ٦١٨ هـ . ولنفس المؤلف :

« جوامع الحكايات » الذي انتهى من تأليفه سنة ٦٣٠ هـ

« المعجم » في معايير أشعار العجم : ألفه شمس الدين بن قيس الرازي في سنة ٦٣٠ هـ

وأخلاق ناصري ، وكلستان سعدي ، تذكرة الشعراء لدولتشاه وبهارستان لجامي وغيرها .

ومن العلماء والمتصوفه الذين اشتهروا في العهد المغولي نصير الدين الطوسي (٥٩٧ — ٦٧٢) وزكريا القزويني (٦٠٠ — ٦٨٢ هـ) والقاضي البيضاوي (المتوفي ٦٨٥ هـ) وقطب الدين الشيرازي (٦٣٤ — ٧١٠ هـ) والقاضي عضد الإيجي (المتوفي ٧٥٦ هـ) وقطب الدين الرازي (المتوفي ٧٦٦ هـ)

أما الشعراء فكثيرون نشير منهم إلى :

كمال اسماعيل الأصفهاني (متوفي ٦٢٥هـ)، وجلال الدين مولوي بلخى (٦٠٤ — ٦٧٢ هـ) وأشهر أعماله المثنوي الذي يتألف من ٢٦ ألف بيت . ويعد أهم الآثار الأدبية في التصوف . وسعدى الشيرازي ، وهمام التبريزي (متوفي ٧١٤ هـ) ، وأوحدى مراغي (متوفي ٧٣٨ هـ) وحافظ شيرازي (متوفي ٧٩١ هـ) ، وجامي .

وفي أقسى عهود الحكم التركي في إيران وهي عهود المغول لم تمت الفنون المختلفة . وقد أشرنا فيما سبق إلى حرص هؤلاء المغول في فتوحهم على سلامة الصناع ، وأصحاب الحرف لينتفعوا بهم في أعمالهم الإنشائية . وقد أورد ابن عربشاه أسماء كثير من الفقهاء والعلماء والمحدثين والقراء والوعاظ والكتاب والمنجمين والنقاشين والفنانين والشطرنجيين الذين اتصلوا ببلاط تيمور .

وعرف عن تيمور أنه كان شديد العناية بتزويد وطنه وعاصمته سمرقند بكل ألوان الحضارة ومقوماتها . وقد أنشأ بظاهر سمرقند من القصور والبساتين ما جعلها من أجمل بلاد العالم الإسلامي وقتذاك .

وكما كان تيمور مولعاً بالحدائق فقد كان أيضاً مولعاً بالعمارة . بنى في سمرقند مدرسة دينية كبيرة باسم زوجته بيبي خاتون : كذلك تعد مقبرته المعروفة باسم كورمير أي قبر الأمير من الأمثلة المعمارية الرائعة في العهد التيموري .

وكانت كوهرشاد إحدى زوجات شاه رخ من المولعين بفن العمارة . وقد أنشأت مسجد كوهر شاد المقام في مشهد .

وترجع مكانة غازان في التاريخ إلى الإصلاحات العظيمة التي قام بها كتنظيم الضرائب ، ونشر العدالة ، وإقامة المؤسسات العامة الدينية والثقافية . وكان غازان ولوعاً بفن العمارة كما كان يحسن عدداً من اللغات كالفارسية والعربية والصينية إلى جانب لغته الأم المغولية .

ويرجع إلى المغول الفضل في أنهم نشروا بإيران الحرير الصيني . وأتاحوا الفرصة للإيرانيين ليحاكوه وينتجوا أنواعاً جديدة منه لقيت رواجاً في الأسواق الخارجية ، وعادت بالنفع على الإيرانيين .

وقد ظهر في عهد المغول نوعان من الخط ، أولهما الخط المعروف باسم تعليق في القرن السابع الهجري ، وثانيهما الخط المعروف باسم نستعليق . وهذا الأخير ينسب اختراعه إلى أحد كتاب تيمور وهو مير علي التبريزي وابنه عبد الله . وقد تقدم فن الخط تقدماً عظيماً في عهد تيمور الذي شمل برعايته الخطاطين . وكان من مظاهر تقدم هذا الفن الاسلامي الجميل أن عدداً كبيراً من رجال الدولة كانوا من

الخطاطين أمثال بدر الدين أحد وزراء تيمور ، وابراهيم ميرزا ، وبايسنقر ميرزا من أحفاد تيمور (١) .

وازدهر فن التذهيب في عهد المغول . وكان السلطان الجايتو يشجع أصحاب هذا الفن . وكان يعهد إلى الفنانين بتذهيب أعمال كثيرة . ويتضح تقدم هذا الفن من تلك النسخ العديدة المذهبة من القرآن الكريم التي كانوا يقدمونها اليه (٢) .

أما المنسوجات فقد بدأت تزدهر في إيران من عصر السلاجقة الذين حملوا إلى ايران المنسوجات الصينية . ولا شك في أن صناعة النسيج في إيران قد تأثرت بالطابع الصيني بسبب هجرة القبائل التركية من الشرق واستقرارها في إيران . وكان لصناعة النسيج في العهد المغولي مراكز مزدهرة مثل هراة ونيشابور وتبريز وقم .

وكان فن التصوير في عهد المغول فناً ايرانياً ممتازاً . وكان كتاب جامع التواريخ من أول المخطوطات الفارسية التي زينت بالصور ونالت الشاهنامه اهتماماً عظيماً من المصورين .

ولا ريب في أن الإفاضة في الحديث عن الفنون الإيرانية أمر لا يقتضيه هذا المقام . ومن المناسب أن نقف عند هذا الحد لأن ما ذكرناه كله من ألوان الحضارة في ميادين الأدب والفن لم يكن مقصوداً لذاته . ولا كان هدفاً لدراسة وإنما كان كله مجرد عرض سريع

---

(١) زكي محمد حسن : الفنون الايرانية في العصر الاسلامي ص ٣٤

(٢) Legacy of Persia P. 133 by D. Barrett.

والترجمة العربية لأحمد عيسى في تراث فارس ص ١٨١ .

للتدليل على أن الحكم التركي في ايران لم يكن شراً كله لأنه لم يخل من حسنات .

ومن هذا نرى أن نولدكه وبروكلمان ولوبون في موقفهم من العنصر التركي والحضارة قد أطلقوا أحكاماً عامة تختلف مع الحقيقة في بعض التفاصيل .

وواضح مما تقدم أن ما نسب الي الأتراك من الميل الي تقويض معالم الحضارة كان مرجعه في نظرنا : —

١) إلى هذه الغارات الوحشية التي قام بها المغول على العالم الاسلامي يخربون ويدمرون فتركت في نفوس المؤرخين أثرا سيئا نحو الجنس التركي كله .

٢) إلى هذه الجهود الموفقة التي شارك بها الأتراك السلاجقة في كفاحهم ضد الصليبيين . وانتصارهم في صراعهم مع بيزنطة .

٣) إلى خلفاء السلاجقة في آسيا الصغرى وهم الأتراك العثمانيون الذي توغلت جيوشهم في أوربا ونشرت الاسلام هناك . ولا أشك في أن هذه الحروب وما لازمها من انتشار الاسلام قد رسب في أعماق المسيحيين بعض المرارة التي تتمثل في كتاباتهم عنهم .

الحضارة الاسلامية في الهند

كان من عادة المسلمين قبل أن يقدموا على فتح قطر من الأقطار أن يعرفوا عليه أولا ، ويقوموا بغزوات صغيرة متقطعة ليختبروا عدوهم ، ويعجموا عوده ، ويقفوا على حقيقة أمره واستعداده . فعلوا هذا في أقطار كثيرة . وفعلوه أيضاً في الهند . وفي خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه صدر الأمر إلى والي العراق عبدالله بن عامر بن كريز لكي يوجه إلى ثغر الهند من يتعرف عليه ويعلم علمه . فوجه الوالي إلى الهند حكيم بن جبلة العبدي . ولما رجع أوفده إلى عثمان ليقدم إليه تقريره بما رأى . ولكن عثمان فوجىء بتقرير يعرض فيه الرسول بلاغته لا مهارته ، ويحشوه بالأسجاع لا بالمعلومات المفيدة في مثل هذا المقام فكان مما قاله عن الهند : ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل . إن قل الجيش فيها ضاعوا ، وإن كثروا جاعوا . فقال له عثمان : أخابر أم ساجع ؟ وأهمل تقريره[1] .

وتجدد الأمر في خلافة علي رضي الله عنه في أوائل سنة ٣٩ فقد أذن للحارث بن مرة العبيدي أن يتوجه إلى الهند ، فظفر في أول الأمر وأصاب مغنماً كبيراً إلا أنه بعد ذلك قتل في سنة ٤٢ في بلاد السند .

ثم تتابعت بعد ذلك الغزوات في بداية عهد الدولة الأموية . وكانت كلها

---

(١) فتوح البلدان : ص ٦٠٧ نشر الطباع ١٩٥٧ م .

غزوات صغيرة لم يكن لها شأن كبير إلى أن جاءت أيام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وعامله على العراق الحجاج . وكانت العراق هي المركز الذي تدار منه جميع مناطق الدولة الشرقية ومن بينها الهند . وكل من ولى أمر العراق كان يلي بلاد الشرق بأسرها . وعلى هذا الأساس كانت فتوح الهند ، واعداد الجيوش اللازمة لها من مهام والي العراق .

وكانوا في عهد الراشدين لا يؤمرون في المغازي إلا الصحابة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يأتي على الناس زمان يغزون فيقال فيكم من صحب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون نعم ، فيفتح عليهم . ثم يغزون فيقال ثم هل فيكم من صحب من صحب الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون نعم ، فيفتح لهم » . وعلى هذا كانوا لا يؤمرون على مثل هذه الغزوات الا الصحابة حتى انقرضوا بعد مضي سنة عشر ومائة ، [2] ثم التابعين من بعدهم [3] .

ويمكن أن نلاحظ أن الفتوح الاسلامية الرئيسية لبلاد الهند تمت على يد فريقين من المسلمين وسلكت طريقين مختلفين :

أما الفريق الأول فكان عربياً . وأبرز من يمثل هذا الفريق محمد بن القاسم الثقفي . وقد سلك في فتح بلاد الهند طريق السند وبلوخستان (٩٢ — ٩٦ هـ)

أما الفريق الثاني فكان تركياً . وجاءت جيوشه إلى الهند عن طريق المقاطعات الشمالية الغربية . ويمثل هذا الفريق أولا السلطان محمود الغزني (٣٨٨ — ٤٢١ هـ) أعظم سلاطين الدولة الغزنية . ثم جاء بعد ذلك المغول — وهم فرع من الأتراك — وأقاموا هناك دولة إسلامية كبرى كان لها شأنها العظيم في تاريخ بلاد الهند .

° ° °

---

(١) الإصابة : للحافظ بن حجر ج ١ / ٦ .

(٢) الصحابي من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعي من صحب من صحب رسول الله

أما تلك الغزوة العربية بقيادة محمد بن القاسم الثقفي فقد كانت تأديباً لحاكم السند « راجا داهر » الذي كان يحمي الثائرين من العرب على الدولة ، وكذلك كانت تأديباً لقراصنة ديبل الذين كانوا يغيرون على السفن التي تنقل البضائع من ثغور الهند إلى بلاد العرب . ولهذا صمم الحجاج على توجيه الحملة إلى تلك البلاد والقيام بغزوها . واستأذن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ هـ / ٧٠٥ – ٧١٥ م) الذي أذن له . وعين الحجاج لقيادة الحملة ابن اخته محمد بن القاسم الثقفي وأمده بجيش يزيد عدده على ستة آلاف مقاتل . ولم يكن عمر محمد بن القاسم وقتذاك يتجاوز السابعة عشرة . وكان محمد في تقدمه وفتحه للبلاد يقابل من داهر بالاستخفاف إذ استصغر شأنه في أول الأمر إلى أن تقابل معه المسلمون وهو في جيشه الضخم يركب فيله وتحيط به الفيلة من كل جانب . ودارت المعركة واحتدم القتال وأصيب فيله فوقع واضطر داهر أن يقاتل راجلا . وقبل أن ينتهي اليوم كان داهر قد قتل [1] . وبمقتله انفرط عقد جيشه ، وسهل أمر الفتح بعد ذلك على المسلمين ، ودانت لهم بلاد السند . وكان من مآثر محمد بن القاسم الثقفي أنه أشاع فيما فتحه من البلاد العدل والطمأنينة . وكان يوصي عماله بإنصاف الناس ، والرفق بهم في الخراج فلا يكلفون بما لا يطيقون . وكان من نتائج هذه السياسة الرشيدة ، والسيرة المحمودة أن تعلق الناس به ، وبالإسلام . واستطاع محمد بخلقه ، وعدله ، ورفقه بالناس أن يجمع قلوب أهل الهند حوله .

ويبدو أن الحجاج كان يكفيه ما تم من هذا الفتح ، لأنه نظر في أمر هذه الحملة فوجدها كلفت الدولة عشرين ومائة ألف درهم وعادت على المسلمين

---

(١) كان الذي قتله رجلا من بني كلاب . هزته الفرحة بالنصر فأنشد :

الخيل تشهد ديوم داهر والقنا ... ومحمد القاسم بن محمد
أني فرجت الجمع غير معرد ... حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلا ... متعفر الخدين غير موسد

راجع البلاذري – فتوح البلدان ص ٦١٥ .

بربح بلغ ستين ألف ألف درهم فضلاً عن أنها شفت الغيظ ، وأدركت الثأر ، وأطاحت برأس داهر [1] .

ولكن الحجاج مات قبل أن يصل إلى قرار نهائي في أمر هذه الحملة . وبلغ الخبر محمداً فتوقفت فتوحه فترة . ثم مات بعد ذلك الخليفة الوليد وتولى بعده أخوه سليمان بن عبد الملك . ولكن الخليفة الجديد عالج أمر هذا الفتح الإسلامي العظيم بأسلوب شخصي صغير . ذلك أن الوليد قبل أن يموت أراد أن يجعل ولاية العهد لابنه دون أخيه ، وكان الحجاج قد أيده فيما عزم عليه ، فلما تولى سليمان صب غضبه ونقمته على آل الحجاج ومنهم ابن اخته محمد بن القاسم الثقفي . وولى سليمان على العراق صالح بن عبد الرحمن ، وكان هو الآخر موتورا من الحجاج الذي كان قد قتل آدم أخاه . وهكذا وجد الخليفة ، وعامله على العراق الفرصة سانحة للانتقام من البطل العربي الذي عزل وعومل معاملة مهينة ، وأعيد إلى العراق مقيداً ، ثم حبس في واسط إلى أن قتل . وهكذا أضاع الخليفة بطلا إسلامياً عظيماً كان يرجى منه خير عظيم للعروبة والاسلام وللدولة الأموية نفسها لو أن الخليفة ارتفع عن هذا المسلك الشائن .

وقد مهدت غزوة محمد هذه لانتشار الإسلام في بلاد الهند ، كما أنها نشطت حركة التجارة بين الهنود والعرب ، ونبهت أذهان المسلمين إلى أهمية تلك البلاد من الناحية الدينية والاقتصادية .

• • •

ثم تأتي بعد ذلك غزوات السلطان محمود الغزني لبلاد الهند . ولا شك في أن فتوح السلطان محمود الغزني كانت أهم فتوحات المسلمين في تلك البلاد . وكان محمود قد فرض على نفسه غزو الهند كل عام مدفوعاً إلى ذلك برغبته في التكفير عما كان منه من قتال المسلمين [2] .

---

(١) فتوح البلدان : ص ٦١٨ .

(٢) ابن الأثير : ج ٩ / ٦٣ .

ففي سنة ٣٩٢ هـ/ ١٠٠١ م غزا الهند ، وقتل من أهلها عدداً عظيماً ، وأسر ملكها جيبال الذي لم يطق العيش في ذل الاسر فانتحر .

وفي سنة ٣٩٦ هـ/ ١٠٠٥ غزا المولتان بسبب ما بلغه من الحاد واليها ، وأنه يغري الناس باتباعه .

وفي سنة ٤٠٤ هـ/ ١٠١٣ م قام بغزو ناردين وافتتحها بعد هزيمة الهنود .

وفي سنة ٤٠٥ هـ/ ١٠١٤ م وقعت في يد المسلمين تانيشر ، وغنم المسلمون ما كان مع الهنود في تلك الغزوة من الأموال الطائلة والفيلة .

ولما قصد محمود قشمير سعى اليه صاحبها موادعا وأسلم على يده فسلمت بذلك بلاده . واتجه محمود بعدها إلى قنوج فأخذها في سنة ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م .

وتعتبر سنة ٤١٦ هـ/ ١٠٢٥ م من السنوات المهمة في تاريخ الفتوح الاسلامية ففي هذه السنة فتح محمود عدداً من بلاد الهند ، وحصونها ، وحطم الصنم المعروف عندهم بسومنات . وكان سومنات في معبد خاص به داخل حصن حصين على ساحل البحر بحيث تبلغه أمواجه مما يجعل مهمة المهاجمين شاقة عسيرة . وقد ظن الهنود الذين يدافعون عن هذا الحصن أن معبودهم سومنات سيقطع دابر الأعداء ويهلكهم . وقد ملأهم هذا الشعور الديني حماسة وغيرة فقاوموا المسلمين مقاومة عنيفة عند أسوار الحصن . واستطاع المسلمون أن يجلوهم عن السور بعد أن أكثروا فيهم القتل ، ثم توغلوا في الداخل حتى بلغوا المعبد الذي أقيم به سومنات ، فقاتلهم الهنود قتالا عنيفاً دفاعاً عن معبودهم الذي ينفعهم في هذه المحنة ، ودخل المسلمون إلى الصنم فحطموه ، وأخذ السلطان محمود بعض أجزائه فجعلها عتبة الجامع الذي بناه بغزنه [1] .

وقد أفاد المسلمون من هذه الغزوة فوائد عظيمة اذ كان الهنود يحجون إلى صنمهم هذا من كل مكان . ويقول ابن خلكان إنهم كانوا يتحفونه بكل نفيس . ولم يبق في بلاد الهند والسند على تباعد أقطارها وتفاوت أديانها ملك ولا

---

(١) ابن الأثير : ١٢٩

سوقة الا تقرب إلى هذا الصنم بما عز عليه من أمواله وذخائره حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية مشهورة بتلك البقاع ، وامتلأت خزائنه من أصناف الأموال . وفي خدمته من البراهمة ألف رجل يخدمونه ... الخ [٢] . ويتابع ابن خلكان حديثه فيقول : كانت القلعة التي بها الصنم عبارة عن حصن حصين حتى انهم فتحوها في ثلاثة ايام ، ودخلوا بيت الصنم وحوله من الاصناف الذهب المرصع ، وبأصناف الجواهر عدة كثيرة محيطة بعرشه ... الخ .

وظل محمود على عادته في غزو بلاد الهند إلى أن توفي في ربيع الآخر سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م بالغاً من العمر احدى وستين سنة .

ولا يقل عدد الحملات التي قام بها محمود عن سبع عشرة حملة . والحق ان غزوات محمود في بلاد الهند لم تكن كلها موفقة . وقد أصابه في الهند بعض الهزائم . ولكن المؤرخين المسلمين لم يهتموا بذكرها ، واكتفوا بإشارات عابرة اليها . وعلى العموم فان هذه الهزائم لم تفت في عضد السلطان ، ولم تؤثر في مجهوداته الحربية ضد الهند .

وكانت لغزوات محمود نتائج بعيدة المدى في بلاد الهند من حيث نشر الدين الاسلامي ، والحضارة الاسلامية . كما كانت هذه الغزوات مصدراً للأموال والثروات التي تدفقت على المسلمين .

وقد دام سلطان محمود الغزني وآله في غزنه ولاهور من سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م إلى ٥٨٢هـ/١١٨٦ م حين طردهم السلطان محمود الغوري وقضى على ملكهم في الهند .

* * *

عين السلطان محمود الغوري مملوكه قطب الدين أيبك نائباً عنه في دهلي . فلما توفي أعلن قطب الدين نفسه حاكماً على الهندستان في ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦ م

---

(١) ابن خلكان : ٢ / ١١٢

وأسس بذلك اولى الدول الاسلامية التي حكمت الهند حكماً مستقلاً [١] .
وكانت تعرف هذه الدولة باسم سلاطين دهلي أو الملوك المماليك . وكان أعظم ملوك هذه الدولة التمش Altamish أو التتمش Iltutmish الذي أخضع حاكم السند ، وأرغم حاكم البنغال على الاعتراف بسيادة دهلي .

ودام ملك سلاطين دهلي من ٦٠٢ هـ – ٩٦٢ هـ / ١٢٠٦ – ١٥٥٤ م ثم خلفهم في حكم الهند بعض الأسر الاسلامية الاخرى [٢] .

* * *

ولما أغار تيمورلنك على بلاد الهند لم يجد صعوبة في القضاء على الاسرة الحاكمة التي كانت قد فقدت كل تأييد بسبب سوء سياسة سلاطينها ، واستولى تيمور على دهلي من السلطان محمد طغلق ، وذبح من أهلها مائة الف ، وحمل من الغنائم ما استطاع ، ثم عاد إلى مقره في سمرقند تاركاً البلاد وراءه في حالة شديدة من الفوضى .

بابر :

يعتبر بابر مؤسس دولة المغول في الهند . وهو حفيد تيمورلنك من ناحية أبيه ، ومن ناحية الأم ينتهي نسبه إلى جنكيزخان . ولد بابر في سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م . وكان أبوه عمر شيخ حاكماً على اقليم فرغانه ، وتولى هو بعد فترة حكم كابل . وكانت القلعة الرئيسية في أفغانستان الشرقية . وكان بابر قد اوتي قوة جسمانية خارقة إذ كان يستطيع أن يحمل رجلاً في كل ذراع من ذراعيه ، وأن يسير بهما مسافات طويلة ، كما كان ماهراً في السباحة لا يعوقه أي عائق مائي يعترض طريقه ، وكان من السهل عليه أن يعبر سباحة كل نهر يصادفه . كذلك كان بارعاً في تسلق الجبال العالية . وبالجملة فقد كان ذا قوة واحتمال

---

(١) كانت الهند الاسلامية قبل ذلك احدى ولايات الدولة الغزنية .

(٢) هي الأسرة الخلجية Khalji ، والطغلقية Taghlakid والسيدية Sayyids ، واللودية Lodis

عظيمين . وقد هيأته هذه القوة والاحتمال ليكون الرجل الذي يحمل على كتفيه مهمة إنشاء هذه الامبراطورية العظيمة في الهند . وكانت قوته البدنية تتمثل في كثير من تصرفاته فهو لا يعرف الاعتدال ، كان شديد العداوة لمن يعاديه ، قوى الصداقة إذا مال إلى المصادقة ، يقبل على أمور دينه بقوة ، ويقبل على الشراب بشراهة ، يحافظ على صلواته في أوقاتها ومع ذلك أعد للخمر حوضا من المرمر يجلس مع ندمائه على حافته للشراب وإنشاد الأشعار .

ولم تكن كابل التي يحكمها ترضى طموح مثل هذا الرجل . وكان يعرف أن جده تيمور قد غزا بلاد البنجاب فكان يعتبرها من أملاكه . ولهذا كان يتطلع إلى إعادة فتحها وضمها إلى حكمه . ولم تكن ظروف بابر مواتية في أول الأمر ، ولم يكن هذا الهدف سهل البلوغ . ولهذا نراه يعد العدة له في صبر وبطء . وكان يقوم أول الأمر ببعض الغارات الصغيرة على حدود الهند ليتبين موقع خطوه فيما بعد . وقد لاحت له الفرصة بعد ذلك عندما تنازع سلاطين اللوديين فيما بينهم ، فأسرع إلى هناك بعدما عبر البنجاب ، ودارت بينه وبين اللوديين معركة پانيپت Panipat في ابريل ١٥٢٦ م . وفي هذه المعركة تحطمت قوة اللوديين وخرج هو من الحرب ظافراً مسيطراً على البلاد . وهذه المعركة تشهد لبابر بالموهبة العسكرية فقد كان جيش اللوديين مؤلفاً من خمسين ألف رجل مع ألف فيل بينما لم يزد جيشه هو عن ثمانية آلاف . ولكن هذا العدد القليل استطاع بمدفعية قوية ، وعقلية عسكرية ممتازة أن يلتف حول أعدائه فيحصرهم من كل جانب بفرسانه ومدافعه ، وانطلقت النيران تحصدهم في مذبحة رهيبة قتل فيها الملك اللودي نفسه وفر ما بقي من جيشه بغير انتظام . واستولى بابر بذلك على دلهي ثم اگرا حيث تمهل هناك فترة من الوقت يعيد فيها تنظيم قواته . وظن رجال بابر أن مهمتهم انتهت بهذا النصر واستعدوا للعودة إلى مواطنهم ، ولكن بابر لم يكن قد قدم الهند غازيا عابراً ولكنه كان قد رتب أمره على اخضاع البلاد وإقامة ملك ثابت فيها . ولهذا رأيناه بعد فترة الراحة التي قضاها في اگرا ينشط لمحاربة الراجبوت والأفغان الذين كانوا يسيطرون على مقاطعات

كثيرة ، ويقضي عليهم جميعاً .

ويمضي بابر بعد ذلك في توطيد دعائم مملكته ، وتنظيمها إلا أن عمره لم يطل ومات في سنة ١٥٣٠ في سن السابعة والأربعين بعد فترة حكم قصيرة لم تزد على خمس سنوات .

• • •

أكبر :

وبعد بابر يتولى الملك ابنه همايون . ولكن اكبر بن همايون من زوجة فارسية كان شخصية أعظم في تاريخ الهند . ومن ثم فإن تاريخه أولى بالاهتمام .

ويعتبر عهد أكبر (جلال الدين ابو الفتح محمد) من أزهى عهود الحكم المغولي في الهند . وهو واحد من عهود أربعة بلغ فيها حكم المغول بالهند شأناً بعيداً . وهذا بيانها : —

عهد أكبر	(١٥٥٦ — ١٦٠٥ م)
عهد جهانگير	(١٦٠٥ — ١٦٢٧ م)
عهد شاه جهان	(١٦٢٧ — ١٦٥٨ م)
عهد اورنگزيب	(١٦٥٨ — ١٧٠٧ م)

كان أكبر من شخصيات التاريخ الفذة ، زودته الطبيعة بكل ما من شأنه أن يعينه على هذا ، فالبنية قوية والطاقة على الاحتمال فائقة . كان يهتم بالرياضة البدنية والألعاب كركوب الخيل ، الصيد ، المشي لمسافات طويلة . وكثيراً ما كان يندفع وهو على ظهر حصانه في الأنهار الممتلئة أثناء الفيضانات ويعبرها إلى الشاطىء الآخر سالماً . ومع أنه نشأ أمياً لم يحظ بقدر مناسب من العلم في نشأته الأولى إلا أنه استطاع بذوق مرهف ، وذاكرة قوية ، ورغبة شديدة في المعرفة والعلم أن يسد هذا النقص .

تولى اكبر العرش وهو فتى صغير جاوز الثالثة عشرة بقليل . ومن حسن حظه أن أدار له الأمور وهو في السن هذه المبكرة وصي ناصح أمين «بيرم خان» فثبت دعائم ملكه ، وقضى على أعدائه إلا أن اكبر حينما كبر واشتد ساعده خشي على ملكه من نائبه ووصيه « بيرم خان » فأراد أن ينحيه بلباقة ، وعرض عليه أن يستريح بعد الجهود الشاقة التي بذلها في خدمته . ولكن بيرم خان فطن إلى رغبة أكبر ، وعز عليه أن يلقي في الظل ، وهم بالخروج على اكبر ولكنه لم ينجح ، فخضع طالباً الصفح ، وأستأذن في الخروج للحج والإقامة في الحجاز . وقد يكون مقتله في الطريق بتدبير من أكبر الذي لم يأمن جانبه .

استطاع أكبر في المدة التي حكمها أن يسيطر على مساحة كبيرة من بلاد الهند فضم إلى دهلي اگرا ، ثم گواليور Gwalior في ٩٦٦ هـ / ١٥٥٨ م ، جنبور Jaunpur في ٩٦٧ هـ / ١٥٥٩ م ، ومالوا Malwa ، وخندش Khandesh ، ورجپوتانا Rajputana في ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م ، ثم أخضع البنغال في ٩٨٣ – ٩٨٤ هـ / ١٥٧٥ – ١٥٧٧ م ، ثم ألحق بممتلكاته كشمير في ٩٩٦ هـ / ١٥٨٧ م ، وقندهار Khandahar بعد ست سنوات.

وعندما توفي أكبر في ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م كان ملكه يشمل شمال الهند كله حتى حدود جبال الهملايا ، كما امتد نفوذه إلى الدكن في الوسط .

وكان هذا الملك العريض الذي حققه أكبر يضم ثماني عشرة ولاية من ولايات الهند الكبيرة [١] .

جهانگير :

تولى الملك بعد أبيه بأسبوع ابنه سليم الذي سمى نفسه نور الدين محمد جهانگير پادشاه غازي [٢] .

---

(١) تاريخ دولة أباطرة المغول الاسلامية : جمال الدين الشيال ص ١٠٦ الاسكندرية ١٩٦٨

(٢) جهانگير : فارسية بمعنى مالك العالم . وپادشاه بمعنى الملك .

كان جهانگير يشبه أباه في نواح كثيرة . ولكنه لم يكن كأبيه في قوة الإرادة ومضاء العزيمة . كانت أمانيه وآماله أكبر من طاقته وقدراته . كان يؤثر جانب السكينة والدعة على مشاكل الادارة والحروب . وكان فيه ميل واضح إلى التسامح ، وإيثار السلام ، ونشر العدل بين الناس ، والاستمتاع بالحياة . ولهذا فإن المملكة في عهده لم تزد شيئاً إن لم تكن قد فقدت بعض أجزاء .

كان أول ما أزعج السلطان تلك الثورة التي قام بها ابنه الأكبر خسرو في البنجاب بعد خمسة أشهر فقط من ولاية أبيه . ولكن جهانگير استطاع أن يقضي على هذه الفتنة ، ويقبض على ابنه ، ويسجنه إلى أن مات في سجنه .

تزوج جهانگير في سنة ١٦١١ من نورجهان . وهي ابنة أحد المهاجرين الايرانيين ميرزا غياث بك الذي كان قد هاجر إلى الهند مع أولاده في عهد اكبر . وأصل اسمها مهر النساء [١] فسماها الإمبراطور نور محل وسرعان ما تحول إلى نورجهان [٢] . وكانت متزوجة قبل ذلك من أحد أمراء الأفغان علي قولي بك المعروف بشير افغان [٣] . وقد خرج شيرافغان هذا على الامبراطور فحورب وقتل . وبعد أربع سنوات وقع بصر الامبراطور على ارملته هذه فعشقها وتزوجها . وكانت نورجهان جميلة ، مثقفة ، تجيد اللغة الفارسية وأدبها ، ولكنها كانت طموحة جداً ، وصاحبة شخصية مسيطرة سيطرت على الامبراطور ، وعلى الامبراطورية نفسها . بدأت هي وأبوها الملقب « اعتماد الدولة » وأخوها « آصف خان » فرض الحصار حول الامبراطور لتدعيم مركزهم الشخصي وتكوين الثروات من أموال الدولة . وزيادة في تدعيم مركزها زوجت ابنتها من زوجها الأول لأصغر أبناء جهانگير الأمير شهريار .

---

(١) مهر فارسية بمعنى شمس ، حب ، صداقة ، عطف ، رحمة ... الخ .

(٢) أي نور العالم

(٣) أي أسد أفغان

وقد ساعد نور جهان على فرض سيطرتها شخصية الامبراطور جهانگير الذي كان كما أشرنا ميالاً إلى الدعة عازفاً عن مسئوليات الإدارة ومتاعبها . ومنذ أن ترك جهانگير عبء الإدارة لزوجته هذه بدأت شئون الدولة الادارية تتراجع . وأصاب المسئولين في الدولة نوع من توزع الولاء بين امبراطور الدولة ، وبين الإمبراطورة التي تقوم بالعبء الفعلي للإدارة . وبدأ الخلل يتسرب إلى مالية الدولة ، وأصبحت الخزينة عاجزة عن مواجهة مطالب البلاد ، واختل الأمن ، وكثيراً ما كان الحكام يبسطون حمايتهم على المجرمين ليقاسموهم المغانم . وكان هم كل واحد من رجال الدولة أن يقتنص لنفسه من المنافع ما يستطيع . ويبدو أن نورجهان وأسرتها كانت قد أحكمت الحصار حول الامبراطور فلم يكن يعلم شيئاً مما يجري في الدولة ، واستمر على عاداته اليومية في الاستمتاع بالحياة وركوب الخيل كل صباح وشهود الاحتفالات بالقصر كل مساء .

وفي غمرة هذه الحياة اللينة الناعمة التي كان يحياها الإمبراطور بعيداً عن المسئوليات وقعت بعض أحداث في الدولة لم تثر انتباهاً كافياً في هذا الوقت . وكان أبرز هذا الحوادث نزول التجار الانجليز والهولنديين على الشاطىء . فمنذ سنة ١٥٩٦ كان هناك جماعات من التجار الهولنديين يمارسون التجارة بنشاط في جاوا وسومطرا . وقد اتحدوا في سنة ١٦٠٢ في شركة قوية عرفت باسم شركة الهند الشرقية الهولندية بينما ظهر في اواخر سنة ١٦٠٠ شركة نجليزية أخرى . وبدأ التنافس بين الشركة الإنجليزية والهولندية . وأخيراً رأى المتنافسون أن يوحدوا جهودهم . وأذنت لهم الحكومة في اقامة بعض المصانع اللازمة لانتاجهم وتجارتهم . لكن الحكومة ، وهي العاجزة عن توفير الأمن ، سمحت لهؤلاء التجار أن يحصنوا مصانعهم ويرتبوا أمر دفاعهم بأنفسهم . ومن هنا بدأ الخطر فسرعان ما بنى هؤلاء التجار لأنفسهم القلاع والحصون التي اصبحت ظاهرة واضحة على الساحل الهندي ومهدت بذلك الطريق لما حدث في القرن الثامن عشر من تغييرات . وكانت سفن هؤلاء التجار الأجانب

تغدو وتروح على الشواطىء دون أي اعتراض أو رقابة فلم يكن للدولة أسطول ولا زوارق حراسة أو قوارب حربية تحرس الشواطىء والموانىء .

وفي نهاية حكم جهانگير كان للهولنديين مواقع في ثلاث جهات على الشاطىء ؛ قلعتهم في پليكت Pulicat ؛ ومصانعهم في مسولپتـــام Masulipatâm ، وفي سرات Surat . وبالاضافة إلى هذه المصانع كانت لهم مصانع أخرى فرعية تعمل بعض الوقت حسب دواعي العمل والإنتاج .[1] أما الانجليز فقد أقاموا أول مصنع لهم في نهاية سنة ١٦١٢ ثم أقاموا بعد ذلك مصانع أخرى . وتلقوا هم أيضاً من الإمبراطور الإذن بتحصينها والدفاع عنهـــا .

وكانت سبيل هذه الشركات لنيل ما نالته من امتيازات هي الظفر بثقة الإمبراطور ورضاء كبار رجال الدولة . وكانت الطريق معروفة ، ففي تقديم الأموال والهدايا المستوردة من اوربا والسلع الفاخرة ما يحقق الوصول إلى الهدف .

وقد أفادت الهند بعض الفوائد من هذه الشركات اذ كانت تشـتري المحاصيل والمصنوعات الهندية ، وتقوم بتصديرها إلى أوربا وآسيا ، إلا أن أرباح هذه الشركات كانت أعظم ، وتغلغلها في المجتمع الهندي كان أخطر . ثم إنها نبهت أذهان أوربا إلى الهند وما فيها من ثروات طائلة .

شاه جهان :

هو الأمير خرم بن جهانگير الملقب شهاب الدين محمد شاه جهان [2] . وكان جهانگير قد اعتراه في أيامه الأخيرة ضعف شديد هيأ الفرصة أمام امرأته

---

(١) A short History of India : Moreland — Chatterjee, p. 236, London 1957.

(٢) خرم : بمعنى سعيد ، شاه جهان أي ملك العالم .

نورجهان لتزيد سيطرتها وتحكم قبضتها على شئون الدولة . وكان خرّم قد اثبت في عهد والده كفاءة عالية في شئون الحرب والادارة . ولما كان هو الابن الأكبر فقد كان ولي العهد وصاحب الحق في تولي الملك بعد أبيه . ولكن نورجهان لرغبتها القوية في السيطرة والتحكم وممارسة السلطة خشيت أن يتولى الأمير خرم العرش بعد أبيه – وهو الكفء القادر – فينتقص من سلطاتها أو ينحيها ، ولذلك كانت تسعى بالوقيعة بينه وبين أبيه جهانگير ليفقد ثقته ويحرمه من أن يخلفه في عرش البلاد . وقد نجحت نورجهان في هذا فساءت العلاقة بين الأب والابن الذي اضطر أن يثور ويشق عصا الطاعة .

وفي سنة ١٦٢٧ توفي جهانگير اثناء عودته من كشمير ، وكان ابنه الأمير خرم بعيداً عن البلاد في الدكن بينما كان الأمير شهريار مقيماً وقتذاك في لاهور . وانتهزت نورجهان هذه الفرصة لتحقيق الشطر الثاني من مخططها وهو تعيين شهريار مكان أبيه . وكانت ترى أن مكانتها لن تتأثر بتولي شهريار فهو أولا زوج ابنتها ، ثم هو إلى جانب هذا ضعيف خامل لن يقوى على تحمل الأعباء وحده دون مساعدتها والاعتماد عليها .

وعندما بلغ خرم نبأ وفاة ابيه اسرع عائداً بجيشه الى لاهور حيث هزم شهريار ، وانتزع العرش منه ، ولقب نفسه شهاب الدين محمد شاه جهان .

كان شاه جهان ، كما كان أبوه ، من أم رجبوتية . وعلى هذا فقد كانت الدماء الهندية تجري في عروقه . تعلم في بداية حياته على أيدي معلمين أكفاء من أمثال ملا قاسم تبريزي ، حكيم دواني ، الشيخ عبد القاهر ، والشيخ صوفي . وتعلم التركية على يد بيجوم رقية . كما أجاد الفارسية والهندية .

وكان في سنة ١٦١٢ قبل ولايته العرش قد تزوج ممتاز محل ابنة أخي نورجهان فأحبها حباً شديداً ، وعاش معها حياة هانئة سعيدة حوالي تسعة عشر عاماً . ولم تكن ممتاز محل زوجة فقط ولكنها كانت صديقة ومستشارة . ومن سوء حظه أنها توفيت في ولادة عسرة سنة ١٦٣١ فخلد ذكرها بذلك الضريح الرائع الذي بناه لها وعرف باسم تاج محل .

وكان من اهم المواقف التي واجهت شاه جهان وعالجها بحزم ونجاح موقفه من البرتغال الذين كانوا قد استقروا في هوجلي وأقاموا منشآتهم هناك ، وأحاطوها بالقلاع والحصون للدفاع عنها . ولكنهم اخذوا يتسللون بعد ذلك إلى ما جاورها من المدن والقرى الواقعة على ضفتي نهر هوجلي ، كما أخذوا يفرضون الضرائب على الأهالي ويسيئون معاملتهم . ثم أنهم تجاوزوا حدودهم وقاموا بأعمال منافية للأخلاق في تجارة الرقيق وخطف الأطفال وتصديرهم إلى خارج البلاد [1] . وكذلك كان رجال البعثات التبشيرية يعمدون إلى أساليب العنف والقوة في محاولاتهم لتنصير أهالي البلاد .

هاجم جيش المغول قلاع البرتغال وحصونهم الواقعة في هوجلي . ولما بدا أن النصر حليف المغول أظهر اولئك البرتغال الرغبة في الصلح وأبدوا استعدادهم لدفع الجزية على أمل أن يقف القتال ويكسبوا وقتاً لتنظيم أنفسهم واتمام استعداداتهم الحربية . ولكنهم لم ينجحوا فيما حاولوه ، وقضى الامبراطور عليهم ، ومزق جيشهم الذي كانوا قد أعدوه من عشرة آلاف جندي .

• • •

وظهر لشاه جهان بعد ذلك عدو آخر تمثل في المجاعات التي انتشرت في البلاد في سنوات كثيرة بين سنة ١٦٣١ ، ١٦٥٠ .

• • •

واستطاع شاه جهان أن يحقق نجاحاً في الدكن لم يتحقق لمن قبله من الأباطرة وذلك لخبرته الواسعة ببلاد الدكن ثم جاءت المجاعة التي تعرض لها الاقليم وقتذاك فساعدته في إخضاعه والقضاء على كل معارضة فيه ، وأقام ابنه اورنكزيب [2] حاكماً على ذلك الاقليم « الدكن » .

• • •

---

(١) تاريخ دولة اباطرة المغول الاسلامية في الهند : الشبال .

(٢) اورنك بمعنى العرش والمسند والمقعد ، زيب بمعنى زينة فيكون معنى اورنكزيب الفارسية : زين العرش .

ويعتبر عصر شاه جهان العصر الذهبي لامبراطورية المغول في الهند . وكان النفوذ المغولي قد بلغ أقصاه في هذا العصر . وكان شاه جهان مسلماً حسن الاسلام شديد الغيرة عليه . وكانت اهتماماته الدينية في المقام الأول . وفي عهده كان المسلمون يتصدرون المجتمع .

ولكن عظمة شاه جهان تتمثل أساساً في ميدان الحضارة والعمران . وكان عهده بصفة عامة عهد سلام وازدهار . ومع ذلك فإن الصورة لم تكن مشرقة تماماً فقد كان لها ظلال في المناطق النائية التي لم تكن الأمور تسير فيها على نحو مرضٍ بسبب ضعف الرقابة المركزية على الحكام هناك ، وانصراف هؤلاء عن رعاية مصالح المواطنين من فلاحين وعمال .

ثم ان الانفاق السخي على المنشآت والمباني التي أنشأها شاه جهان كان عبئاً ثقيلاً على الميزانية العامة للدولة ، كما جار هذا الانفاق على نصيب الانتاج الزراعي والصناعي .

وقد أدت هذه العوامل إلى نشوء حركة تذمر بين الأهالي لم تطف على السطح إلا في العهود التالية . وكانت سبباً من أسباب تدهور الامبراطورية .

* * *

وبمجرد أن وقع شاه جهان مريضاً بدأت الحرب تشتعل بين أولاده في سبيل العرش . وشهد شاه جهان في حياته قبل أن يموت في سنة ١٦٦٦ ما دار بين اولاده من نزاع وقتال على عرش لا يزال صاحبه حياً .

وكان أولاده الذكور أربعة : دارا وعمره ٤٣ سنة ، وشجاع وعمره ٤١ سنة ، واورنك زيب وعمره ٣٩ ، ومراد وعمره ٣٣ سنة . كما كان له ابنتان هما جهان آرا التي انضمت إلى أخيها دارا ، وروشنآرا [1] التي انضمت إلى أخيها أورنگزيب .

(١) جهان آرا وروشنآرا : زينة الكون ، زينة الضياء .

اورنگزيب :

عندما سمع اورنگزيب عن مرض شاه جهان كان بعيداً في الدكن فأسرع إلى الشمال لملاقاة إخوته ، واستطاع أن يتغلب عليهم ويتولى العرش مكان أبيه في صيف ١٦٥٨ . وكان في حوالي الأربعين من العمر وقتذاك مزوداً بخبرات وتجارب واسعة في شئون الحرب والسلم .

وكان اورنگزيب شخصية ممتـازة اوتيت حظـاً كبيراً من المواهب والاستعدادات . وكان من أبرز مزاياه شجاعته الفائقة ، وذهنه المتوقد ، وقدرته على ضبط عواطفه .

وكان إلى جانب ذلك مسلماً شديد الاعتداد بالإسلام اعتداداً يبلغ حد الصرامة وتجاهل الاعتبارات السياسية التي تتحكم في توجيه أمور البلاد . وكان هذا خروجاً منه على الخط السياسي الذي سار عليه من سبقه من أباطرة المغول . ولكنه كان يقدم الاعتبارات الدينية على كل ما عداها .

ويمكن أن نقسم عهد اورنگزيب الذي امتد خمسين سنة إلى فترتين لكل منهما طابعها المميز . ففي الفترة الأولى التي امتدت من ١٦٥٨ — ١٦٨١، كان الشمال هو مركز الاهتمام والنشاط في الشئون المدنية والعسكرية بينما تحول الأمر في الفترة الثانية وانتقل النشاط والاهتمام إلى الدكن بانتقال الامبراطور إليها في سنة ١٦٨١ . وعاد هذا بالإهمال في إدارة القسم الشمالي من الدولة وبدء الاضطراب في شئونه .

• • •

استطاع اورنگزيب أن يمد ممتلكاته امتداداً كبيراً . ووجد في الجبهة الشرقية للامبراطورية مجالاً واسعاً لنشاطه الحربي .

وكان عليه أن يهتم أيضاً بالجبهة الشمالية الغربية لأن قبائل الأفغان كانت تغير على تلك المناطق ، وتقطع الطرق ، وتنهب المدن والقرى . وقد أراد أول الأمر أن يستميلهم بدفع الرواتب الكبيرة لزعمائهم . ولكن هذا لم يكن كافياً لأنهم جمعوا جموعهم وأغاروا على تلك المناطق في سنة ١٦٦٧ . ولكنهم في خلال شهر كان قد تم دحرهم .

وفي سنة ١٦٧٢ قامت ثورة أخرى بقيادة أكمل خان الذي هزم جيش الامبراطور . وقد نبهت هذه الهزيمة اورنگزيب إلى بذل المزيد من الجهد فتولى بنفسه قيادة الجيش ، واتجه إلى أعدائه قرب بيشاور في أوائل يوليو سنة ١٦٧٤ . واستطاع بالدبلوماسية والعسكرية معاً أن يحقق النجاح . وكان من أساليبه مع هؤلاء تقديم الأموال ، وإثارة الفتن بين القبائل ، والإيقاع بينها حتى حطم وحدتهم وقوتهم وقضى على تضامنهم أو حسب تعبيره المجازي كسر عظمتين في وقت واحد[١] .

* * *

وفي خلال النصف الأول من حكم اورنگزيب كانت اقامته في الشمال . ومن ثم اتجه اهتمامه إليه . أما الدكن فقد تركها لنواب الامبراطور . ولم يكن هؤلاء النواب قادرين على مواجهة الأعاصير التي تهب عليهم . ولم تكن حقيقة الأوضاع تبلغ مسامعه في حينها . وأثبت نواب الملك عجزهم عن مواجهة الحركات القومية كحركة المراثا Marathas التي كانت نوعاً من التحدي للامبراطورية ، كما أنهم عجزوا عن مواجهة السلطنات الموجودة بالمناطق الجنوبية . وبعد ثلاث وعشرين سنة قضاها الامبراطور في الشمال تنبه فجأة إلى الأحوال في الجنوب . وكان الذي نبهه إلى هذا عصيان ابنه اكبر وهروبه عند الملك شامبوجي ملك المراثا وعقده تحالفاً معه ضد أبيه .

---

(١) An Advanced History of India Majumdar — Datta, p. 495, London 1963.

بدأ الأمبراطور يتحرك إلى الدكن في الثامن من سبتمبر ١٦٨١ فبلغ برهانپور في نوفمبر من نفس السنة ووصل أحمد نگر في ابريل ١٦٨٢ . وقضى بعد ذلك أربع سنوات في محاولة فاشلة للقبض على ابنه الأمير اكبر ومن معه من المراثا .

ولهذا نراه يعدل خطته ويوجه اهتمامه لإخضاع السلطنات الموجودة في ذلك الاقليم فخضعت له بيجاپور بعد تخريبها ، ثم جاء الدور على قطب شاه وسلطنته في گلكندا Golkunda . ولكن القلعة التي حاصرها المغول كانت قد استعدت من قبل لمثل هذا الموقف بالمؤن والعتاد ، وظلت صامدة تقاوم مدة ثمانية أشهر . وأرهق هذا الحصار الطويل الجيش المغولي ، وتناقصت ذخائره وأقواته . وعند ذاك أخذ اورنگزيب يجرب سلاحاً آخر كان أمضى من كل أسلحته التي جربها فأغرى أحد رجال القلعة بالأموال فدلهم على الطريق إلى القلعة . وبهذا تم لهم الاستيلاء عليها وضم گلكندا إلى ممتلكات الدولة في سبتمبر ١٦٨٧ .

ويرى بعض المؤرخين أن قضاء الامبراطور على هذه السلطنات قد أخلى الجو أمام المراثا لأن وجود هؤلاء السلاطين كان عائقاً أمامهم ، وقوة تقف في وجههم ، وقد تساعد السلطان في القضاء عليهم . ولكن كان من المستبعد أن يتحقق هذا لانعدام التعاون بين الامبراطور وهذه السلطنات فضلا عن ضعفها الشديد الذي يجعلها عاجزة عن تقديم أي عون مفيد . هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء السلاطين كانوا لا يطمئنون إلى موقف أباطرة المغول منهم ، وكانوا يعرفون رغبتهم في القضاء عليهم وطمعهم في ممتلكاتهم .

• • •

وبعد أن تغلب اورنگزيب على هذه السلطنات تحول إلى تلك القوة الناشئة « قوة المراثا » . وأصاب من النجاح ما مكنه من الاستيلاء على عاصمتهم رايگار Raigarh في ١١ مارس ١٦٨٩ . وفر ملكهم وأخوه وأسر المغول بقية أفراد الأسرة .

• • •

وفي خلال سنوات قليلة بعد ذلك مد الامبراطور ملكه إلى الجنوب وفرض الجزية على المقاطعات الهندية هناك .

• • •

وفي سنة ١٦٩٠ كان اورنگزيب قد بلغ قمة مجده وسلطانه وأصبح السيد المطلق في بلاد الهند .

ومع بلوغ هذه القمة بدأ الفصل الأخير وهو بداية النهاية ، فظهرت عوامل التداعي والتهاوي في هذه الامبراطورية المترامية . وحمل هذا الملك الواسع في ثناياه بذور ضعفه ونقصانه ، فقد كان من المتعذر على رجل واحد أن يدير بنجاح كل هذه الامبراطورية ، وبدأ الخلل يعتورها هنا وهناك ؛ فضعف سلطان القانون في بعض المناطق وأحس الضباط في الشمال ببعد الامبراطور عنهم في الجنوب في الدكن ففقدوا الانضباط ، وحذا بقية الرؤساء والعاملين في المناطق البعيدة حذوهم ، وبدأ النفوذ الامبراطوري يتقلص ؛ وأصيبت الحكومة بإرهاق مالي شديد نتيجة الحروب المتصلة في الدكن ؛ واستطاع المراثا في سنة ١٦٩١ أن يعيدوا تنظيم صفوفهم ويقودوا حرباً أهلية ضد المغول .

وكانت الأيام الأخيرة في حياة اورنگزيب محزنة فقد بدأ يشهد بعينيه تداعي امبراطوريته ، وتقلص سلطانه ، وانصراف الأعوان والأتباع عنه .

ومات الامبراطور في أحمد نگر Ahmad Nagar في صباح ٣ مارس ١٧٠٧ . ونقل جثمانه إلى دولت آباد وثوى في مقبرة الشيخ برهان الدين .

• • •

هذا ، بإيجاز شديد ، الجانب السياسي البارز في حياة هؤلاء الملوك العظام . وجاء من بعدهم خلف كانوا أقل قدراً ، وأضعف شأناً لم يستطيعوا أن يسدوا الفراغ الذي تركه اولئك الأباطرة العظام . وأخذت الامبراطورية تسير نحو نهايتها .

النواحي الحضارية :

إذا تحدثنا عن النواحي الحضارية فأول ما نبدأ به الاسلام في بلاد الهند .

كان المجتمع الهندي في القرن السادس الميلادي يمر بمرحلة انحطاط خطيرة في النواحي الخلقية والاجتماعية . وكانت الوثنية قد انتشرت بين الأهالي ، وازداد عدد الآلهة زيادة هائلة حتى أصبح لكل شيء في المجتمع الهندي الها . وسادت هذا المجتمع النزعات الجنسية الإباحية ، وأصبحت ممارسة الجنس شيئاً مألوفاً بين الناس وبين الآلهة نفسها فيما كانوا يزعمون . وكانت قصور الأغنياء والملوك تعج بضروب الفساد وألوان المنكرات .

وكان المجتمع الهندي مجتمعاً طبقياً صارخاً ، فالطبقات الممتازة كانت لها كل المغانم ، والطبقات الكادحة وقعت عليها كل المغارم . كان البراهمة مثلا وهم رجال الدين يتمتعون بامتيازات ترفعهم إلى مصاف الآلهة ، وهم الصفوة التي يُغفر لها ما ترتكب من الذنوب . كما كانوا يعفون من الضرائب . وأما الطبقات الكادحة فهم المنبوذون « شودر » . ومرتبتهم في نظر المجتمع مرتبة الحيوانات أو هم أقل شأناً . وما داموا كذلك فعليهم أن يقوموا بخدمة البراهمة وألا ينتظروا أجراً على هذه الخدمة ، ولا يجوز لهم أن يتطلعوا إلى مجالسة البراهمة ، أو أن يقتنوا مالا [1] .

وكان طبيعياً أن يتعلق هؤلاء البؤساء بالإسلام ، فالإسلام بما فيه من مساواة تامة ، وعدالة اجتماعية ، يحظى دائماً بتأييد هؤلاء المغلوبين على أمرهم . وهذا من أهم الأسباب التي ساعدت على انتشار الإسلام في كل مجتمع طبقي .

ومع أن دعوة الإسلام إلى المساواة صريحة واضحة إلا أن هذه المساواة لم تكن تتحقق دائماً عند التطبيق العملي . وقد يكون مرجع هذا إلى النقص الكامن في الطبيعة البشرية الذي يجعل من الصعب على الحكام أن يراعوا هذه

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : أبو الحسن الندوي ص ٤٥ .

التسوية الكاملة بينهم وبين المحكومين . وهذا ما حدث في عهد هؤلاء الأباطرة المسلمين في الهند ، فكان هؤلاء الحكام مثلا يسمحون لأنفسهم بالزواج من الهنديات ولكنهم كانوا يأنفون من تزويج بناتهم ونسائهم من الهنود . ولكن تجدر الإشارة إلى أن الهنود الذين أسلموا كانوا يشقون طريقهم في المجتمع الإسلامي بالهند إلى قمة المناصب العليا دون اعتبار لأجناسهم أو معتقداتهم السابقة .

وكان « أكبر » شخصية عجيبة في التفكير الديني . وقد رأى أن يمزج الدين بالسياسة رغبة في توطيد دعائم مملكته ، واتجه في إدارته للبلاد إلى تطبيق الشعار القائل « الهند للهنود » . ومعنى هذا أن يتساوى الجميع في نظر الدولة دون اعتبار لأديانهم وأصولهم .

وتحقيقاً لهذه السياسة ألغى أكبر كل الضرائب التي كانت تثقل كاهل الهنود دون غيرهم . ودلت هذه السياسة على نزعته إلى التسامح الديني . وامعاناً منه في ارضاء الهنود منع ذبح البقر ، وأجاز مذهب التناسخ ، وأحيا العادة المجوسية القديمة في إيقاد النيران ، وأحل الخمر .

ويبدو أن مسألة التسامح الديني عند اكبر بدأت في أول الأمر نظرية سياسية لخدمة مصلحة الدولة وتحقيق أهدافها السياسية في إذابة الخلافات بين المواطنين وصبهم في قالب واحد ، لكنها تطورت عنده بعد ذلك إلى قلق نفسي واضطراب فكري أثر في إسلامه وفي عقله . وكثيرا ما كان يرى وهو يقضي الساعات الطويلة على أحد الأحجار مستغرقاً في أفكاره وتأملاته في بقعة نائية عن قصره في فتحپور .

• • •

وكان أكبر أميا . ولهذا أحاط نفسه بعدد من العلماء والمفكرين والأدباء الذين أفادوه بمعلوماتهم . وكان له من بين هؤلاء قراء يطالعون له الكتب ، وبذلك وصلوه بالثقافات والتيارات الفكرية والدينية المختلفة . ويبدو أن

الجرعات التي زود بها من الفكر الديني تزاحمت في عقله ، واختلطت بغير تناسق في فكره فولدت عنده ما عرف عنه من الحيرة الدينية .

كان أكبر في أول أمره صحيح الفكر والعقيدة . وكان يحرص على تقريب العلماء إليه ، ويتبرك بأهل الزهد والصلاح منهم . وكان له اعتقاد قوي في الشيخ سليم بن بهاء الدين سيكروى (٨٨٤ — ٩٧٩ هـ / ١٤٧٩ — ١٥٧١ م) من بلدة سيكري التي تبعد ١٢ ميلاً من اگرا . وكان يكثر من التردد عليه وسؤاله بالدعاء له . ويقال إن هذا الشيخ هو الذي بشره بمولد أولاده الذكور الثلاثة . فلما رزق بالأول منهم سماه سليما تيمنا باسم هذا الشيخ كما أنه تقديراً منه لهذا الشيخ بنى مدينة مكان بلدة الشيخ وسماها فتحپور سيكري ، وجعلها عاصمة له في أول الأمر . وكان أكبر يشرف بنفسه على بناء هذه المدينة حتى تم إنشاؤها في سنة ١٥٦٩ . وظل يقيم بها حتى سنة ١٥٨٥ حين ذهب إلى الشمال الغربي وقضى هناك اثني عشر عاماً رجع بعدها إلى مدينة اگرا . وبذلك أهملت مدينة فتحپور سيكري وبدأت تتدهور .

وفي سنة ١٥٧٥ اتصل به الشيخ مبارك ناجوري وولداه فيضي ، أبو الفضل فأثروا فيه تأثيراً عميقاً وحولوا تفكيره وطريقه ، وألقوا في روعه مبادىء خطيرة أصابته بالغرور والانحراف ، فاعتبر نفسه أميراً للمؤمنين ، معصوماً من الخطأ ، وارغم علماء بلاطه على اعتباره مجتهداً فيما لم يرد فيه نص صريح في القرآن الكريم أو فيما لم تتفق عليه كلمة المسلمين [1] .

وفي بادىء الأمر كان يقصر مناقشاته الدينية على علماء المسلمين ولكنه لم يجد عندهم ما يرضي غروره ، وكانوا يواجهونه برأيهم فيه فلم يرتح إليهم ولم يرتاحوا إليه . ولذلك رأيناه يتجه إلى غيرهم من رجال الأديان الأخرى كالهندوس والزردشت ، ويرسل إلى جوا يطلب وفداً من القساوسة المسيحيين ، فجاءته منهم بعثة مسيحية في سنة ١٥٨٠ لتشترك في هذه المناقشات .

(١) Sources of Indian Traditions. Vol. I p. 499. Ed. De Bary, U.S.A. 1958.

وفي ذلك الوقت أمر ببناء ما سماه بيت العبادة « عبادت خانه » . وفي هذا البيت كان يعقد ندواته ومناظراته . وكان يستمع بصبر إلى آراء أصحاب كل مذهب ودين . وكان الامبراطور يبدي اهتماماً وتلطفاً ظاهراً بكل ما يعرضونه من آرائهم وحججهم حتى كان يخيل لأصحاب كل ملة أنهم كسبوه إلى ملتهم . وخاب ظن الجميع في النهاية لأن الامبراطور لم يكن يريد ما عندهم وانما كان يبحث عما يتفق مع أفكاره وأوهامه التي سيطرت على عقله . كان يريد أن يخرج على الناس ببدعة جديدة . وكان يفتش بين هذا الشتات المختلف من المعتقدات عن الأسس والمبادىء التي يمكن أن تدعمها حين يعلنها للناس .

وفي سنة ١٥٨٢ بشر اكبر بدينه الجديد الذي سماه الدين الالهي « دين الهي » . وكان هذا الدين قمة ما وصل اليه اضطرابه الديني والفكري . وتوهم أنه بما فعل يجدد في أمر الدين الاسلامي بعد أن مضى عليه ألف عام . ولعل ما دفعه إلى هذا الدين الجديد رغبته في توحيد أهل الهند على دين واحد وعقيدة واحدة بعدما رأى من كثرة مللهم واختلاف عقائدهم ، فكان هذا الدين الذي دعا اليه خليطاً من الأفكار الاسلامية والهندوسية والزردشتية (المجوسية).وكان مما تضمنه هذا الدين الجديد السجود للأمبراطور ، وتقبيل الأرض بين يديه . وهي عادات يأباها الإسلام . كما أنه أحيا بعض تعاليم المجوسية حين دعا إلى إيقاد النار في قصره ، وتقديس الشمس ، وحرم ذبح البقر وهذه عادة هندوسية لا يقرها الإسلام . ومن الحق أن يقال إن « أكبر » لم يحاول أن يفرض دينه الجديد على أحد ، فلم يعتنقه سوى عدد محدود من رجال البلاط تقرباً إليه في أغلب الظن . وهكذا ولد دين أكبر ميتا .

وهذه السياسة التي سار عليها اكبر في الناحية الدينية لم يتابعه عليها أحد من خلفه ، فرأينا ابنه جهانگير يعود إلى الحرص على الإسلام وتطهيره مما يتسرب إليه من الملل الأخرى التي تعيش معه في المجتمع . وفي عهده كتب عمر مهرابي دليلا للمسلم الهندي على هيئة حوار بين طائرين أحدهما يسأل أسئلة مختلفة في الدين والعقيدة والثاني يجيبه عنها إجابات تتضمن توضيح مبادىء الاسلام

وشرح تعاليمه . وقدم المؤلف لموضوعه بقصة خرافية ملخصها أن شاباً مسلماً وقع في غرام ابنة راجا هندي فأهداها هذين الطائرين ، فصارت تستمع إليهما وتعجب بما يدور ببينهما من حوار . وانتهى أمرها إلى اعتناق الإسلام . وسجلت هذا الحوار على صحائف من ذهب . واحتفظ بهذه الصحائف في خزائنه أمير كَجرات . ولما فسرت له أعجب بها واعتنق الاسلام هو الآخر.

وكان هدف مؤلفها — كما هو واضح — الدعوة إلى الإسلام ، وتثقيف المسلمين في شئون دينهم ، ومكافحة تسرب العقيدة الهندوستانية بين المسلمين الذين يعيشون في القرى النائية بعيداً عن مراكز الثقافة الاسلامية . ولا شك في أن أسلوب الحوار على ألسنة الطير الذي صاغ فيه المؤلف فكرته أسلوب هندي معروف [1] .

ومع أن شاه جهان كانت أمه راجپوتية إلا أنه مع ذلك كان مسلماً حسن الإسلام . وكان يقدم اهتمامه بالدين على سائر اهتماماته . وصار للمسلمين في عهده مكان الصدارة في المجتمع الهندي . ووقف من الأديان الأخرى موقفاً معادياً فمنع الهندوس من بناء المعابد ، وصفى البعثات التبشيرية المسيحية في بلاده . ورجع إلى التقاليد الإسلامية ، وأبطل عادة تقبيل الأرض بين يديه ، كما كان كثير الرعاية والإكرام للعلماء .

أما أورنگزيب — وهو آخر الكبار في هذه الامبراطورية — فإنه كان مسلماً غيوراً على دينه أراد أن تسود المجتمع التعاليم الإسلامية . وبدأ أولا بنفسه فأخذها بالتعاليم الإسلامية فلم يزد عدد زوجاته على أربع . وكان يحرص على أداء الصلوات في أوقاتها ولو كان ذلك إبان المعارك والحروب . ومن شدة حرصه على إقامة العدل بين الناس أنه كان يهتم اهتماماً خاصاً بالشكاوى التي تقدم إليه فينظر فيها بنفسه ويصدر حكمه فيها كتابة بخط يده . وقد صدرت في عهده مجموعة الفتاوى الإسلامية التي اعتبرت مجموعة قوانين

(١) Sources of Indian Traditions, vol. I. p. 393.

اسلامية لذلك العهد في الهند وعرفت باسم « فتاواي عالمكير » .

وألغى اورنگزيب ما كان موجوداً في المجتمع الهندي من العادات المجوسية كالاحتفال بالنوروز ، وإيقاد النيران [1] ، وعادة تقبيل الأرض ، ووزن الإمبراطور بالمعادن الثمينة ، كما عين في الأسواق محتسبين لمراقبة سلوك التجار والناس.وفق التعاليم الاسلامية ، ومنع صنع الخمر وتجارتها . وبالجملة فقد كان مسلماً صالحاً أخذ نفسه بمبادىء الإسلام وأراد أن يأخذ الناس بها أيضاً . ولهذا اعتبره معاصروه درويشا أو قديسا حيا « زنده پير » .

وقد وجه اورنگزيب شئون البلاد توجيها إسلامياً . إلا أنه لم يتبع في هذا سياسة تقوم على اللين والرفق . فأعاد الجزية على الهندوس ، وعاملهم بعنف فهدم معابدهم ولم يفكر في احترام مشاعرهم الدينية . وبلغ به الأمر ذات مرة أن ذبح بقرة في أحد معابدهم . وهدم لهم معبداً كبيراً في بنارس وكانت معقلاً من معاقل الهندوسية ، وأقام مكانه مسجداً . وفي ماثورا هدم لهم معبدهم وغير اسم المدينة ماثورا الذي يرتبط بعبادة الاله كرشنا وجعله اسلام آباد [2] وأصدر أمره باغلاق بعض الادارات الحكومية التي تشرف عليها الهندوس إلا أنه عدل عن هذا بعد ذلك عندما تعطلت الأعمال . ولم يصل الهندوس إلى منصب رئيسي في عهده ، وسحب الهبات التي كانت تمنح للمؤسسات الهندية ، وضيق على الهنود فمنع اجتماعاتهم الدينية والاحتفالات بأعيادهم . ولكنه لم ينس — تشجيعا لهم على الدخول في الإسلام — أن يفسح المجال في مناصب الدولة أمام الذين أسلموا منهم .

وكان من أثر هذه الاجراءات العنيفة ، وأخذ غير المسلمين بهذه الشدة أن ازداد الشعور بين الهنود بأن الدولة تعمل لصالح المسلمين وحدهم . وأدى

---

(١) راجع ص ١٤٢ من هذا الكتاب . وراجع أيضا للمؤلف « الأعياد الفارسية في العالم الاسلامي » مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد السابع عشر سنة ١٩٦٣ .

(٢) الهند : محمد مرسي أبو الليل . ص ١٤٩ ، القاهرة ١٩٦٥ .

هذا إلى سريان التذمر وقيام الثورات . وغاب عن ذهن اورنگزيب في غمرة حماسه للإسلام ، وشدة إيمانه به ، أن دولته لا تتألف من المسلمين وحدهم ، وأنها تقوم على أخلاط من الأديان والمعتقدات والأجناس ، وأن الحاكم محتاج في هذا الخضم المتلاطم إلى تأييد الجماهير العريضة واسترضاء زعمائهم .

* * *

وعلى العموم كان الاسلام يخضع لعوامل كثيرة في انتشاره في المجتمع الهندي . كان مثلا يخضع لموقف الامبراطور نفسه منه ، ودرجة تشبعه به . كما كان يتأثر بالطريقة التي تدار بها شئون الدولة والتي قد تؤدي إلى سخط الغالبية من السكان ، وهم الهنود ، على الحكم الاسلامي أو رضائها عنه ؛ ففي فترات الهدوء والاستقرار والفهم المتبادل بين الحاكم والمحكوم كانت الفرصة أمام الإسلام أقوى والنظرة إليه أحسن . كما أن الموقف كان يتغير أيضاً بالنسبة للهندي المسلم نفسه . فكان موقف العامي منه غير موقف المثقف المستنير . وكان العوام مثلا لا يتخلون عن عقائدهم السابقة عندما يعتنقون الإسلام . كانوا يضيفون الإسلام إلى رصيدهم من المعتقدات التي ألفوها . وكان من الصعب على هؤلاء الذين ألفوا تعدد الأديان والآلهة أن يقنعوا بدين واحد ويكتفوا باله واحد . وكل معتقد جديد يعتقدونه كانوا يضيفونه إلى ما عندهم . وكان كثير من هؤلاء العوام يؤلهون محمداً فأضافوا بذلك إلهاً إلى جملة آلهتهم . وكانوا يتبعون تعاليم هذا الإله أو ذاك حسب المواقف المختلفة التي تعرض لهم [1] . ومع أن دولة المغول الاسلامية عاشت في الهند نحو ثمانية قرون ونصف الا أن الثمرة التي جناها الإسلام لم تتناسب مع هذه المدة الطويلة .

وقد أدى هذا الخلط بين الآلهة والمعتقدات إلى انتشار الخرافات والمظاهر الوثنية في المجتمع . ودعا عدداً من المصلحين والعقلاء للتدخل لإصلاح الأحوال كما فعل « كبير » في القرن الخامس عشر الذي حاول إقامة ديانة مشتركة بين

---

(1) حضارات الهند : جوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر . القاهرة ١٩٤٨ .

المسلمين والهنود تضم ما في القرآن والويدا . وكذلك نعل نانك ، رام موهن الذين دعوا إلى ديانة مؤلفة من عناصر نصرانية واسلامية وبرهمية . وهذا نفس الاتجاه الذي سار فيه اكبر . ولا ننسى أن الحيرة الدينية التي وقع فيها أكبر ، والاضطراب النفسي الذي أصابه ، والخلط الديني الذي انتهى إليه بإصدار ما سماه « دين إلهي » كل ذلك كان بسبب ظاهرة التعدد التي تسود المجتمع الهندي ؛ تعدد الأجناس ، وتعدد العقائد والأديان ، وتعدد الآلهة ، وتعدد المصالح .. الخ

ولكن الأمر بين المثقفين والمستنيرين كان مختلفاً . فوجدنا نسبة كبيرة من هؤلاء ـ مسلمين أو غير مسلمين ـ يؤمنون بإله واحد ، ويؤمنون بأن هذا الكون المنظم المدبر بغير خلل ولا اضطراب لا بد أن يكون وراءه خالق واحد . وهذه الفكرة انتقلت إلى هؤلاء من الإسلام .

وفكرة التوحيد التي تتجه إليها بعض العقائد الدينية الهندية هي أثر من آثار الإسلام في المجتمع الهندي . وعقيدة السيخ التي دعا اليها گورونتك Guru Nanak مثل واضح لهذا .وگورو ننك رجل متدين يؤمن بقوة بوحدة الإله كما يفعل المسلمون ، ويريد من وراء دعوته الدينية أن يقرب الفوارق بين الهندوسية والإسلام ، وفي الكتاب المقدس لهؤلاء السيخ ما يدل على أنهم يحبون إلهاً واحداً ، ويبدون احتراماً عظيماً لنبي الإسلام ، وعلماء الدين الإسلامي . وهناك مثلاً السردار عمراو سنغ Sardar Umrao Singh الذي نشر أخيراً كتاباً يدل على أن العقائد الأساسية لهؤلاء السيخ تتقارب كثيراً مع عقائد المسلمين. وهذا الكتاب الذي نشره هو ترجمة فارسية لنشيد « سوخماني » الذي هو جزء من كتاب السيخ المقدس . وكل بيت منه ينطق بحب الإله . وقد عثر السردار عمراو على هذا المخطوط الفارسي في المكتبة الأهلية بباريس ، ونقله ، وبذل جهداً كبيراً في مقارنة هذه الترجمة الفارسية بالأصل. ويذكر « عبد القادر » صاحب مقالة التأثيرات الثقافية للإسلام المنشورة في تراث الهند أن التباعد بين

المسلمين والسيخ نشأ عن نقص في معلومات كل فريق عن الآخر (١) .

ولم يكن السيخ هم الذين تأثروا وحدهم بفكرة التوحيد ، فهناك أيضاً دعاة العقيدة البختية . وهؤلاء الدعاة من أمثال راماندانا ، كبير ، دادو ، رامداس كانوا دعاة توحيد . وهذه الديانة البختية وإن كانت أقدم من الإسلام في الهند إلا أنها تأثرت به . وقد حاول كبير أحد كبار دعاتها — والذي كان على صلة طيبة بالمسلمين — التوفيق بين الهندوسية والإسلام في شريعة جديدة . ولا شك في أن انتشار المساجد في كل مكان بالهند ، وارتفاع صوت المؤذن خمس مرات في اليوم يدعو الناس إلى الصلاة وإلى الشهادة بإله واحد كان له صداه في تعاليم البراهمة وأثره في إيمانهم بفكرة التوحيد (٢) .

وقد ظهرت حركة دينية أخرى قدمت دليلاً قوياً على تأثير الإسلام في الهند وهي حركة برهمو سماج Brahmo Samaj التي أنشأها راجا رام موهن راى . وكان راجا رام عالماً بالفارسية ، مطلعاً على الآداب الاسلامية كما وصلته لغته الإنجليزية بالعقائد والأفكار المسيحية . وبدا له أن يدعو لدين منتخب يتضمن أفضل ما في تعاليم الويدا ، والانجيل ، والقرآن ، وتعاليم كبار المصلحين الروحيين في العالم . وكان يرى في هذا حلاً لمشاكل الهند الدينية . (٣) وإذا كان هذا المذهب قد تأثر بعناصر كثيرة فإنه أيضاً تأثر بالإسلام .

* * *

ويذكر لوبون أن المسلمين في الهند تأثروا هم أيضاً ببعض العادات البوذية والبرهمية . فهم مثلا يمارسون عادة الاحتفاظ بالذخائر العزيزة تبركابها فترى عندهم شعرات من لحية النبي على طريقة البوذيين في الاحتفاظ بشعرات من شاكيه موني . ومن ذلك أيضاً أن المسلمين يفعلون ما يفعله أتباع البوذية والبرهمية

(١) Legacy of India : p. 291 Oxford 1962.

(٢) A Short History of India : Moreland, p. 195.

(٣) A Short History of India : Moreland, p. 292.

من الاعتزاز بآثار الأقدام ؛ أقدام بوذا أو براهما أو محمد [١] .

* * *

ويبدو من كلام لوبون أن النفوذ الإسلامي قد امتد إلى جميع أنحاء الهند والمناطق المجاورة حتى تلك التي لم يدخلها المسلمون قط [٢] .

* * *

إذا كانت الحروب والغزو سمة جوهرية في تكوين هؤلاء الأباطرة المغول فإن ميلهم إلى الأدب واهتمامهم بالثقافة والفن كان أيضاً من أبرز صفاتهم . ولم يكن هذا الاهتمام بالأدب والفن قاصراً على الأباطرة وحدهم بل إن أفراد الأسرة المالكة ، والطبقات الممتازة كانوا جميعاً على هذا النسق حتى النساء . ولنذكر في هذا المقام بابر . كان أديباً مطبوعاً ، ولم يكن قد تثقف ثقافة نظامية . ولكنه استطاع بجهده الشخصي واتصاله بالعلماء الذين ترددوا على مجالس أبيه وعلى بلاطه أن يصقل مواهبه ، ويثقف نفسه .

ويذكر بابر عن جدته ايسان دولت أنها كانت امرأة مثقفة . وكانت قوية الشخصية فاق تأثيرها عليه تأثير أمه وأبيه . وكانت — كما يذكر — تريد أن تجعل منه رجلا [٣] . أما أمه قتلق نگر خانم فقد كانت الابنة الثانية ليونس خان أحد علماء عصره الذين التفوا حول أبيه عمر شيخ . وكان يتردد على مجالس عمر شيخ والدبابر عدد من العلماء الذين تأثر بهم . من هؤلاء العلماء برز اثنان كان تأثيرهما على بابر أشد وأعظم هما :

١ — يونس خان جد بابر

٢ — الخواجه عبيد الله اهراري .

---

(١) حضارات الهند : ص ٦٢٨ .

(٢) نفسه : ص ٥٣٧ .

(٣) Beveridge : Memoirs of Babur preface, London 1921.

وكان يونس جد بابر قد تتلمذ له مع متاعه مكتبة مختارة .

صاحب ظفر نامه (1) . وأما السيد عبيد إلى اصلاح المدارس التي كانت
كبيرة ترفعه إلى مرتبة الصوفية . وعبيد الله وزودها بالمعلمين فأقبل عليها
اسم بابر . يتوفى عن كلالة (بغير

إنشاء المدارس والمعاهد
وعلى هذا نرى أن الجو العام الذي نشأ فيه بابر
للعلم والأدب ويزوده بصفة مستمرة بما كان يحتاج إليه

للعلماء ، وأنشأ
ومع أن بابر كتب أهم أعماله — وهو مذكراته — بالتر
ا » بعد أن
متمكناً من الفارسية . وكان يعد من شعرائها . وكانت الفارسية با
المغول لغة مكتسبة ولكنها استطاعت بمضي الزمن أن تنتشر بينهم .
خلفاء تيمور حتى بابر اهتماماً كبيراً بهذه اللغة وجعلوها لغتهم الأدبية
التعبير في جميع شئونهم العامة والخاصة .

وكان أهم ما يميل بابر إلى قراءته القرآن الكريم ، گلستان سعدي
شاهنامة الفردوسي ، ظفرنامه ، أعمال نظامي ، طبقات ناصري لأبي علي
منهاج الجزجاني .

ويقال إن بابر كان يجيد أيضاً اللغة العربية . وفي مذكراته كثيراً ما وردت
عبارات عربية وأمثال واقتباسات من القرآن الكريم للاستشهاد بها .

وإذا كانت مذكرات بابر تجعل منه كاتباً قديراً فإن أشعاره في ديوانه
التركي ترفعه إلى مرتبة الشعراء الكبار . وأشعاره التركية متأثرة بالنزعة الصوفية
عند سعدي وحافظ ومعاصره جامي كما أن أشعاره الفارسية تتصف بالسلاسة
والأصالة وترتفع إلى مستوى أشعار المتصوفة الفرس .

---

(1) كان شرف الدين شاعرا وعالما ومؤرخا . وقد قضى أربع سنوات في إعداد كتابه التاريخي ظفرنامه الذي أرخ فيه عهد تيمور . وفرغ من تأليفه سنة ٨٢٨ هـ ، وتوفي شرف الدين سنة ٨٥٨ هـ .

من الاعتزاز بآثار الأقدام ؛ أقدام بردا أوصية على السواء . ويروي له هذا

ويبدو من كلام لوبون أاخوشست
والمناطق المجاورة حتى تلك " بابر بعيش كوش كه عالم دو باره نيست

نوروز والربيع والخمر والحب فتمتع يا بابر بالحياة
إذا كانت الحـ ـة أخرى . وهذا شعر يذكرنا في معناه ومبناه برباعيات

فإن ميلهم إلى
* * *
ولم يكن هـ
الأسرة إرثت ابنته كلبدان بيـوم ميول أبيها الأدبية . فكتبت بناء على طلب
ولنذكر نبأ من أحداث عهد بابر وهمايون في كتاب بعنوان « همايون نامه » .
نظامعتبر ما كتبته كلبدان من التاريخ بمعناه الصحيح ولكنه عرض لبعض
حداث العائلية التي وقعت في القصور الملكية . ومن هنا تأتي قيمتها التاريخية
عتبارها مادة مفيدة للمؤرخ الذي يصعب عليه عادة أن يطلع على مثل هذه
الوقائع .

* * *

وكان أباطرة المغول وكبار المسئولين في الدولة يشجعون التعليم بتقديم المنح والأموال والأراضي للهيئات المعنية . وكان يلحق بكل مسجد مكتب يتلقى فيه الأطفال تعليمهم الأولى . وكان تعليماً دينياً بالطبع .

وكان من بين مهام مصلحة الأشغال العامة في عهد هؤلاء المغول بناء المدارس ومعاهد العلم . وكان أكبر قد بنى كثيراً من المدارس في فتحپور سيكري ، اگرا وغيرها من المدن . وانسجاما مع سياسته في التسامح الديني كان يأمر أيضاً بإنشاء المدارس للهندوس .

وكان لهمايون ميل خاص لدراسة الفلك والجغرافية . وكان اهتمامه بالكتب

شديداً حتى قيل إنه كان إذا تنقل حملوا له مع متاعه مكتبة مختارة .

وقد سارع جهانگير بعد توليه الملك إلى اصلاح المدارس التي كانت خرائب مهجورة منذ ثلاثين سنة وأعاد فتحها وزودها بالمعلمين فأقبل عليها الطلاب . وقد أصدر جهانگير أمره بأن كل من يتوفى عن كلالة (بغير عقب) تؤول أمواله وثروته إلى الدولة على أن تنفق في إنشاء المدارس والمعاهد وإصلاحها .

وكان شاه جهان يشجع العلم بمنح الجوائز وتقديم الرواتب للعلماء ، وأنشأ مدرسة في دلهي كما أصلح تلك التي كانت تعرف باسم « دار البقا » بعد أن كانت خرائب وأطلالا .

* * *

وللفتيات حظهن أيضاً من التعليم كالصبيان في المدارس والمكاتب . أما بنات الأسرة المالكة والطبقة الراقية فكن يتلقين علومهن في قصورهن . وقد ظهر في الهند عدد من النساء تثقفن ثقافة عالية . وكان منهن أيضاً مؤلفات أمثال گلبدان ابنة بابر مؤلفة « همايون نامه » والسلطانة سليمة ابنة عم همايون التي رويت لها أشعار فارسية .

* * *

وكان حظ اللغة الفارسية في التأليف عظيماً . ويمكن أن نقسم الأعمال التي كتبت إلى أعمال تاريخية ، أدبية ، ثم مترجمات .

فمن المؤلفات التاريخية التي عرفت في عهد أكبر « تاريخ الفي » ألفه ملا داود ، آينه اكبرى ، اكبر نامه لأبي الفضل ، منتخب التواريخ للبدعوني . طبقات اكبرى لنظام الدين أحمد ، واكبر نامه لفيضي سرهندي . وكان أبو الفضل اكبر أدباء هذا العهد بالفارسية . وكان كاتباً ، شاعراً ، مؤرخاً .

وبأمر الأمبراطور أكبر ترجم كثير من الكتب السنسكريتية إلى الفارسية

فترجمت فصول من « المهابهاراتا » إلى الفارسية بقلم عدد من علماء المسلمين جمعت في كتاب بعنوان « رزم نامه » أي كتاب الحرب . وبعد عمل استمر اربع سنوات أتم البدعوني ترجمة « رامايانا » في سنة ١٥٨٩ . وترجم فيضي « ليلابتي » وهي رسالة في الرياضيات . وترجم عبد الرحيم خان خانان « وقائع بابري » .

وكذلك ترجمت إلى الفارسية بعض الأعمال اليونانية والعربية .

وظهر في عهد أكبر عدد كبير من الأدباء والشعراء كان أبرزهم غزالي ، ثم فيضي الذي كان أخا أبي الفضل . وهناك محمد حسن نظيري النيشابوري صاحب الغزليات المعروفة ، سيد جمال الدين الشيراجي أعظم شعراء القصيد في عصره .

وكان جهانگير هو الآخر من الأدباء . وتعتبر الترجمة الذاتية التي كتبها تالية في الأهمية لترجمة بابر . وقد كتبت في عهده كتب كثيرة تتصل بجهانگير وسيرته منها اقبالنامه جهانگيري ، وزبدة التواريخ ، مآثر جهانگيري .

وفي عهد شاه جهان ظهرت مؤلفات كثيرة ومؤرخون كثيرون من أمثال عبد الحميد لاهور مؤلف كتاب پادشاه نامه ، القزويني الذي ألف هو الآخر پادشاه نامه ، عنايت خان مؤلف شاه جهان نامه ، محمد صالح مؤلف أعمال صالح . وكلهم مؤرخون مشهورون في تاريخ شاه جهان .

ولم يكن اورنگزيب ميالاً إلى الأدب . كان مشغولاً بالدين . ولهذا كان يمانع في كتابة المؤلفات التاريخية عن عهده . ومن الجائز أنه كان يرى في مثل هذه المؤلفات مظهراً للمدح والملق . ومع هذا فقد ظهرت بعض المؤلفات من أمثال منتخب اللباب لخافي خان الذي كتبه سراً ، كتاب عالمگير نامه لمرزا محمد كاظم ، مآثر عالمگيري لمحمد ساقي .

• • •

وكان من آثار اهتمام الأباطرة بالعلم والتأليف انتشار المكتبات في القصور الملكية . وكانت هذه المكتبات تضم كثيراً من المخطوطات النادرة . وفي مكتبات أكبر كانت مجموعة هائلة من المؤلفات والمخطوطات الثمينة . وفي عهده ازدهر فن الكتابة والخط ازدهاراً كبيراً . وكان أكبر خطاطي البلاط في عهده محمد حسين الكشميري الذي كان الامبراطور يلقبه « زرين قلم »[1] أي صاحب القلم الذهبي .

* * *

وتعتبر اللغة الأردية مظهراً من مظاهر الاتصال بين الثقافة الهندية والإسلامية . وهذه اللغة مزيج من ألفاظ وأفكار عربية فارسية تركية سنسكريتية ، وتمثل ما كان من تعاون ثقافي بين المسلمين والهنود .

* * *

وكان ملوك المغول شديدي العناية بالفنون المختلفة وأهمها فن البناء والعمارة . وكان الغالب على مبانيهم الطراز الاسلامي المتأثر بالفن الايراني ولم تخل هذه المباني من التأثر بطابع البيئة الهندي . وفي الفترات التي كان يغلب فيها التسامح الديني كان الطابع الهندي أغلب على المباني ، كما حدث في عهد الملك اكبر الذي حاول أن يصهر الهندوس والمسلمين في أمة واحدة . وكان فن العمارة واحداً من مجالات هذا الصهر والمزج بين العنصرين . ويرى هذا الطابع الهندي واضحاً في مباني فتحپور سيكري التي بناها أكبر[2] . وقد بنى أكبر هذه البلدة في سنة ١٥٦٩ وأشرف بنفسه على بنائها . وكانت مباني البلدة تتألف من عدة أقسام تمتزج فيها ملامح الفن الهندي والاسلامي . ويمكن أن يعتبر هذا الطراز في الفن المعماري صورة للتفكير السياسي عند أكبر القائم على المزج بين الهنود والمسلمين . وكان الطابع الهندي في البناء يختفي أو يضعف حينما يتخلى

---

(١) An Advanced History of India : p. 583.

(٢) حضارات الهند : لوبون — الترجمة العربية ص ٥٣٦ .

الملوك عن تسامحهم الديني . وفي عهد شاه جهان توارت المؤثرات الهندية في المباني . وأبرز مثل على ذلك تاج محل الذي يكاد يخلو من هذا الطابع الهندي اللهم إلا في بعض الجزئيات (١) .

وكان أكبر لشدة حبه فن العمارة يستدعي من القسطنطينية مهرة العمال والمهندسين . وكان ممن استدعاهم المهندس الألباني المشهور « سنان » ، كما أنه كان يجند عددا هائلا من العمال لتشييد المباني التي أمر ببنائها والتي كانت في ضخامتها وكثرتها تعكس صورة عقله الجبار (٢) .

ولم تكن همة اكبر منصرفة إلى بناء القصور وحدها لأنه اهتم كذلك ببناء القلاع ، المساكن ، الأبراج ، المدارس ، الخزانات ، الآبار .

ويلاحظ الفرق في فن البناء بين عهد أكبر وعهود من أتوا بعده كشاه جهان ؛ ففي عهد أكبر كانت المباني أبسط زخرفاً ، وأقل تعقيداً ، وأصغر حجماً وان كانت أشد أصالة بينما تميزت مباني شاه جهان بسقوفها الفضية ، وزخارفها المعشقة بالرخام والذهب والأحجار الكريمة . وكانت في روعتها تستحق ذلك الوصف الذي نقش عليها :

اگر فردوس بر روى زمين است
همين است. او همين است. او همين است

ومعناه : إذا كانت جنة الفردوس على وجه الأرض فهي نفس هذه . نفس هذه . نفس هذه .

ويعد تاج محل ذلك الضريح الفخم الذي بناه شاه جهان لزوجته الحبيبة من عجائب الدنيا . وقد اشتغل في تشييده عشرون ألف عامل بلا انقطاع مدة خمس عشرة سنة . ويرى بعض العلماء أنه مثل رائع للتعاون بين العبقرية

---

(١) حضارات الهند

(٢) An Advanced History of India : p. 586.

الأوروبية والعبقرية الآسيوية . ويزعم هؤلاء أن نفراً من المهندسين الفرنسيين أو الايطاليين قد اشتركوا في تصميم هذا الضريح . بينما ينكر آخرون اشتراك هؤلاء . [1]

وكان شاه جهان ينفق بغير حساب على الفن حتى ذاعت شهرته عالمياً . وكان قد أمر فصنعوا له عرشاً مرصعاً بالجواهر استغرق إعداده سبع سنوات . وقدر ثمن ما فيه من الجواهر بما يزيد على اثني عشر مليوناً من الجنيهات الاسترلينية . [2]

ويذكر لوبون أن المباني الإسلامية في الهند يمكن أن تندرج تحت واحد من هذه الأقسام :

١ ــ فن البناء الإسلامي قبل العصر المغولي كما يرى في مباني دلهي القديمة . بيجابور ، گلكندا .. الخ .

٢ ــ فن البناء في العصر المغولي . ومما أنشىء على هذا الطراز مباني اگرا . ودلهي ، ولاهور .

٣ ــ فن البناء الهندي المتأثر بالطابع الإسلامي ويرى في مختلف بقاع الهند كما في گواليار ، مهوبا ، ومدورا ... الخ .

ويذكر أنه لا يمكن اطلاق أحكام عامة على فن البناء في الهند فإن طابع البناء الاسلامي كان يختلف من عهد إلى عهد ومن مدينة إلى مدينة . [3] فهناك داخل الإطار العام تفاصيل واختلافات جزئية .

النظم الادارية :

كانت الإدارة المغولية مزيجاً من عناصر مختلفة هندية وغير هندية . وبعبارة

(١) An Advanced History of India : p. 596.

(٢) A Short History of India : p. 242.

(٣) حضارات الهند : ص ٥٣٨ .

أخرى يمكن أن يقال إنها كانت نظاماً عربياً فارسياً في أرض هندية .

والامبراطور هو رأس أجهزة الدولة كلها وصاحب القول الفصل في كل أمر من أمور الدولة . وكان لكل امبراطور من أباطرة المغول لقب اشتهر به وقد يلقب بعدة ألقاب [1] .

كانت هناك ادارات ومصالح كثيرة ورؤساء كبار يشرفون عليها . ومع أن الملك كان صاحب الكلمة النافذة في كل أمر من أمور الدولة إلا أن هذا لم يكن سارياً تماماً في المناطق البعيدة من الامبراطورية . وكثيراً ما كان حكام تلك المناطق النائية يتصرفون في مناطقهم بدوافع شخصية على غير ما تأتي به لم يكن سارياً تماماً في المناطق البعيدة من الامبراطورية . وكثيراً ما كان حكام تلك المناطق النائية يتصرفون في مناطقهم بدوافع شخصية على غير ما تأتي به التعليمات من الحكومة المركزية .

وكان الاعتماد الأساسي في إدارة هذه الدولة على الضباط سواء كان هذا في المجال العسكري أو في الحياة الادارية المدنية . وهم أصحاب المناصب الكبيرة في الدولة . ويسمى كل واحد منهم « منصبدار » أي صاحب المنصب .

وكان أكبر قد قسم رتب الضباط إلى ٣٣ رتبة تبدأ من قائد عشرة جنود وتنتهي بقائد عشرة آلاف . وحتى منتصف عهد أكبر كان أرقى ما يصل اليه الضباط رتبة قائد خمسة آلاف. أما مازاد على ذلك من الرتب فقد كانت وقفاً

---

(١) كان بابر مثلا يلقب بالألقاب الآتية :
ظهير الدين ، پادشاه ، نواب ، غازي ، شاهنشاه ، قلندر وقد لقب به بعد انتصاره في پانيپت وكانت الغنائم هائلة فوزعها على رجاله دون أن يصيب منها شيئا . فسمي قلندر . وهو لقب يطلق على أتباع فرقة تصوفية هي القلندرية . وفي معناه العام يقصد به الرجل الزاهد في متاع الدنيا ، سلطان خاقان، فردوس مكاني–أي فليكن مكانه الفردوس–وأطلق عليه هذا اللقب بعد وفاته وهو نوع من الدعاء له . وكانت النساء ينلن ألقابا مماثلة بعد وفاتهن فكان يقال لأم أكبر مثلا مريم مكاني أي فليكن مكانها في الجنة مكان مريم .

على أعضاء الأسرة المالكة ، إلا أنه في أواخر عهده وصل عدد من الضباط إلى هذه الرتب العليا . وكثيراً ما كان أصحاب المناصب يرقون أو يجمدون في مناصبهم أو يطردون منها وفقاً لرغبة الامبراطور . ولم تكن رغبة الامبراطور تخضع لضوابط دقيقة محددة ما دام هو صاحب الكلمة العليا والسلطة المطلقة . وكل رتبة من هذه الرتب لها مخصصات مالية معلومة ينفق منها صاحب الرتبة على اقتناء الخيول اللازمة ، والفيلة ، ودواب الحمل ، العربات وما إلى ذلك مما يلزم فرقته . ولكن أصحاب المناصب قلما كانوا يفعلون هذا .

وكان الامبراطور يتحرى عن أشخاص هؤلاء المنصبدارية — أصحاب المناصب — حتّى لا يعين في هذا المنصب شخص غير لائق أو غير ثقة . ولهذا أعدوا سجلا تدون فيه بيانات مفصلة عن هؤلاء تبين أسماءهم ، ألقابهم ، وقبائلهم ، أصولهم ، وغير ذلك من التفاصيل حتّى ما تعلق منها بالشخصية العامة والمظهر .

وكان جيش الامبراطور مكوناً من فرق : الفرسان ، المشاة ، المدفعية ، الأسطول . وكانت فرقة الفرسان أهم هذه الفرق . أما المشاة فتتألف من الرجال الذين يجلبون من المدن والأرياف ويجندون في الجيش ، وكانت المدافع والبنادق التي تعتمد عليها المدفعية مما يصنع أو يستورد من الخارج . ولكن المدفعية بعد عهد أكبر تطورت ونمت كثيراً في عهد عالمگير . أما الأسطول فلم يكن في ذلك الوقت بالمعنى العصري المعروف في وقتنا الحاضر . وكانت هناك إدارة للبحرية مهمتها بناء القوارب من جميع الأنواع لعبور الأنهار ، تكوين رجال بحرية مدربين ، الاشراف على الأنهار . وكان هناك أسطول مكون من عدد كبير من القوارب المسلحة والسفن يتجمع عند دكا ليحمي شواطىء البنغال ضد إغارات القراصنة . ولكن عيوب هذا الأسطول أن عناصره المختلفة لم تنصهر كلها في وحدة متجانسة . ومع أن هذه القوات كانت تنمو ويزداد عددها بمرور الوقت إلا أن ضبطها والإشراف الدقيق عليها كان صعباً ، هذا فضلاً عن أن هؤلاء الجنود لم يعرفوا معنى الولاء للإمبراطور وإنما كان ولاؤهم لقوادهم

المباشرين الذين كانت تحركهم الأطماع والمنافسات مما أضعف شأن هذا الأسطول في وقت الجد .

وكان الجيش عندما يتحرك فكأن مدينة كبيرة تتحرك بحركته . لم تكن القوات العسكرية وحدها هي التي تتحرك ولكن كان يتحرك معها حريم السلطان ووصائفهن وقد امتطين صهوة الأفيال والجمال ، والموسيقيون والآتهم ، وموظفو المصالح لإدارة أعمال هذا الجيش ، المحال التجارية لبيع السلع لهذا العدد الضخم من الخلق . وكانت الأفيال تحمل الكنوز ، أما العربات فتحمل الذخائر والأقوات . وكان هناك عدد ضخم من البغال لنقل أثاث الامبراطور . ولهذا كان انتقال مثل هذا الجيش وتحركه يكلف الدولة عبئاً ثقيلاً ويؤثر بالضرورة على فعاليته كجيش مقاتل . وأخطر من هذا أن هذا الاستعداد الضخم في الحل والترحال كان يؤدي إلى رفاهة المقاتلين ويؤثر على الروح العسكرية عند الجنود . وقد حدث هذا في عهد اورنكزيب حين أصبح الجيش ثقيلاً في حركته بطيئاً في اندفاعه .[1]

° ° °

وكانت الادارات الرئيسية للدولة :

- البلاط الامبراطوري ويشرف عليه من يلقب خان سامان
- الشئون المالية ويشرف عليها الديوان أو الوزير
- الميزانية العسكرية ويشرف عليها مير بخشي .
- العدالـــة ويشرف عليها رئيس القضاة
- الشئون الدينية ويشرف عليها الصدر الكبير أو صدر الصدور
- رقابة الأمور الأخلاقية ويشرف عليها المحتسب

(١) n Advanced History of India : p. 564.

وكان الديوان أو الوزير هو أعلى ضابط في الدولة . ومنصبه هذا أعلى المناصب .

وكان البخشي يتولى عدة مهام مختلفة فهو المسئول عن رواتب ضباط الدولة جميعاً ، وعليه أيضاً مسئولية الشئون الخاصة بالجيش ، واعداد القوائم الخاصة بأصحاب المناصب . وإذا كان هناك إعداد لمعركة فهو المسئول عن كل إمدادات الجيش أمام الامبراطور .

أما الخان سامان فهو كبير الخدم المكلف بالإشراف على ادارة القصر .

والمحتسب معروف عمله ، وهو رقابة سلوك الناس ومعاملاتهم حتى لا يقع منهم انحراف أو تعدّ على غيرهم .

وكانت هناك وظائف أخرى غير هذه مثل مير آتش وهو رئيس المدفعية ، مير بحر المشرف على الأسطول ، مير بر المشرف على الجيش .

ومن الوظائف التي عرفت في عهد المغول وظيفة وقائع نويس أي كاتب الوقائع .

* * *

أما المحافظة على الأمن فكانت في القرى من مهام رؤساء القرى . وظل هذا النظام متبعاً حتى بداية القرن ١٩ .

وفي المدن عهد بهذه المهمة إلى موظف مسئول يقال له « كتوال » . وكانت مهمة الكتوال هذا أوسع من المحافظة على الأمن وحده ، فكان عليه أن يراقب الأسعار والموازين والمكاييل ، وأن يمسك دفاتر خاصة بالمنازل والطرق والمواطنين ، وأن يراقب تحركات الأجانب ، وأن يستخدم الجواسيس لتزويده بالمعلومات التي تلزمه في عمله أو تكلفه الدولة بجمعها ... إلى آخر هذه الأمور التي تنتظم بها حياة الناس في المجتمع .

أما الأحياء المختلفة في المدينة فقد جعلوا لكل حي منها موظفاً مسئولاً عن شئون الأمن والنظام يسمى « فوجدار » – أي صاحب الفوج – وكانت وظيفة هذا الرجل كما يدل عليه لقبه الاشراف على فوج من الجنود . وقد قلنا فيما سبق إن العسكريين كانوا عصب الدولة في الأجهزة العسكرية والمدنية . وعلى هذا الفوجدار أن يقمع الاضطرابات الصغيرة التي تقع في حيه وأن يطارد اللصوص وعصابات النهب والسلب .

• • •

وفي المسائل المتصلة بالعدل والقضاء لم يكن هناك قانون موضوع . وكان القضاة غالباً يهتدون بهدى القرآن الكريم والفتاوى التي يصدرها كبار رجال الدين ، والقوانين التي يصدرها الامبراطور.

وكان أباطرة المغول يعتبرون شئون العدالة من أهم واجباتهم . وكان ضباطهم وكبار موظفيهم لا يتمتعون بحماية تعفيهم من العقاب إذا أذنبوا . وعرف عن أباطرة المغول بوجه عام أنهم كانوا ميالين إلى إحقاق الحق ونشر العدالة . ومنهم من منح الشعب حق الشكوى إليه مباشرة كما فعل أكبر وجهانكير .

وكانت وظيفة قاضي القضاة كبرى مناصب القضاء . ومن مهامه تعيين القضاة في عواصم المقاطعات والإشراف على أعمالهم .

وكانوا يتوخون في القاضي أن يكون عدلا ، أميناً ، لا يتحيز ، يعقد المحاكمة في حضور الأطراف المتنازعة وفي بيت العدالة ، ولا يجوز له أن يقبل الهدايا أو أن يشهد الحفلات الخاصة التي يقيمها الناس .

وهذا هو مفهوم القضاء عندهم من الناحية النظرية على الأقل .

ولم تكن هناك وظيفة أقل من القاضي . ولهذا كان على الفلاحين في قراهم الصغيرة أن يفضوا منازعاتهم محلياً .

• • •

وكانت ميزانية الدولة تتألف من مصدرين أساسيين :

مصدر اقليمي : ويمثل ايرادات كل اقليم على حدة . وكانت هذه الايرادات الاقليمية أو المحلية تجمع من الضرائب الصغيرة التي تفرض على الانتاج أو التجارة أو وسائل النقل . وتنفق هذه الايرادات في خدمة الإقليم دون الرجوع إلى الإدارة المالية في الحكومة المركزية .

مصدر عام : ويمثل الدخل الرئيسي للدولة وتتولى الإشراف عليه الادارة المالية في الحكومة المركزية . ويتكون هذا الدخل من ايرادات الجمارك ، الاحتكارات . ويمثل الخراج أهم جزء من هذا الايراد .

وفيما يتصل بالخراج قام أكبر سنة ١٥٧٥ بتجربة جديدة مسح فيها أغلب أراضي الامبراطورية وقسمها إلى وحدات كثيرة تقدم كل وحدة منها « كرور » في السنة . وجعل على كل وحدة ضابطاً باسم كروري مهمته أن يجمع هذا القدر من الخراج « كرور » ، وأن يعني بالأرض ليزداد انتاجها وتجود غلتها . ولكن سرعان ما تحول هؤلاء الكروريون عن مهمتهم الأصلية وأخذوا في استغلال الفلاحين . ولم يعد هذا النظام صالحاً فألغي وإن كان لفظ كروري ظل مستعملاً بعد ذلك حتى عهد شاه جيهان [1] .

وفي نظام تحصيل الخراج من كل قرية كان هناك نظامان ؛ أحد هذين النظامين يقوم على تحصيل الضريبة من كل فلاح على حدة بينما يقوم النظام الثاني على أخذ مبلغ إجمالي عام من القرية على أن يتولى الفلاحون بعد ذلك فيما بينهم توزيع هذا المبلغ عليهم . وواضح أن النظام الأخير أيسر وأسهل بالنسبة للدولة ولكن عيبه الأساسي أنه كان يسوي في الضرائب بين الأرض على اختلاف درجات جودتها وانتاجها ثم إن الفلاحين الأقوياء قد يمتنعون عن دفع نصيبهم فيظلمون الضعفاء . [1]

---

(١) An Advanced History of India : p. 561.

(٢) A Short History of India : p. 225.

وكانت الضرائب ثلث ما تغله الأرض – وكان كل فلاح بهذا الشكل يعرف ما سيدفع . وعندما تنضج المحاصيل يذهب العمال المختصون باشراف المحصل ويحددون المساحة المزروعة لكل فلاح ، ويحسبون المبلغ المطلوب منه . وكانت الدولة تتنازل عن حقها في هذه الضريبة كلها أو بعضها إذا أصاب المحصول ضرر . وكان عيب هذه الطريقة أن الفلاح مع علمه بنسبة ما سيدفع إلا أنه لم يكن يعرف كم سيبلغ ثمن المحصول . وكان ثمن المحصول متقلباً وكثيراً ما كان يتغير من سوق إلى سوق ومن وقت إلى وقت . ثم إن السوق قد تكون كاسدة . وفي هذه الحالة يبقى المحصول بلا بيع . وهذا ما حدث فعلا في بعض السنوات بين ١٥٨٥ – ١٥٩٠ حينما أسقطت عن الفلاحين ضرائب كثيرة بسبب وفرة المحصول وفرة كبيرة زادت عن حاجة الناس فلم يستطع الفلاحون ان يبيعوا كل غلات أرضهم .

ولكن نظام أكبر لم يدم بعده طويلاً . وفي خلال نصف قرن من وفاته كان الأسلوب العملي المتبع هو جمع الضريبة سنوياً على هيئة مبلغ اجمالي تدفعه القرية ، ويعتبر رؤساء القرى مسئولين عن تحصيله .

ولم تكن مهمة المحصل قاصرة على جمع الأموال فقط إذ كان عليه أن يتخذ من أساليب العمل ما يؤدي إلى زيادة إنتاج الأرض . وله في سبيل هذا أن يأمر بتعديل الأنماط الزراعية المتبعة أو استصلاح الأراضي البور أو زيادة مساحة الأراضي المزروعة ، أو الإكثار من المحاصيل ذات الأثمان المرتفعة .... الخ .

* * *

أما مقاطعات الدولة فكانت اثنتي عشرة مقاطعة في عهد أكبر بلغت في أواخر حكمه خمس عشرة . ووصلت في عهد جهانگير إلى سبع عشرة . وارتفع العدد في عهد اورنگزيب إلى إحدى وعشرين مقاطعة . وكان حاكم

كل مقاطعة هو رئيسها على الصعيد العسكري والمدني . ويسمونه سپاهدار أو سپاهسالار أو ناظم . وكان يساعده عدد من الضباط .

* * *

وقد نشطت التجارة والصناعة في عهد المغول . وكان هذا النشاط يتجه محلياً لسد حاجة المواطنين بما يلزمهم وخارجيا لتصدير السلع بواسطة التجار الذين كانوا يفدون إلى البلاد من اوربا وآسيا للتعاقد عليها .

وأهم صناعات الهند وقتذاك كانت صناعة المنسوجات القطنية . وانتشرت هذه الصناعة في كثير من المدن أمثال بتنا ، كجرات ، برهانپور ، جونپور ، بنارس وغيرها . وتبدو كل مدينة من هذه المدن كأنها مصنع منسوجات قطنية . كانت أرقى وارفع منسوجات القطن من انتاج الهند . ويخيل للناظر من وفرة هذا النشاط المتصل بصناعة النسيج في كل مكان أن أهل الهند قد تحولوا نساجين . وبإيجاز كانت الهند مخزناً كبيراً للقطن والحرير . وكذلك كان فن صباغة الأقمشة وطبعها منتشراً جداً . وكان صناعة نسج الحرير منتشرة في بلاد الهند لكنها لم تبلغ درجة انتشار صناعة المنسوجات القطنية . وكانت البنغال المركز الأول في صناعة الحرير وتزويد الهنود والأوربيين بحاجتهم منه . وعُرفت أيضاً صناعة المنسوجات الصوفية .

وكانت صناعة ملح البارود معروفة في أماكن كثيرة من بلاد الهند خلال القرن السابع عشر . وكان هذا الملح يصدر إلى أوربا بواسطة التجار الهولنديين والانجليز . ونالت بهار سمعة طيبة في صناعته حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

كما كانت هناك صناعات أخرى كثيرة أقل شأناً كصناعة السجاد ، الصناعات المطعمة بالصدف والعاج ، وصناعة الأبنوس .

الحضارة الاسلامية في أوروبا

مسالك الحضارة الاسلامية الى اوربا :

الحروب بين الشرق والغرب قديمة ؛ ففي التاريخ القديم كانت هناك الحروب بين الفرس واليونان . وفي العصور الوسطى ظهرت الحروب الصليبية . ولا زلنا في العصر الحديث نرى الصراع واضحا بين الشرق والغرب متخذاً صوراً وأشكالاً مختلفة .

ويهمنا هنا أن نتحدث عن الحروب الصليبية . باعتبارها وسيلة ساعدت على نقل الحضارة الإسلامية إلى أوربا .

الحروب الصليبية :

لهذه الحروب أسباب وأهداف تتنوع بين دينية وسياسية واجتماعية.

فمن أسبابها الدينية أنها رد فعل قام به العالم المسيحي لمقاومة الإسلام بعد أن رأى انتشار الإسلام في آسيا وافريقيا واسبانيا .

وانتهز البابا أربانوس الثاني فرصة استنجاد الامبراطور الكسيوس كومنيوس به عندما تدفقت جيوش السلاجقة نحو غرب آسيا : وهددت ممتلكات الامبراطور الآسيوية، كما هدد الاسلام أيضاً مركز المسيحية في تلك المناطق . فألقى خطبة حماسية في كليرمونت دعا فيها المسيحيين لحرب المسلمين واسترداد كنيسة القيامة . وكان لخطبته هذه التي ألقاها في السادس والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥م أثر

هائل بين المسيحيين الذين تطوعوا لقتال المسلمين حتى بلغ عددهم مائة وخمسين ألفاً .

ويبدو أن غرض البابا لم يكن دينياً خالصاً في هذه الدعوة، ولكنه كان مشوباً بالرغبة في فرض سيطرته على الكنيسة اليونانية التي كانت قد انشقت عنه .

ومما يذكر أن البابا ـ وهو كبير رجال الدين في العالم المسيحي ، كان في تحريضه للمسيحيين على التطوع لقتال المسلمين يمنحهم قبل سفرهم غفرانه عما سلف من ذنوبهم، ويحل لهم ما يقترفونه في بلاد المسلمين من الاثام والمنكرات . بينما نرى البطل الإسلامي صلاح الدين يرفض يوم فتح القدس أن يعامل الصليبيين بنفس القسوة التي عاملوا بها المسلمين عندما فتحوا المدينة من قبل .

وانتهز ملوك اوربا فرصة هذا الحماس الديني المنتشر بين المسيحيين – وعوامهم بوجه خاص – ليفيدوا من الموقف، وليجنوا منه مكاسب جديدة : انتهزوا فرصة إعداد الحملة الصليبية ، وزادوا الضرائب المفروضة على رعاياهم . ولم تكن هذه الضرائب بطبيعة الحال توجه إلى الغرض الديني الذي جمعت من أجله ، وإنما كان يتسرب أغلبها إلى خزائن هؤلاء الملوك فزادتهم بذلك ثراء . واستعذب الملوك هذا المورد : فبعد أن كانت الضرائب في أول الأمر تفرض على الأراضي وحدها أصبحت تحت ستار الحروب الصليبية تفرض على كافة الممتلكات، ثم جاء هنري الثاني ملك انجلترا ففرض الضرائب سنة ١١٦٦م على كل طبقات الشعب بنسبة دخل كل منهم . وبعدما سقطت بيت المقدس ابتدعوا في سنة ١١٨٨م في انجلترا وفرنسا ضريبة جديدة سموها ضريبة صلاح الدين . وهكذا نرى أن هذه الحروب الصليبية تحولت مصدراً

للثراء الفاحش لهؤلاء الملوك .

واستمر العمل بهذه الأنظمة من الضرائب ، ضريبة الثروة الشخصية ، وضريبة الممتلكات حتى أصبحت جزء من النظام المالي عندهم، مما دعا بعضهم للقول بأن الضرائب الحديثة نشأت في أصلها من متطلبات الأرض المقدسة .

ولم تكن هذه الأموال المتدفقة لتكفي هؤلاء الملوك لأنهم إلى جانب المال كانوا يطمعون في ضم ممتلكات جديدة إلى ممتلكاتهم . ووجدوا في هذه الحروب الصليبية فرصتهم لتحقيق أغراضهم في العالم الاسلامي .

يضاف إلى هذا أن العداوة والكراهية للنظام الاقطاعي في أوربا كانت قد بدأت تنتشر بين الشعوب الأوربية المختلفة . وكان من واجب الأوربيين ليحموا أنفسهم أن يعملوا بسرعة ليحولوا مجرى هذه العداوة والكراهية عن مصالحهم ويوجهوها وجهة أخرى . وكانت الحروب الصليبية هي فرصتهم السانحة . وتحت ستار الدين استطاعوا بذكاء أن يمتصوا غضب الشعوب وأن يحولوا عداوتهم ورغبتهم في الانتقام ناحية المسلمين . وعلى هذا فإن الحروب الداخلية التي كانت وشيكة الوقوع في أوربا الغربية تحولت إلى حروب خارجية مع المسلمين . واستطاع النبلاء والإقطاعيون بمعونة رجال الدين أن يعيدوا إلى أرضهم في أوربا الغربية السلام والأمن الداخلي ليثيروا في أرض المسلمين الفتن والقلاقل .

وكان تكاثر السكان عاملاً آخر يهدد الحكام بمشكلة اجتماعية خطيرة . وقد نجح الأمراء والنبلاء في حل هذه المشكلة بدفع الجموع من مواطنيهم للاشتراك في الحروب الصليبية التي قضت على أعداد

كبيرة منهم . كما أنهم فتحوا باب الهجرة أمام المواطنين الأوربيين ليقيموا في تلك المستعمرات التي أنشأها المسيحيون في الشرق .

* * *

حين ننظر إلى هذه الحروب الصليبية نجد أن أوربا قد فشلت في تحقيق كل الأغراض والأطماع التي كانت تراودها من وراء هذه الحروب . فلا هي حققت النصر العسكري على المسلمين ، ولا هي استطاعت أن تحتفظ بالأراضي التي استولت عليها ، ولا نجحت في تحرير بيت المقدس من أيدي المسلمين . كل هذه الأهداف لم يتحقق منها شيء .

إنما الذي تحقق نتائج أخرى حضارية لم تكن في بال هؤلاء الصليبيين عندما قاموا بغزواتهم على العالم الاسلامي . إن النزاع في حقيقته بين الشرق والغرب كان نزاعاً دينياً حضارياً . كان الصليبيون يتصورون — كما لقنهم زعماؤهم — أن بلاد المسلمين مظلمة تسود فيها روح الجهل والظلم ، وتخلو من أي أثر من آثار الحضارة ، وأنهم سيكونون رسل أوربا لبث حضارة الغرب في تلك البلاد ، وانقاذ المسيحيين هناك من الاضطهاد . ولكن هؤلاء المخدوعين ما لبثوا أن أفاقوا على الحقيقة عندما جاءوا إلى الشرق واتصلوا بالمسلمين ، فقد رأوا حضارة لم تعرفها بلادهم ، وعرفوا الإسلام على حقيقته ، وعاد كثير منهم إلى أهله يبدي إعجابه بالإسلام وحضارة المسلمين .

ومن الفوائد التي جنتها أوربا من وراء هذه الحروب الانتعاش الاقتصادي ، فالجيوش المعتدية تفتح دائماً أسواقاً لتجارتها وبضائعها ، والسفن التجارية تسير دائماً وراء الأساطيل الحربية . وهذا ما حدث فإن السفن الإيطالية وتجار أوربا كانوا يتجهون بقوافلهم وراء القوات

الصليبية المحاربة . ومن هذا يتضح أن الحرب لم تكن دينية خالصة كما زعم هؤلاء الصليبيون .

وعندما فشل هؤلاء الصليبيون في القضاء على الإسلام وفرض المسيحية على العالم الاسلامي بالأساليب العسكرية فكروا في الوصول إلى هدفهم بالسلم والسياسة . [1] ولاحت لهم فرصة لم يتأخروا عن انتهازها . فماذا كانت تلك الفرصة ؟

في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ظهرت على مسرح الأحداث العالمية قوة جديدة جبارة سيطرت على العالم من الصين شرقاً حتى الفرات غرباً . تلك كانت قوة المغول بقيادة جنكيزخان . وكان المغول في ذلك الوقت لا يدينون بدين سماوي . وكان جنكيزخان يقف موقف الحياد من الأديان فلا يتعصب لدين على دين، ولا يرجح مذهباً على مذهب، وان كان يكرم ويعظم علماء كل طائفة وزهادها دون تفريق . وقد أدرك الأوربيون شدة بأس هؤلاء المغول، وعظيم خطرهم بعد ما رأوا من قوتهم العسكرية واكتساحهم الممالك والبلاد في آسيا وأوربا . وفكر الغرب المسيحي بأسلوبه الصليبي الجديد أن يغري هؤلاء المغول بالتحول إلى المسيحية ؛ فاذا نجح الغرب في هذا فقد حقق هدفه دون حرب . وفي نفس الوقت استطاع الغرب المسيحي والشرق المسيحي المتمثل في المغول أن يتعاونا ويضغطا بينهما المسلمين ضغطاً يودي بهم وبالاسلام نفسه . ولهذا اهتم الغرب بايفاد الرسل إلى حكام المغول ، ونشطت الإرساليات التبشيرية ، وأقيمت الكنائس في كل مكان من هذا العالم الفسيح ، وأسفر الغرب عن نواياه الحقيقية، فلم يعد يهتم بفلسطين ، ولا ببيت المقدس، ولا بتأمين الحج اليه كما كان

---

(١) تراث الاسلام : الترجمة العربية ١ / ٩٦ .

يزعم ، وإنما أصبحت المسألة هي القضاء على الإسلام .

وهناك عدد من المحاولات التي بذلها المسيحيون في هذا الصدد ؛ منها مثلا ما حاوله البابا اسكندر الرابع الذي أرسل إلى هولاكو خان ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) يحبب اليه اعتناق المسيحية ، ويغريه بحسن الجزاء إذا اعتنقها . ومنها تلك المحاولات التي بذلها البابوات كليمنت الرابع ، وجريجوري العاشر ، ويوحنا السادس والعشرون ، ونقولا الثالث . وتتابعت الرسائل والمحاولات مع ايلخانات ايران .

وكل ما خرج به ملوك أوربا المسيحيون من محاولاتهم هذه أنهم ظفروا بعطف هؤلاء المغول على المسيحيين ، وحسن معاملتهم لهم ، ولكنهم فشلوا تماماً في تحويل هؤلاء إلى المسيحية وكسبهم إلى صفهم .

وفي النهاية كسب الإسلام الجولة ، ونجح حيث أخفقت المسيحية. وبهذا فشل الغرب في تحقيق كل الأهداف التي خطط لها في الميدان العسكري والديني والسياسي .

ولكن الغرب مع هذا خرج من حروبه الصليبية بفوائد أخرى حضارية ذات أهمية كبرى لم تكن بين أهداف الغربيين ولم يخططوا لها .

ويرى بعض المؤرخين الأوربيين أن الحروب الصليبية كانت العامل الوحيد على تقدم أوربا خلال مائتي السنة الواقعة بين عامي ١١٠٠ ، ١٣٠٠ م . وإن كان بعض آخر يرى أن الحروب الصليبية كانت عاملاً بين عدة عوامل ، ولم تكن العامل الوحيد كما رأى بعضهم [١] . على كل حال ، هذا اتفاق فيما بينهم على أهمية اتصال

---

(١) تراث الاسلام : الترجمة العربية ١٠١/١ .

الصليبيين بالعالم الاسلامي ، والفوائد التي جنوها من وقوفهم على حضارة المسلمين.

وقد أشرنا من قبل إلى ما كان لهذه الحروب الصليبية من الانتعاش والرواج الاقتصادي عند الأوربيين .

كذلك أفاد الغرب أساليب جديدة في بناء القلاع والحصون ، كما أفادوا من الأسلحة التي كان المسلمون يستخدمونها في حروبهم كالمنجنيق والكباش الهادمة وأنواع النيران المختلفة [1] ، والقسي المستعملة ، والدروع التي كان المسلمون يستخدمونها لوقاية الفارس والفرس .

ولا شك في أنهم تعلموا عن المسلمين استخدام الحمام الزاجل في نقل الرسائل أثناء الحروب .

ويعترف الأوربيون بأنهم نقلوا الرنوك عن المسلمين [2] . وربما دلت بعض الاصطلاحات الأوربية على هذا مثل azure (أزرق) و gules (وردة) من كلمة گل الفارسية . ويذكر باركر أن تلك الحروب كانت السبب في أن قواعد الشارات الدرعية واحدة في أوربا كلها ، وأن رسوم علم الرنوك ورموزه وقواعده متشابهة في الممالك الأوربية .

---

(١) المنجنيق آلة قذافة تقذف بها السهام أو الحجارة أو غيرها من وسائل التدمير . والكبش آلة كالدبابة يتحصن الرجال في داخله . ويستخدم الكبش لهدم الأسوار أو إحداث الفجوات بها لينفذ منها المقاتلون . وأما النيران فكانت تقذف مشتعلة أو على شكل كرات مشتعلة أو قطع من الثياب الملوثة بالنفط فتقع على السفن أو البيوت فتحرقها . وكانوا يستخدمون في صناعة هذه النيران مواد سريعة الاشتعال.

(٢) الرنوك مأخوذة من كلمة رنك الفارسية بمعنى اللون أو العلامة .

وكان من نتائج هذه الحروب أن عرفت أوربا النباتات والحاصلات المعروفة عند المسلمين في الشرق كالسمسم والذرة والأرز والليمون والبطيخ والمشمش . . الخ .

كما عرفوا أنواعاً من صناعات الأقمشة والملابس كالملابس القطنية والموسلين (نسبة إلى الموصل) والدمقس من دمشق والسجاجيد والأبسطة والتوابل والعطور .

* * *

وكان تأثير الحروب الصليبية على الغرب في مجال الفنون والآداب أعمق وأشد . فاهتم الغربيون بلغات العالم الاسلامي وظهرت الدعوة للعناية بدراسة اللغات الشرقية .

وكانت العناية بالدراسات الشرقية في أول أمرها أسلوباً ثالثاً بعد الأسلوبين السابقين من أساليب الحرب الصليبية الموجهة ضد الإسلام . وسيأتي الكلام عن هذا الموضوع بعد ذلك في مكانه من البحث .

وبتأثير هذه الحروب الصليبية نشطت دراسة علم التاريخ عند الأوربيين ، وظهرت مؤلفات كثيرة عن الحروب الصليبية وبيت المقدس . وتناول المؤرخون الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية بالدرس والبحث .. وأصبح لهذه المنطقة من العالم اهتمام خاص عند المؤرخين والجغرافيين . وبدأ الاهتمام بارتياد تلك المناطق الاسلامية ، ووصف الأماكن المقدسة ، وبيان الطرق إليها . ووضعوا كل هذه المعلومات والدراسات في خدمة أغراضهم العسكرية .

وكانت عنايتهم الجغرافية في أول الأمر قاصرة على سواحل آسيا

الغربية أو الساحل الشرقي لبحر الروم اعتقادا منهم ان هذا يعينهم على النصر على المسلمين في الأراضي المقدسة . فلما خاب أملهم في هذا الأمر، وفشلوا في السيطرة عليها وطرد المسلمين منها بالحرب، ولما سنحت لهم فرصة جديدة في عهد المغول، وتوهموا أنهم لحياد المغول الديني يستطيعون أن ينشروا المسيحية في آسيا، وأن يحولوا حكام المغول أنفسهم إلى المسيحية ليتعاونوا معهم بعد تنصيرهم في القضاء على المسلمين على نحو ما شرحناه من قبل ، عندما توهموا هذا انتقلت عنايتهم الجغرافية من ساحل آسيا الغربي إلى قارة آسيا كلها . لقد زادت أطماعهم فزادت مناطق اهتماماتهم . واهتموا اهتماماً شديداً بإيفاد البعثات التبشيرية لعلها تحقق ما عجزت الحروب الصليبية عن تحقيقه . ولكن كل هذا انتهى إلى الفشل . ففي سنة ١٣١٦ م اعتنق خانات المغول الاسلام . ولم يكد القرن الرابع عشر ينتصف حتى كان الإسلام قد عم وسط آسيا . أما شرقها فقد أقفل الحكام الصينيون أبوابه في وجه الأجانب . وبذلك عادت المسيحية من حيث أتت .

ولكن هل توقفت الحروب الصليبية بعد ذلك ! !

* * *

صقلية :

كانت أساطيل العرب التي تتردد بين شواطىء البحر الأبيض وجزره قد جعلت منه بحيرة عربية . ويرجع الفضل في هذا إلى تعاون شخصيتين اسلاميتين كبيرتين : معاوية والى الشام ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح والي مصر . وبفضل تنسيق الجهود بينهما استطاعت الأساطيل الإسلامية أن تحرز انتصارات بحرية سجلها التاريخ . وكانت جزيرة قبرص أولى جزر البحر الأبيض المتوسط التي ضمتها الأساطيل

الإسلامية إلى ممتلكات الدولة . وكان لقبرص أهمية خاصة في نظر المسلمين فهي لقربها من شواطىء البحر الأبيض الشرقية تعتبر مصدر خطر يهدد المسلمين .

ويبدو من مراجعة النصوص التاريخيه أن هذه الغزوات البحرية لم تكن تحظى بالارتياح والموافقة من قِبل الخليفة خوفاً على المسلمين من ركوب البحر ، وكان معاوية قد استأذن عمر في غزو قبرص فلم يأذن له ، فأعاد الاستئذان في عهد عثمان الذي اتخذ في أول الأمر نفس موقف عمر ، ثم لان بعد ذلك إزاء إلحاح معاوية .(1)

وبعد ذلك تجددت الغزوات والوقائع البحرية بين أساطيل المسلمين والروم . ففي سنة ٣٢هـ/ ٦٥٢م غزا المسلمون رودس، وجرت واقعة تاريخية في سنة ٣٥ هـ/ ٦٥٥ م بين الأسطول الإسلامي الذي أعده معاوية وعبدالله، وبين الأسطول البيزنطي . وحلت الهزيمة في هذه المعركة بأساطيل الروم رغم كثرة عددهم وعدتهم . وتعرف هذه المعركة بذات الصوارى . وبانتصار المسلمين فيها أصبحت السيادة في البحر الأبيض لأساطيلهم .

وبعد ذلك تعرضت صقلية لغزوات متقطعة كثيرة . ولكن المرحلة الحاسمة تبدأ سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧ م حين جرد زيادة الله بن الأغلب حملته إليها بقيادة أسد بن الفرات . ومع أن هذه الغزوة لم تحقق أهدافها كاملة بسبب تفشي الوباء بين جند المسلمين حتى هلك منهم خلق كثير كان من بينهم قائد الحملة نفسه أسد بن الفرات ، إلا أن الغزوات التي تتابعت بعد ذلك كانت تضيف في كل مرة أجزاء جديدة من

---

(1) فتوح البلدان : ص ١٥٩ ط أول القاهرة ١٩٠١ .

الجزيرة إلى سابقاتها . وكان فتح بلرم سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١م قد يسر الأمر أمام المسلمين لفتح ما بقي من بلادها . ولما كان ميناء بلرم يسهل اتصاله بقواعد المسلمين في شاطىء افريقيا، فقد أمكن عن طريقه تزويد جيوش المسلمين بالأمداد والأقوات التي كانت تصلهم بانتظام فتزيد من قدرتهم على القتال .

ويحسن قبل أن نتعرض لبيان ما تركه المسلمون في هذه الجزيرة من حضارتهم أن نشير إلى ما كانت عليه حالها قبل الفتح الإسلامي .

لقد رحب الصقليون أول الأمر بالقائد البيزنطي بلزاريوس الذي كلف من قبل جستينيان بفتح جزيرتهم سنة ٥٣٥م . وكان الصقليون يمنون أنفسهم في ظل الحكم البيزنطي بحياة أسعد من تلك التي عاشوها في ظل القوط . ولكن الأماني لم تتحقق لأن البيزنطيين فرضوا عليهم ضرائب فادحة دفعت كثيرين من أهلها إلى الهجرة حتى قل عدد سكانها . وقد تعددت الضرائب وتنوعت في ظل الحكم البيزنطي ؛ فمنها ما يتعلق بالأملاك ، ومنها ما يفرض على الرءوس ، ومنها ما يحصل على التجارة أو الصناعة . وهناك ضرائب أخرى كانت تجمع لصالح الجيش البيزنطي وتغطية نفقات جند الاحتلال . وبالاضافة إلى هذه الضرائب لم يكن الموظفون القائمون بتحصيلها ينسون أنفسهم ؛ فكانوا يتلاعبون في الحسابات ، ويزيدون في المقررات ، ويغشون في المكاييل ، ويضمون إلى جيوبهم ما ينتج عن هذا التلاعب كله من الفروق .

ولم يكن الأهلون يعرفون للضرائب حداً تقف عنده فكانت تتزايد باستمرار وترتفع باطراد . وبلغ الأمر ببعض الجباة أنهم لكي يضمنوا

تحصيل الضرائب المطلوبة كانوا يطلبون من الأهالي العاجزين عن الدفع رهن أبنائهم .

وبالجملة فقد أصبحت الجزيرة وشعبها نهباً مقسماً بين الحكومة والكنيسة والجيش . وكثر استعباد صغار الفلاحين الذين يعجزون عن دفع الضرائب .

وكما أن الخيانة بين البيزنطيين كانت قد ساعدت العرب في بعض مراحل الفتح ، فإن الخيانة بين العرب ساعدت النورمان على الاستيلاء على الجزيرة والقضاء على حكم العرب بها . وكان أمر حكام صقلية المسلمين قد انتهى إلى التقاتل فيما بينهم . وعندما هزم ابن الثمنه أسرع إلى النورمان يستعديهم على إخوانه المسلمين ويزين لهم فتح الجزيرة ويهون عليهم أمر من بها من الحكام والقواد . وكان النورمان يتوقون إلى الاستيلاء على الجزيرة لخصب أرضها وقربها من أملاكهم . فلما جاءهم ابن الثمنه يعرض عليهم مساعدته ، ووثقوا من ولائه لهم ، وخلوص نيته نحوهم ، اتجهوا بجيوشهم إلى الجزيرة فاستولوا على مسينه في أول الأمر ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م وجعلوها قاعدة لأعمالهم ينطلقون منها إلى بقية أجزاء الجزيرة .

ومع كل هذا لم يكن أمر الفتح على هؤلاء النورمان هيناً أو يسيراً ، فعانوا كثيراً من مقاومة المسلمين ، وظهرت بطولات اسلامية في هذه الحروب ، وقضوا عشرين سنة قبل أن يتم لهم السيطرة عليها .

وكما أشرنا من قبل إلى الحال التي كانت عليها جزيرة صقلية — إبان حكم البيزنطيين قبل الفتح الاسلامي — نرى من المفيد أن نشير هنا إلى الحال التي صارت إليها بعد أن تخلى عنها المسلمون .

كانت الحضارة الإسلامية قد انتشرت في أنحاء الجزيرة ؛ ولم يستطع أمراء النورمان أن ينكروا أهمية العنصر الإسلامي في إدارة شئون الجزيرة حرصاً على ما أصابته من حضارة لم تعرف الجزيرة مثيلاً لها من قبل .

كان أمراء النورمان يتشبهون في حياتهم الخاصة وفي ملابسهم بأمراء المسلمين .

وكان الأمير النورماني روجار الأول قد اتهم باعتناق الإسلام لأنه كان يحاسن المسلمين ، ويبسط عليهم حمايته ، ويصطنع ودهم ؛ ويبقى على الحكام والقواد منهم في مناصبهم ، ويتخذ في بلاطه الأطباء والمنجمين والمفكرين من المسلمين . وكان إلى جانب هذا يحب العربية ويجيدها . ولهذا السبب غلب على بلاطه الطابع الشرقي . وكان قد أطلق الحرية الدينية للمسلمين ، ونقش الشعار الإسلامي على أحد وجهي العملة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . كما كانت الأوامر الإدارية تصدر في عهده باللغتين العربية واليونانية .

ولما خلف روجار الثاني أباه ، سار على خطاه ؛ فارتدى ملابس شيوخ المسلمين ، وكتب على حلة التتويج عبارات بالخط الكوفي . وأرخ تتويجه بالتاريخ الهجري . وصك النقود وعليها التواريخ والنقوش العربية . كما أن الطابع الإسلامي قد غلب على مباني ذلك العهد ، إذ أمر فزينوا سقف كاتدرائية بالرمو بالنقوش العربية . [1]

وفي ضيافة هذا الملك نزل الشريف الإدريسي . وراعه ما وجد في الجزيرة من مظاهر حضارة المسلمين كالمضانع والقصور والمساجد

---

(١) المستشرقون : نجيب العقيقي ١٠٧/١

والحمامات والحوانيت التي بقيت شاهداً على ازدهار صقلية في عهدهم . وكان هذا الجغرافي العربي قد ذاع صيته في بلرمو عاصمة صقلية . وكلفه روجار بتصنيف كتاب في الجغرافية ، فبعث الادريسي العلماء وبصحبتهم الرسامون إلى كل الانحاء ليوافوه بتقاريرهم ومشاهداتهم . وكان يجمع كل ما يصله منهم ويسجله . ولما فرغ من الكتاب سماه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . ويسمى أيضاً كتاب روجار نسبة إلى ذلك الملك .

وفي عهد الملك غليوم الثاني (١١٦٦ — ١١٨٩ م) رحل ابن جبير الرحالة الاسلامي المعروف إلى صقلية . ووصف لنا ابن جبير في رحلته المتداولة هذا الملك الذي يسميه غليام فيقول :

« وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين ، واتخاذ الفتيان المحابيب ، وكلهم أو أكثرهم كاتم ايمانه متمسك بشريعة الإسلام . وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله حتى أن الناظر في مطبخته رجل من المسلمين . وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . . . . . . وليس في ملوك النصارى أترف في الملك ، ولا أنعم ، ولا أرفه منه . وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك ، وترتيب قوانينه ، ووضع أساليبه ، وتقسيم مراتب رجاله ، وتفخيم أبهة الملك ، وإظهار زينته بملوك المسلمين ...

« ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به « الحمد لله حق حمده » وكانت علامة أبيه « الحمد لله شكراً لأنعمه » . [1]

---

(١) رحلة ابن جبير : ص ٣١٥ تحقيق حسين نصار . دار مصر للطباعة . ١٩٥٥ .

« وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن . ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور ، وهو يحيي بن فتيان الطراز ، وهو يطرز بالذهب في طراز الملك : ان الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة تعيدها الجواري المذكورات مسلمة . وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله . ولهن في فعل الخير أمور عجيبة . وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك ، فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذاكراً لله ورسوله من نسائه وفتيانه . وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم : « ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به » تسكيناً لهم .

« وأما فتيانه الذين هم عيون دولته ، وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً وتأجراً ، ويتصدق تقرباً إلى الله وتزلفا ، ويفتك الأسرى ، ويربي الأصاغر منهم ويزوجهم ، ويحسن إليهم ، ويفعل الخير ما استطاع . وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمي هذه الجزيرة ، وسر من أسرار اعتناء الله عز وجل بهم [1] .

« ولهم في فعل الجميل أخبار مأثورة . وفي افتكاك الأسرى صنائع عند الله مشكورة . وجميع خدمتهم على مثل أحوالهم . ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان أنهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون أفذاذاً (افراداً) من مجلسه فيقضون صلاتهم . وربما يكونون بموضع تلحقه عين ملكهم فيسترهم الله عز وجل فلا يزالون بأعمالهم ونياتهم ، وبنصائحهم الباطنة للمسلمين في جهاد دائم . والله

(١) رحلة ابن جبير : ص ٣١٦

ينفعهم ويتحمل خلاصهم بمنه . » [1]

وفي الحديث عن بلرم يقول ابن جبير « وللمسلمين بهذه المدينة رسم باقٍ من الإيمان ، يعمرون اكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلوة بأذان مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم . وهم التجار فيها . ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم . ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي . ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه . . . . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى » [2] .

ويتحدث ابن جبير في موضع آخر عن أحوال المسلمين في صقلية فيقول : « . . . ربما تسبب إلى بعض أشياخهم أسباب نكالية تدعوه إلى فراق دينه . فمنها قصة اتفقت في هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم التي هي حضرة ملكهم الطاغية ، ويعرف بابن زُرعه ، ضغطته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الإسلام ، والانغماس في دين النصرانية . ومهر في حفظ الإنجيل ومطالعة سير الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في الأحكام النصرانية . وربما طرأ أيضاً حكم إسلامي فيستفتى أيضاً فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية . » [3] وهناك قصة أخرى يرويها ابن جبير عن أبي القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر وما وقع له من الوشاية والاتهامات . وما ألزم بدفعه من الغرامات حتى باع جميع دياره ، وتخلى عن كل ممتلكاته ، وبقي بلا مال . ويذكر ابن جبير أنه لما اجتمع به صرح له بقوله : « كنت أود لو أباع أنا وأهل بيتي فلعل

(١) رحلة ابن جبير : ص ٣١٧

(٢) نفسه : ص ٣٢٢

(٣) نفسه : ص ٣٢١

البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ؛ ويؤدي بنا إلى الحصول في بلاد المسلمين » . ويعلق ابن جبير « فتأمل حالا يؤدي بهذا الرجل مع جلالة قدره وعظم منصبه إلى أن يتمنى مثل هذا التمني مع كونه مثقلاً عيالا وبنين وبنات . »[1] ويقول : « ومن عظم هذا الرجل الحمودي المذكور في نفوس النصارى أبادهم الله أنهم يزعمون أنه لو تنصر لما بقي في الجزيرة مسلم إلا وفعل فعله اتباعاً له واقتداء به »[2] ويتابع ابن جبير : « ومن أعجب ما شاهدناه من أحوالهم التي تقطع النفوس إشفاقاً وتذيب القلوب رأفة وحناناً أن أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه إلى أحد أصحابه الحجاج راغباً في أن يقبل منه بنتاً بكراً صغيرة السن قد راهقت الإدراك فإن رضيها تزوجها ، وإن لم يرضها زوجها ممن رضي لها من أهل بلده ، ويخرجها مع نفسه راضية بفراق أبيها وإخوتها طمعاً في التخلص من هذه الفتنة . ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين » .

ومن كلام ابن جبير يظهر لنا بوضوح أن العنصر الإسلامي بحضارته كان هو الغالب على المجتمع الصقلي .

ولكن في كلام ابن جبير أيضاً ما يحتاج إلى التأمل . فقد ردد المؤرخون أن أمراء النورمان كانوا يرعون المسلمين ويقدرونهم حق قدرهم ، فعل هذا روجر الأول مع أنه كان المنتصر في حروبه مع مسلمي الجزيرة . ولكنه رأى من حسن السياسة أن يجمع حوله قلوب الغالبية العظمى من أهل الجزيرة وهم المسلمون . وسار أمراء النورمان من بعده على سنته . وكان العرب يحفظون لهم هذه الرعاية ويخلصون

(١) ابن جبير : ص ٣٣٢
(٢) نفسه : ص ٣٣٣

في خدمتهم ، إلا أن ابن جبير يقدم لنا صورة مخالفة لما ذكره غيره . وهي صورة قاتمة محزنة تدعو إلى الألم والترجع لحال المسلمين في تلك البلاد . ومع أنه مثلا يثني على الملك غليام الذي زار البلاد في عهده ، ويصفه بحسن السيرة ، والاعتماد في شئونه على المسلمين حتى عظمت ثقته بهم إلا أنه يذكر عن حاشيته من المسلمين أن « كلهم أو أكثرهم كاتم لإيمانه » [1] . فلماذا يكتمون إسلامهم إلا إذا كان الملك يكره الإسلام والمسلمين وإن كان بحاجة إلى اصطناعهم والتودد اليهم ؛ فهم الغالبية العظمى من السكان ، وإدارة الدولة وتسيير مرافقها لا تستغني عن حضارتهم وخبراتهم .

ومع أن غليام كما يذكر ابن جبير يقرأ ويكتب العربية . ويتخذ لنفسه شعاراً إسلامياً إلا أن جواري قصره المسلمات كن يتكتمن إسلامهن ، وأنه كان إذا مر بقصره فسمع ذكر الله والرسول ممن به من النساء والفتيان كان يقول لهم « ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به » تسكيناً لهم . وفي عبارة « تسكيناً لهم » التي ذكرها ابن جبير ما يقطع بخوفهم من إعلان عبادتهم . فهم يدارونه وهو يداريهم . وهم يحاولون أن يصطنعوه لأنفسهم وهو يحاول أن يصطنعهم .

وابن جبير يدعو عليه في مواضع متفرقة من كتابه فيقول « أراح الله المسلمين من ملكته » . [2]

ويذكر في موضع آخر عن المسلمين أنهم « لا أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا أبنائهم . تلافاهم الله بصنع جميل بمنه » . [3]

(١) ابن جبير : ص ٣١٥
(٢) نفسه : ص ٣٢٠
(٣) نفسه : ص ٣٢٣

ويتحدث عن حال المسلمين حديثاً باكياً ، وبما هم عليه من الذل والمسكنة ، وغلظة الملك ، ودواعي الفتنة في الدين . (١)

ويورد من قصة أبي القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر من زعماء المسلمين « ما يبكي العيون دماً ويذيب القلوب ألماً » . (٢)

ويذكر بعد هذه القصة قصة أخرى مما شاهده من أحوال المسلمين هناك « التي تقطع النفوس إشفاقاً وتذيب القلوب رأفة وحناناً » .

وظاهر من كلام ابن جبير أنه يخالف غيره في وصف حال المسلمين بجزيرة صقلية بعد زوال ملكهم . ويذكر الدكتور إحسان عباس أن في بعض نصوص ابن جبير عن أحوال المسلمين ما يوهم بالتناقض . ويعلل هذا بأن المسلمين كانوا يشعرون بالأمن والطمأنينة في البلاد التي يقوى فيها نفوذ الملك وتشتد سطوته ، ولكنهم كانوا يشعرون بالخوف وعدم الأمن في البلاد التي كانوا فيها قلة بين السكان أو كانت سطوته لا تمتد إليهم لتحميهم من العناصر المعادية لهم . (٣) وهو تعليل طيب إذا كان في كلام ابن جبير ما يدل على وجود هذه الفروق في أحوال المسلمين تبعاً للبلدان التي ينزلون بها .

وسجل الرحالة ابن حوقل أنه حين زار بلرم راعه فيها كثرة المساجد وكثرة المعلمين . وكانت المساجد في تلك الأوقات تقوم بدور تعليمي إلى جانب وظيفتها الدينية الأساسية . وقد زاد عدد المساجد في بلرم وحدها على مائتي مسجد ، وزاد عدد معلميها على ثلاثمائة معلم .

---

(١) ابن جبير : ص ٣٣١
(٢) نفسه : ص ٣٣٢
(٣) العرب في صقلية : ص ١٥١

وقد ترك المسلمون في الجزيرة كثيراً من عاداتهم . وآثار لغتهم لا تزال قائمة في الكثير من الأسماء والأعلام . وكلمة « قلتا » التي تبدأ بها اسماء القلاع هي الكلمة العربية قلعة .

وكان تأثير العرب بعلمهم في هذه الجزيرة أعظم من تأثيرهم بمبانيهم . والجانب الأعظم من الألفاظ العربية التي بقيت في الايطالية هي الألفاظ التي تعبر عن نواحي الحضارة المختلفة . وقد اضطرت جنوة أمام انتشار هذه الألفاظ العربية في اللغة الإيطالية إلى أن تؤسس في سنة ١٢٠٧ مدرسة لتعليم العربية . (١)

وللشعر العربي دخل في نهضة الشعر الإيطالي . فقد قلد أهل صقلية العرب في العناية بالشعر . ومن صقلية انتقلت هذه العناية إلى ايطاليا . كما تسرب القصص العربية إلى الأدب الإيطالي نفسه . ويذهب بعض العلماء إلى أن شاعر ايطاليا الكبير « دانتي » كان قد أفاد في روايته « الكوميديا الالهية » من رسالة الغفران لأبي العلاء المعري لأن التراث الإسلامي كان شائعاً في صقلية ومنها انتقل إلى ايطاليا . (٢)

وفي بلرم أنشأ المسلمون مدرسة للطب تعتبر أولى مدارس الطب في أوربا . ومن هذه المدرسة انتشرت دراسة الطب العربي في ايطاليا ثم في أوربا بعد ذلك .

ويشير الدكتور إحسان عباس إلى ثلاثة أنواع من الدواوين بقيت في عهد النورمانيين ، وتعتبر أثراً من آثار الحياة الديوانية الإسلامية . وهي : ديوان المظالم الذي اقتبسه روجار عن المسلمين . وكان عمل

---

(١) الاسلام والحضارة العربية : ص ٢٨٧ محمد كرد علي

(٢) راجع ص ٢٢٣ من هذا الفصل

هذا الديوان النظر في الشكاوى التي تقدم إليه وإنصاف أصحابها . وهناك أيضاً ديوان الطراز وهو ديوان اسلامي عرف في الأقطار الإسلامية قديماً . ومهمة هذا الديوان تطريز ملابس الملك . وقد عثر على عباءة للملك روجار اسلامية الزخارف. والمنظر من عمل هذا الديوان . ثم ديوان التحقيق الذي كان يعني بشئون الأرض وما يتصل بهـــا . [1]

* * *

وتطوى صفحة العهد الاسلامي في صقلية بعد أن يترك هذا العهد طابعه وحضارته .

ويصف ابن حمديس وطنه صقلية التي قضى فيها أجمل فترات حياته ، ويصور ما ثار في نفسه حول استعادة أرضه من عوامل الأمل واليأس . وما صار إليه أمره بعد استيلاء الأعداء عليه :

أعاذل دعني أطلق العبرة التي
عدمت لها من أجمل الصبر حابسا
لقدرت أرضي أن تعود لقومها
فساءت ظنوني ثم أصبحت يائســا
وعزيت فيها النفس لما رأيتهــا
تكابد داء قاتل السم ناحســـــا

. . . الخ الأبيات .

وفي موضع آخر يذكر صقلية بعد أن فقدها قومه : —

---

(١) العرب في صقلية : ص ١٤٧

ذكرت صقلية والأسى يهيج للنفس تذكارها
فإن كنت أخرجت من جنة فإني أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا ء حسبت دموعي أنهارها
ضحكت ابن عشرين من صبوة بكيت ابن ستين أوزارها

الأندلس :

كانت الحروب الصليبية وجزيرة صقلية من المسالك التي سلكتها الحضارة الإسلامية إلى أوربا . ولكن أسبانيا – أو الأندلس – كانت المعبر الرئيسي الذي عبرت عليه هذه الحضارة .

كان الفتح العربي في أسبانيا آخر ما قام به العرب من فتوح . وبانتهاء هذا الفتح بلغ الامتداد الاسلامي أقصاه .

بدأ هذا الفتح بحملة صغيرة تولى قيادتها طريف مولى موسى بن نصير عامل بني أمية على أفريقيا . واستطاع طريف ورجاله أن يتخذوا لهم نقطة ارتكاز جنوب اسبانيا عرفت بعد ذلك باسم جزيرة طريف أو كما يسمونها اليوم (تريفا) .

لكن الغزو الرئيسي بدأ بعد ذلك بقيادة طارق بن زياد سنة ٩٣ هـ/ ٧١١ م الذي نزل أسبانيا في الموضع الذي عرف باسمه وخلد ذكره « جبل طارق » ، والتقى بملك القوط لذريق عند مصب وادي بكة . وهزم القوط في المعركة رغم أن عددهم كان يزيد على ضعف عدد المسلمين . واختفى ملكهم لذريق بطريقة غامضة ، وتشتت شملهم ، فأصبح الأمر سهلاً بعد ذلك أمام طارق بن زياد . وكانت المدن تسقط في أيدي العرب واحدة بعد أخرى . وكان طارق إذا امتنعت

عليه احدى المدن إتركها الى غيرها حتى يستولي على أكبر قدر ممكن من البلاد . وقد استطاع بالفعل في زمن وجيز لا يتعدى بضعة أشهر أن يقضي على ملك القوط .

ولما بلغت مسامع موسى بن نصير أخبار الانتصارات التي حققها مولاد في أسبانيا . أراد أن يكون له هو الآخر نصيب منها ، فعبر في سنة ٩٤ هـ / ٧١٢ م البحر إلى الأندلس ووجه همته إلى المدن التي كان أمرها قد استعصى على طارق ففتحها . وبهذا التعاون بين الرجلين استطاعت الجيوش الإسلامية في مدة لا تزيد على سبع سنوات أن تفرغ من فتح الجزيرة . وبذلك ضم المسلمون إلى أراضيهم قطراً من اكبر أقطار أوربا وأجملها . [1] ولكنهم حين تقدموا في الشمال لينفذوا إلى فرنسا بقيادة عبد الرحمن الغافقي توقفوا عند تور ، ولم يستطيعوا الاستيلاء عليها أمام الدفاع المستميت الذي أبداه الفرنجة بقيادة شارل مارتل . وانتهز المسلمون الفرصة بحلول الليل واشتداد الظلمة فانسحبوا من مواقفهم وعادوا أدراجهم . وكان هذا الانسحاب منهم عملاً عسكرياً ممتازاً إذ لم يشعر بانسحابهم أعداؤهم الذين رأوا السكون مخيماً على موقع العرب في اليوم التالي فاعتقدوا أن الأمر فيه خدعة يدبرها لهم العرب ، حتى تبينوا الحقيقة بعد ذلك ، بعد فوات الأوان .

وإلى جانب الروح العربية العالية في القتال ، وطبيعة الجندي العربي القتالية الممتازة كانت هناك جملة عوامل في معسكر الأعداء ساعدت العرب على النجاح :

كان أعداء لذريق كثيرين . تعاونوا على هدمه بالتفاهم مع العرب

---

(١) حتي وزميلاه : تاريخ العرب ٢ / ٥٩٤ –

والترحيب بهم . والامتناع عن مقاومتهم .

كان أول أعدائه أصحاب العرش الذي اغتصبه منهم . وكان هؤلاء يرون الفرصة مواتية بالتعاون مع العرب للانتقام منه .

ويقال إن اوليان [1] الذي أمد الجيش الفاتح بالسفن ليعبر عليها كان واحداً منهم .

وكان الاستبداد والطغيان الذي فرضه لذريق على قومه هو العدو الثاني له . ظن أنه بهذا يحمي عرشه الذي اغتصبه ، فنشر بالاضطهاد ، والظلم ، وسوء الإدارة ، والسيطرة الإقطاعية كراهية شديدة له ورغبة في التخلص من حكمه .

وكان التعصب الديني الذي مارسه لذريق ورجال الكنيسة ضد مخالفيهم في العقيدة عدوا ثالثاً له . وكان اليهود الذين صب عليهم هذا التعصب أقلية في المجتمع الاسباني في ذلك العهد إلا أنها كانت كبيرة العدد . وكانت هي الأخرى تترقب الفرصة للخلاص منه . وقد حاول ملوك القوط أن يرغموهم على التنصر أو تصادر أموالهم . وينفوا من البلاد .

وكان الفلاحون عدوا رابعاً . كان هؤلاء الفلاحون يعملون في أملاك الكنيسة يلقون من السادة الملاك أسوأ معاملة ، وكانوا يعيشون في أحط مستويات العيش . ومن هنا فهم أيضاً أعداء النظام القائم لا يحرصون عليه وسيجدون في غيره قطعاً ما هو أفضل إذ ليس هناك أسوأ مما كانوا فيه .

---

(١) يقال له أيضا يلياذ ، يوليان ، جوليان

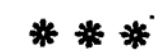
كذلك كان انعدام الوحدة القومية بين سكان البلاد عدوا خامساً . كان سكان البلاد أخلاطاً مختلفة من القوط الحاكمين ، والجرمان الذين كانوا يحكمون البلاد قبلهم ، وأهل البلاد من الأسبان . ولهذا لم تكن هناك وحدة عامة في ذلك المجتمع الذي تعددت فيه المصالح ، واختلفت الاتجاهات ، وتعارضت الأهداف .

ومن المؤسف أن تكون العوامل التي ساعدت العرب على النجاح والقضاء على ملك القوط هي التي أدت إلى زوال دولتهم بالأندلس بعد أن تفشت بينهم . فحين تفرقوا إلى طوائف ضاعت وحدتهم ، وبدأ كل حاكم منهم يفقد ثقته في غيره من الحكام .

ولم يتورع بعض هؤلاء الحكام عن خيانة إخوانه العرب جرياً وراء مصلحته الشخصية . ومن أمثلة هذه الخيانة أن سقوط مدينة طليطلة في يد الملك الأسباني الفونس تحقق بمساعدة ابن عباد ملك اشبيلية العربي . وبلغ الأمر بأحد هؤلاء الحكام انه صد جيش أخيه الزاحف لقتال الأسبان ، فلما انتصر الإسبان قضوا عليه وعلى أخيه معاً . وكان بعض الحكام العرب يفضلون الانضمام إلى الأسبان بدل الانضمام إلى إخوانهم ليكونوا قوة واحدة ضد عدوهم المشترك . ولم يجد أحد الحكام حرجاً في أن يهنىء فرديناند وايزابلا عند استيلائهما على القسم الغربي من مملكة غرناطة آخر المعاقل العربية في إسبانيا نكاية في أميرها العربي .

وعلى هذا كان شأن العرب يضعف يوماً بعد يوم بينما كانت قوة الاسبان في ازدياد فتمكنوا من انتقاص ملك العرب ولاية بعد ولاية . وعندما اتفقت كلمة فرديناند ملك ارجون ، وايزابلا ملكة قشتالة وتمت الوحدة بينهما لم يجد العرب بداً من الاستسلام في النهاية .

وكان من بين شروط التسليم أن يؤمن العرب على أنفسهم وأموالهم وأهليهم ، وألا يرغم أحد على ترك دينه . ولكن الإسبان نقضوا هذا الاتفاق وعذبوا العرب . وأرغموهم على ترك دينهم وعاداتهم ولغتهم حتى الأزياء العربية لم يسمحوا لهم بالظهور بها . وعلى وجه العموم حاولوا أن يجردوا المسلمين من كل مقوماتهم . وكانت نشوة الانتصار تدفعهم إلى سلوك سبيل العنف فأخذوا في إحراق الكتب العربية ، وإتلاف الآثار الرائعة التي كانت عنواناً لحضارة هؤلاء المسلمين . وفي عام ١٤٩٩ قدم الكاردينال كزمينيز دوسيسنروس برنامجاً للتنصير هدد فيه غير المسيحيين بالنفي من البلاد إذا رفضوا التنصر . ويذكر روم لاندو أن هذا المسلك العنيف من جانب الاسبان كانت له نتائج تخريبية ألحقت بأسبانيا أضراراً كبيرة ؛ فقد شغل الإسبان باضطهاد أعدائهم وملاحقتهم عن الاهتمام بمستقبل بلادهم مما عاق تطور أسبانيا ووقف نموها الحضاري فترة طويلة . [1]



الكشاف

فرس وعرب

تأثيرات فارسية

فرس واتراك

الأتراك والحضارة الاسلامية

الحضارة الاسلامية في الهند

الحضارة الاسلامية في اوربا